السيرة المباركة

لسماحة آية الله العظمى

مكارم الشيرازي (مدّظلّه)

حجّة الإسلام والمسلمين احمد القدسي

قدسی، احمد، ۱۳۳٦ ـ
السيرة المباركة لسماحة آية اللّه العظمىٰ مكارم الشيرازي (مدّظلّه) / احمد قدسی. ـ ـ قم: مدرسة الامام علی بن ابیطالب علیه السلام، ۱۳۸٤.
۳۳٦ ص. مصور (رنگی). ISBN: 964-8139-85-7
فهرستنویسی بر اساس اطّلاعات فیپا.
عربی.
کتابنامه به صورت زیرنویس.
۱. مکارم شیرازی. ناصر، ۱۳۰۵ ـ . ـ ـ سرگذشتنامه. ۲. مجتهدان وعلما ـ ـ سرگذشتنامه. الف. مدرسة الامام علی بن ابیطالب علیه السلام. ب. عنوان.
٤ ق ۷۳ م / ۵ / BP ۱۵۳ ۲۹۷/۹۹۸
کتابخانه ملی ایران ۲۵۹۸۵ ـ ۸٤ م

السيرة المباركة لسماحة آية الله العظمى مكارم الشيرازي (مدّظلّه)

اعداد: **حجّة الإسلام والمسلمين أحمد القدسي**
الكميّة: **۲۰۰۰ نسخة**
الطبعة: **الاولى**
تاريخ النّشر: ۱۳۸۴
عدد الصّفحات: **۳۳۶ صفحة**
حجم الغلاف: **كبير**
المطبعة: **سليمانزاده**
النّاشر: **مدرسة الإمام علی بن أبی طالب** علیه السلام
ردمك: ۷-۸۵-۸۱۳۹-۹۶۴

ايران ـ قم ـ شارع شهدا ـ فرع ۲۲
تلفكس: ۷۷۳۲۴۷۸-۲۵۱-۹۸++
www.amiralmomeninpub.com

سعر الكتاب: **۱۲۰۰ تومان**

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب لا يمثل استعراضاً لسيرة احـدى الشـخصيات الإسـلامية فحسب، بل يهدف إلى استجلاء الطرق المؤثرة لطلاب الحقيقة والسالكين طريق العلم والأخلاق.

بسم الله الرحمن الرحيم

التعرّف أكثر على شخصية معروفة

الحمد لله الذي فتح أبواب العلم والمعرفة على الإنسان وجعله في أسمى مراتب الخلقة بأدوات العلم بالأسماء: ﴿عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾[1]، وجعل في فطرته وهويته القابلية والاستعداد لتقبل مقام الخلافة الإلهيّة وليكون في مرتبة أسمى من الملائكة بحيث حظي بسجود الملائكة، وخلق فيه القدرة على استخدام القلم: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[2] و﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[3] ومهّد له الطريق للسير في خط التكامل المعنوي والانفتاح على الله تعالى.

والصلاة والسلام على أنبياء الله ورسله إلى عباده والهداة إلى طريقه لا من خلال فرض الهداية الإلهيّة على الإنسان بل ليثيروا فيهم دوافع الخير ويحركوا فيهم عناصر الصلاح «ويثيروا لهم دفائن العقول»[4]، وخاصة على الصادر الأول والتجلي الأكمل وغاية الإنسان الكامل الذي يمثل الشاهد على جميع الأنبياء والأُمم: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾[5]، (آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة)[6]، وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين الذين يمثلون مظهر جميع الأسماء الحسنى التي ظهرت من مخزن الغيب المطلق إلى منصة الظهور والشهود (نحن واللّه الأسماء الحسنى)[7]، فكانوا مصدر ومهبط الإرادة الإلهيّة في جميع الأُمور ومقدّرات: «إِرادَةُ الرَّبِّ فِي مَقادِيرِ أُمُورِهِ تَهْبِطُ إِلَيْكُمْ وَتَخْرُجُ مِنْ

---

١. سورة البقرة، الآية ٣١.
٢. سورة العلق، الآية ٤ – ٥.
٣. سورة الرحمن، الآية ٤.
٤. نهج البلاغة، الخطبة ١.
٥. سورة النساء، الآية ٤١.
٦. بحار الأنوار، ج ١٦، ص ٤٠٢، ح ١.
٧. تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ١٠٣.

بُيُوتِكُمْ[١] - قُلُوبُنا أَوْعِيَةٌ لِمَشِيَّةِ اللّهِ»[٢].

وسلام الله ورحمته ومغفرته وصلوات النبي والملائكة واستغفارهم على أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام وطلاب علومهم الذين تربوا في مدرسة أهل البيت عليهم السلام والذين حملوا مشعل الهداية طيلة تاريخ التشيع الدامي ورفعوا لواء الحق عالياً مع شدّة الضغوط والتحديات الصعبة.

هؤلاء الأشخاص هم الذين نالوا وسام الفخر بأنّ «**مدادهم الهادي**» إلى سواء السبيل أفضل من تاج كرامة الشهادة «**أفضل من دماء الشّهداء**»[٣]، حيث حفظوا ببيانهم وأقلامهم متراس الدين وحرسوا موقع الاجتهاد والتفقّه في مقابل هجمات التيارات الفكرية المعادية.

ونشكر الله تعالى أن يوفقنا للتناول من مائدة كرمه وفضله ويرزقنا من علوم هذه الشخصيات الكبيرة التي تتسم في نظرة كلية بأنّها:

١ ـ شخصيات كبيرة نهلت من الشجرة الطيبة لحوزات العلوم الإسلامية والمدرسة الجعفرية التي ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[٤].

٢ ـ أنّ هؤلاء قد تمحضوا في الإيمان والتحرك في خط المسؤولية ومن أجل اعلاء كلمة الحق طيلة تاريخ التشيع، ولم يبالوا بتحديات وهجمات أهل الدنيا وضغوط الطواغيت وتكفير المتحجرين، بل تحركوا بصورة جديّة في خط تبليغ حقائق الدين ونشر معارف أهل البيت عليهم السلام، وعملوا على حفظ وحراسة القيم الدينية والدفاع عن نواميس التشيع

---

١. مفاتيح الجنان، الزيارة الأُولى من الزيارات السبعة المطلقة للإمام الحسين عليه السلام.
٢. تفسير نور الثقلين، جلد ٥، صفحة ٤٨٦.
٣. والجدير بالذكر أن ما ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام مضامين أُخرى يستفاد منها هذا المفهوم بصورة جيدة، نظير ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «اذا كان يوم القيامة جمع اللّه عزّوجلّ النّاس في صعيد واحد ووضعت الموازين فتوزن دماء الشهداء مع مداد العلماء فيرجّح مداد العلماء على دماء الشهداء» (بحار الانوار، ج ٤، ص ١٤). وهناك عبارة أُخرى وردت عن طريق أهل السنّة. والراغبين يمكنهم الرجوع إلى (موسوعة الحديث النبوي، ج ٩، ص ٣٨٢).
٤. سورة إبراهيم، الآية ٢٤ ـ ٢٥.

وموازين الشريعة المحمدية بألسنتهم وأقلامهم[١].

٣ ـ هؤلاء الفقهاء والعلماء الذين اهتموا بالدفاع عن حدود العقيدة من موقع الدليل والعقل وجاهدوا قوى الانحراف بأداة البرهان والقرآن[٢].

٤ ـ هؤلاء المفكّرون الذين لم يكتفوا بكسب العلوم والمعارف المتداولة في الحوزات العلمية فحسب، بل تحركوا على مستوى اكتشاف أبعاد جديدة بأداة الاجتهاد المتحرك واستفادوا من العلوم الجديدة أيضاً ولم يجمدوا حركتهم في بُعد واحد من أبعاد الدين ويغفلوا عن سائر الابعاد الأُخرى[٣].

٥ ـ المحققون الذين لم يحترقوا في تنور ضعف الهِمّة ولم يدفنوا أنفسهم تحت غبار

---

١. إنّ الصدّيقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام نقلت هذا الحديث عن أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله في فضل علماء الدين وسعيهم الجاد لهداية الناس حيث قال: «إنّ علماء شيعتنا يحشرون فيخلع عليهم من خلع الكرامات على قدر كثرة علومهم وجدّهم في إرشاد عباد الله حتّى يخلع على الواحد منهم الف الف حلّة من نور ثم ينادى منادى ربّنا عزّوجل: «أيّها الكافلون لأيتام آل محمد صلى الله عليه وآله الناعشون لهم عند انقطاعهم عن آبائهم الّذين هم أئمّتهم، هؤلاء تلامذتكم والأيتام الّذين كفلتموهم ونعشتموهم، فاخلعوا عليهم خلع العلوم في الدنيا فيخلعون على كل واحد من أولئك الأيتام على قدر ما أخذوا عنهم من العلوم، حتّى أنّ فيهم – يعنى في الأيتام – لمن يخلع عليه مائة الف خلعة وكذلك يخلع هؤلاء الأيتام على من تعلّم منهم، ثمّ إنّ اللّه تعالى يقول: «أعيدوا على هؤلاء العلماء الكافلين للأيتام حتّى تتمّوا وتضعّفوها لهم...» (بحار الأنوار، ج ٢، ص ٣، ح ٣).

٢. يقول الإمام الهادي عليه السلام: «لولا من يبقى بعد غيبة قائمنا عليه السلام من العلماء الدّاعين اليه، والدّالّين عليه والذّابين عن دينه بحجج الله والمنقذين لضعفاء عباد اللّه من شباك إبليس ومردته ومن فخاخ النواصب، لما بقى أحد إلّا ارتدّ عن دين الله ولكنّهم الّذين يمسكون أزمّة قلوب ضعفاء الشيعة، كما يمسك صاحب السفينة سكّانها، أولئك هم الأفضلون عند الله عزّوجلّ» (بحار الأنوار، ج ٢، ص ٦، ح ١٢).

٣. لقد كان السيّد جمال‌الدّين اسدآبادي «الافغاني» من جملة علماء الدين الكبار والذي كان عارفاً بأُمور زمانه ومطّلعاً على علوم عصره حيث كان يجيب على المسائل المختلفة للناس والمجتمع الإسلامي في ذلك الزمان، وذكروا: «أنّ السيّد جمال الدّين كان من عادته أن يبقى في البيت طيلة النهار ولكن ما أن يحلّ الليل حتى يخرج من البيت وبيده عصاه ويتّجه إلى المقهى الصغير على مقرّبة من البيت «ازبكية»، وهناك كان يجلس في صدر المجلس ويجتمع حوله جماعة على شكل نصف دائرة وهم من الأُدباء والشعراء والفلاسفة والأطباء والمؤرخين والمهندسين وأصحاب العلوم الكيميائية والجغرافية والطبيعية ويسألونه أعقد الأسئلة ويطرحون عليه أصعب الإشكالات والسيد يجيبهم عن كل تلك الأسئلة ويفتح لهم أبواب الحل لهذه المشكلات بلسان عربي فصيح وبدون لَكْنَة أو تريث وبذلك كان مثاراً لدهشة المستمعين واقتناع السائلين بتلك الأجوبة» (بيدارگران تعاليم قبله، ص ٤٣).

التساهل والاهمال في أمر الدين وطلب العلم.

٦ ـ المصلحون الذين عاشوا يقظة القلب في صحراء الكسل وعصر الظلم واستيلاء الطاغوت، وعملوا على ايقاظ النائمين في ليالي الديجور الغارقة في ظلمات الجهل والعصبية ونفخوا في مجتمعاتهم نسيم الأمل والثبات والاطمئنان.

٧ ـ المصلحون الذين علموا بأنّ ايجاد المجتمع الديني وتشكل الحكومة الإلهيّة يعتبران من أوائل تكاليف العلماء، وهدفهم تجسيد الأحكام والمعارف الإسلامية في مفاصل المجتمع البشري، وهكذا عاشوا نور الأمل بمستقبل زاهر للمسلمين والأُمة الإسلامية[1].

٨ ـ السالكون في خط العلم والمتبحرون في ميدان الفكر الذين في عين اشتغالهم بطلب الاسرار الإلهيّة وانتشال الرموز الفرقانية فإنّهم يتصدرون مجالس الإجابة عن أسئلة الناس ورفع حاجات المجتمع الإسلامي المعنوية، الذين حملوا رسالة استنباط الأحكام الدينية وتبيين الثقافة الدينية العامة بحضورهم المتواصل في المجامع العلمية والحوزوية على أساس من التشكيلة المنسجمة والهادفة، وأعلنوا استعدادهم للإجابة عن الشبهات وعلامات الاستفهام لأفراد المجتمع بحيث جعلت منهم هذه الخصوصية علماء من الطراز الأول.

---

١. بعض الأشخاص يرون أنّ تدخل رجال الدين في المجالات السياسية وسعيهم لتشكيل الحكومة الإسلامية مخالف لأهداف الرسالة السماوية ومسؤولية علماء الدين، وقد كان الإمام الخميني قدس سره يشير إلى هذا المنط من الفهم والتفكير الديني في كلماته ورسائله أحياناً ويحذر الجميع من هذا النوع من التفكير، ومن ذلك أنّه كتب في وصيّته الإلهيّة السياسية: «إنّ الإعلام الأحمق والمسيء أحياناً يُثير بشكل شيطاني أنّ الإسلام والأديان الإلهيّة الأُخرى اهتمت بالأُمور المعنوية وتهذيب النفوس والتحذير من النوازع الدنيوية ودعت الناس إلى ترك الدنيا والاشتغال بالعبادة والأذكار والدعاء التي تقرّب الإنسان من الله تعالى وتحركه بعيداً عن الدنيا والحكومة والسياسة وأنّ هذه الأُمور تتقاطع مع الهدف السماوي والمعنوي الكبير للأديان الإلهية لأنّ الدخول في الحكومة والسياسة يقصد منه تعمير عمارة الدنيا، وهذا المسلك مخالف لمسلك الأنبياء العظام، ومع الأسف فانّ الإعلام المضاد للتفكير الصحيح قد امتد إلى صفوف بعض الروحانيين والمتدينين الجاهلين بحقيقة الإسلام حيث تصوروا أنّ التدخل في الحكومة والسياسة يمثل ذنباً وفسقاً بالنسبة إلى المتدين».

٩ ـ الصالحون الذين نالوا مقامات سامية في دائرة العلوم الدينية والمراتب الدراسية في الحوزة العلمية ولكنّهم مع ذلك لم يروا في هذه المقامات والمناصب سوى أداة ووسيلة لخدمة الدين والمذهب ولم يبيعوا الدرجات المعنوية والمثوبات الأُخروية التي وعدوا بها في قبال خدماتهم العلمية في دائرة القلم والبيان بحطام الدنيا ومتاعها القليل وعناوينها الزائفة.

١٠ ـ وأخيراً فهؤلاء الاساطين في علم الفقه الذين رفضوا حالة الجمود والكسل في حياتهم ومعيشتهم وتحركوا بجدّ واستمرار (حيث إنّهم بعد مضي ستين، سبعين سنة من عمرهم المبارك كانوا يتحركون في طلب العلم والتعليم بمقدار مضاعف) معرفتهم بمقتضيات الزمان ومتطلبات العصر ومع اتصافهم بحسن الذوق وعلو الهمة وسعة الافق الذهني وعدم الاعوجاج في الخط الفكري المزاجي ودقّة النظم في حياتهم وثورة الإيمان في قلوبهم مع اعتمادهم على الشعور العقلاني في البيان والقول، والعزم الراسخ والروح القوية، حيث نسجوا شخصياتهم الفذة بهذه السمات والابعاد الإنسانية.

ربّنا، نسألك وأنت مبدأ الكمالات في عالم الوجود أن تمنحنا اليقظة وشرح الصدر وتزيل عنّا حجب الغفلة لكي لا تحجبنا عثراتهم عن رؤية سيمائهم النيّرة ولا تبعدنا أخطاؤهم عن الاستمداد من كوكب حكمتهم «فإنّه لا حكيم إلّا ذو عثرة»[١].

نسألك اللّهم أن تمنحنا الوفاء والأدب لكي لا نستخدم أقلامنا وبياننا ضد من علّمونا الحكمة والكلام، ولكي لا نصرف همّنا في اجهاض حركتهم البنّاءة في سبيل خدمة الدين

---

١. عن الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «غريبان: كلمة حكمة من سفيه فاقبلوها، وكلمة سفه من حكيم فاغفروها فإنّه لاحكيم الاّ ذو عثرة ولاسفيه إلاّ ذوتجربة» (بحار الأنوار، ج ٢، ص ٤٤).
ومع الأسف فانّ بعض المتصيدين بالماء العكر عندما يواجهون بعض الشخصيات الكبيرة والمحترمة والمقبولة لدى الناس يسعون إلى إيجاد الاشتباهات والأخطاء لدى هذه الشخصيات الكبيرة ويتحركون على مستوى تضخيم هذه الأخطاء والتقليل من فضائل وكمالات هؤلاء العلماء الفضلاء لغرض إيجاد موقع لهم بين الناس، وأحياناً ينظرون إلى الشخصيات الكبيرة بمنظار سوء الظن إلى درجة أنّهم يعجزون عن فهم ودرك أوضح الواضحات في إطار التقييم العلمي والعملي.

وتقوية أركان المذهب كما يقول أمير البيان (صوات الله عليه): «**لا تجعلنّ ذرب لسانك على من أنطقك وبلاغة قولك على من سدّدك**»[١].

ونأمل أن لا يمنعنا حجاب المعاصرة الجاهلي من معرفة هذه الشخصيات المرموقة التي تفتخر بها مدرسة أهل البيت عليهم السلام وأن لا نكون من الذين لا يكتبون عن هذه النجوم الزاهرة في سماء المعرفة ولا يشرحون سيرتهم للناس إلّا بعد أُفولهم وتوسدهم الثرى.

وكذلك نأمل ونسأل الله تعالى أن يرزقنا طول العمر لكسب العبرة والاعتبار في مشاهدة عاقبة الأشخاص الذين تحركوا في مقابل هذه الشخصيات الكبيرة من موقع الخصومة والعناد وسخّروا أقلامهم ضد من وضع حياته على طبق الاخلاص في خدمة الدين والدفاع عن التشيع حتى أنّه لقّب (بشيخ المؤلفين) أو (شيخ القلم) في العصر الحاضر[٢].

---

١. نهج البلاغة؛ الكلمات القصار، الكلمة ٤١١.

٢. إنّ احترام الاستاذ وتكريمه وقع في الثقافة الإسلامية وروايات المعصومين عليهم السلام مورد التأكيد الكبير بل إنّ السيرة العملية للعظماء كانت على هذا المنوال.

يقول الإمام السجّاد عليه السلام في رسالة الحقوق في حق الاستاذوالمعلم: «وأمّا حقّ سائسك بالعلم فالتعظيم له والتوقير لمجلسه وحسن الإستماع إليه والإقبال عليه والمعونة له على نفسك فيما لا غنى بك عنه من العلم بأن تفرّغ له عقلك وتحضره فهمك وتذكّي له قلبك...». (تحف العقول، ص ٢٩٦).

وينقل ابن سماحة آية الله العظمى الحائري رحمه الله مؤسس الحوزة العملية في قم المقدّسة عن والده أنّه قال: «إن التوفيق الذي عشته في حياتي واستطعت من خلاله تشكيل الحوزة العلمية كان بأجمعه رهين الخدمة التي كنت أبذلها لاستاذي المرحوم السيد محمد فشاركي رحمه الله، فعندما كان طريح الفراش للمرض الشديد الذي أصابه بقيت معه مدّة ستة أشهر أتولى جميع أُموره من القيام بتطهيره وتنظيفه إلى المسائل الأُخرى» (سيماى فرزانگان، ص ٢٦٨).

ومن جهة أُخرى نقرأ عن المحدّث الكبير السيد نعمت الله الجزائري رحمه الله في عقوبة الاستهانة بحرمة الاستاذ أنّه قال: «كنت أدرس عند أحد المجتهدين في إصفهان والذي كان يدرس بدوره في البداية عند مجتهد آخر، وعندما استفاد منه العلم وأصبح عالماً أنكر أن يكون قد درس وتتلمذ عند ذلك الاستاذ وأنكر أن يكون استاذه رجلاً فاضلاً وعالماً، وقد اطّلع استاذه على مقولته هذه ولعنه ودعا عليه وقال: اللّهم اسلبه كلّما تعلّم منّي وابتله بمرض النسيان، ومن الصدفة أنّ هذا الرجل كان معروفاً بقوّة الحافظة إلّا أنّه حرم فيما بعد من هذه النعمة ولم يستطع بعد ذلك أن يحفظ أيّة مسألة من المسائل العلمية.

ويقول المرحوم الجزائري: إنّ هذا الشخص موجود الآن في إصفهان وأشكر الله تعالى أن وفقني إلى خدمة اساتذتي والاستغفار لهم ورضاهم عني». (المصدر السابق؛ ص ٢٦٩).

نعم، فإنّ الاستاذ الكبير الذي سنتعرف عليه في هذا الكتاب يعتبر حلقة من هذه السلسلة الطيبة وكوكباً من هذه المنظومة الزاهرة.

إنّ ما يميز هذه الشخصية وبقية السلف عن سائر الشخصيات الدينية المرموقة أنّه يعدّ عالماً جامعاً لجميع المكارم والخصال الحميدة التي تجذب الناظر إليها كما سنشير إلى ذلك في الفصول اللاحقة.

وفي الختام نود أن نتقدم بجزيل الشكر إلى العالم والمحقق والأخ العزيز حجة الإسلام والمسلمين سعيد الداودي (دام عزّه) حيث إنّه رفدنا بالكثير من الهوامش النافعة في هذا الكتاب ونرجو أن يتقبل الله تعالى منه هذا العمل ويجعل ما نبذله من جهد بعنوان (**حق الأُستاذية**)،...

وفّقنا اللّه لصالح ما يرضاه

الحوزة العلميّة قم المقدّسة ـ ربيع١٤٢٢ هـ ق

أحمد القدسي.

١

الاصالة العائلية وسلامة المحيط الأسري

لا يخفى على كل إنسان ما لدور الأصالة الأُسريّة وكرامة الأُسرة في حركة الإنسان نحو خط الكمال المعنوي والابتعاد عن الرذائل النفسانية والأخلاقية، وكذلك لا يمكن انكار دور سلامة المحيط الأُسري في ابتعاد الإنسان عن الذنوب وعناصر الانحراف واللامبالاة، وبالتالي تأثيرها في ترشيد حركة الإنسان وسعادته، هذه السلامة وتلك الاصالة وإن لم تكونا علّة تامة لنيل الموفقية في حركة الحياة إلّا أنّ تأثيرهما في حياة الشخص كبير جدّاً من جهة خلق الشفافية الباطنية والطهر القلبي وازالة التشويشات الذهنية والازمات الروحية، وبشكل عام فإنّ تأثيرهما في ايجاد الأرضية الخصبة والقاعدة المتماسكة لحركة أفضل وأسرع في دائرة التحصيل العلمي والأخلاقي غير قابل للانكار.

عندما يقرر رسول الله صلى الله عليه وآله هذه الحقيقة ويفتخر بأسلافه الطاهرين ويقول: «**لم يزل ينقلني الله من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهّرات حتّى أخرجني في عالمكم هذا لم يدنسني بدنس الجاهليّة**»[١]. وعندما نقرأ كذلك في زيارة وارث في خطابنا لسيد الشهداء: «**أشهد أنّك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهّرة لم تنجّسك الجاهليّة بأنجاسها...**»، كلّ ذلك شاهد على هذا المدّعىٰ، وأنّ استاذنا الجليل قد منحه الله تعالى هذه النعمة الكبيرة، فقد كان جدّه الأكبر «**الحاج محمد باقر**» من تجار مدينة شيراز حيث كان يشتغل بالتجارة في محلة «سراي نو» في شيراز وكان يرتدي لباساً شبيهاً بلباس رجال الدين ويشارك باستمرار في صلاة

---

١. مجمع البيان، ج ٣ و ٤، ص ٤٩٧.

الجماعة في مسجد «مولاي» في شيراز حيث كان يتمتع باحترام كبير من قِبل الناس، وكان جدّه سماحة الاستاذ المرحوم «**الحاج محمد كريم**» (**ابن محمد باقر**) يرتدي العمامة أيضاً، ولكنّه في أثناء عمله في السوق كان يلبس قبعة على رأسه، وقد اشتغل موظفاً أيضاً في «سوق الجمارك» في شيراز ثم في «سوق وكيل» كتاجر في مدينة شيراز، وكان ملتزماً بالاشتراك في صلاة الجماعة في مسجد «مولاي» في شيراز وكانت له علاقة وطيدة بالمرحوم أية الله العظمى الحاج الشيخ محمد جعفر المحلاتي رحمه الله (والد المرحوم أية الله العظمى الحاج الشيخ بهاء الدين المحلاتي) وكذلك كانت له علاقة بآية الله الحاج السيد محمد جعفر الطاهري رحمه الله.

ويتحدث الاستاذ عن هذه العلاقة بالقول:

«كان جدّي الحاج محمد كريم مكارم، رجلاً متديناً، وكان لي من العمر أربع سنوات عندما جاء الخبر بوفاته في الحمام العمومي بالسكتة، وأتذكر تلك الفترة جيداً وما كان يحوطني به من رعاية ومحبّة في زمان حياته، وكانت جدّتي لا تعرف القراءة والكتابة ظاهراً ولكنّها على درجة عالية من الذكاء وقوّة الحافظة، حيث كانت تذهب باستمرار إلى مجالس الوعظ وتستمع إلى أصحاب المنبر وتحفظ ما يقولونه، وعندما تعود إلى البيت تحدثني بما سمعته من الأحاديث والروايات الشريفة من أصحاب المنبر، وكنت أحفظ مقداراً كبيراً منها منذ أيّام الطفولة بسبب علاقتي العاطفية الشديدة معها، فكنت أسمع منها قصص الأنبياء والأولياء، وتدريجياً أصبحت علاقتي شديدة بالمسائل الدينية، وكانت جدّتي على اطلاع كبير بمسائل الطب القديم وتتحدث معي عنها، بينما كان جدّي الأكبر الحاج محمد باقر الذي لم أره في حياتي رجلاً متديناً ومحبّاً لأهل البيت عليهم السلام وللتشيع، وفي الجملة كانت أُسرتي عاشقة لأهل البيت عليهم السلام ومتعاطفة بشدّة

مع مذهب التشيع رغم كون جدّي ووالده ليسوا من رجال الدين ولا من أبناء الروحانيين.

وأتذكر جيداً أنّ جدّتي كانت تأخذني دائماً إلى المسجد، وهكذا تعلمت الذهاب إلى المسجد منذ الطفولة، وعندما كان لي من العمر ثمان سنوان كنت أذهب إلى مجالس الوعظ والإرشاد وكنت أشعر بلذة كبيرة في الاستماع إلى المواضيع الدينية».

وكذلك يقول الاستاذ:

«كان والدي له علاقة شديدة بتلاوة القرآن الكريم، فمنذ دخولي إلى المدرسة الابتدائية كان يدعوني أحياناً إلى غرفته في بعض الليالي ويقول لي: يا ناصر، اقرأ لي من كتاب الآيات المنتخبة وترجمتها «وهذا الكتاب عبارة عن مجموعة من الآيات الكريمة التي اختارها بعض العلماء لغرض تدريسها في المدارس الدينية في زمان الشاه رضا خان» وكنت بدوري أقرأ هذه الآيات وترجمتها له وكان يسرّ بذلك كثيراً»[١].

---

١. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «رحم اللهُ والداً أعان ولدَه على البرّ» (مستدرك الوسائل، ج ١٥، ص ١٦٨).
إنّ مرحلة الطفولة والمراهقة تعتبر من حيث التأثر بالمحيط مرحلة مصيرية وحساسة جدّاً، فما يتعلّمه الأطفال في هذه الأعوام من العمر يكون له مكانه الراسخ في أرواحهم ونفوسهم بحيث يصعب كثيراً تغييره في السنين اللاحقة، ومن هنا قالوا: «العلم في الصغر كالنقش في الحجر» وطبعاً لا تختص هذه المقولة بمسألة العلم بل تستوعب مسائل التربية أيضاً، ولذلك يهتم العلماء بمسألة التعليم والتربية في مرحلة الطفولة كثيراً ويعتبرون أنّ هذه الفترة من العمر كفيلة بصياغة وارساء دعائم شخصية الإنسان فيما بعد.
وقد نجد في روايات أهل البيت عليهم السلام اهتماماً خاصاً بأمر تعليم وتربية الأبناء منذ سنين الطفولة حيث أرشدوا الآباء والأُمهات وأولياء الأُمور إلى أهميّة هذه المرحلة، فنقرأ في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «الغلام يلعب سبع سنين ويتعلّم الكتاب سبع سنين ويتعلّم الحلال والحرام سبع سنين». (الكافي، ج ٦، ص ٤٧).
ونقرأ في رواية أُخرى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «بادروا أولادكم بالحديث قبل أن يسبقكم إليهم المرجئة». (المصدر السابق).
والمرجئة من الفرق المنحرفة التي كانت في زمن الإمام الصادق عليه السلام.

٢

النبوغ والاستعداد الموهوب

إنّ النبوغ أو الموهبة الذاتية تعتبر وديعة إلهية في واقع الإنسان النموذجي حيث لا يشهد المجتمع البشري في كل جيل من الأجيال سوى عدّة معدودة من هؤلاء الشخصيات الفذة.

ولعلنا نعرف بوضوح الحكمة الكامنة وراء تخصيص بعض أفراد البشر بهذه الموهبة الممتازة، هل أنّها مجرّد امتحان وابتلاء إلهي لهذا الشخص الموهوب؟ وكيف يسلك مثل هذا الإنسان في خط الاستفادة من هذه المواهب الإلهية وكيف يسقي شجرة النبوغ هذه في نفسه لتثمر وتتفتح أزهارها بما ينفع الناس؟ وهل أنّ هذا المعنى يخضع لقانون معين وهو أنّ كل صاحب نعمة يتحمل بمقدارها من المسؤولية، وبمقدار ما لديه من رأس المال سيكون ربحه السنوي، وبمقدار ما يبذل من الجهد والحركة فإنّه سيتمتع بمحصول أكثر؟ أو أنّ هذا الإنسان النابغة يكتم نبوغه في إطار ضيق من رغباته الذاتية ولا يتحرك من أجل تفعيل هذا النبوغ بما فيه خدمة الناس وبالتالي سيقنع بالتكاسل وينفق هذه الموهبة في خط الانحراف والرذيلة ولا يكون نصيبه منها سوى الخسران؟[١]

---

١. تعرض القرآن الكريم لبيان السرّ في الاختلاف وعدم التساوي بين أفراد البشر فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فى مَا آتَاكُمْ...﴾. (سورة الانعام، الآية ١٦٥).
ويقول سماحة الاستاذ في التفسير الأمثل ذيل تفسير هذه الآية وبعد أن طرح مسألة الاختلاف المجعول والطارىء على البشر بسبب أشكال الظلم والجور التي يجب على الإنسان التصدي لها ومكافحتها:

وبعبارة أُخرى أنّ هذه النعمة من النبوغ والفطنة هل تكون بـمثابة امـتحان للشـخص وللآخرين أيضاً من الرقباء ليـتّضح جـيداً رضـاهم بـهذا التـقدير الإلهـي لصـاحبهم، أو يحسدونه على هذه النعمة ولا يتعاملون معه من موقع الاحترام والقيم الأخلاقية؟

أو يكون لهذا التفضيل الذاتي حكمة أُخرى كأن تكون هذه النعمة مثلاً نـتيجة وثـمرة للأعمال الصالحة التي قام بها الوالدان أو بعض الأباء والأجداد[١]، ليكون لهم هذا الولد ثمرة من الباقيات الصالحات لأعمالهم ونتيجة لما اكتسبوه بجهدهم ليكون لهم ذخراً وذخيرة في الدنيا والآخرة؟ أو هناك حِكم ومصالح غيبية أُخرى.

وعلى أيّة حال فلا شكّ في حقيقة هذا المعيار الإنساني الذي طرحـه القـرآن الكـريم بقوله: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾[٢]، أي أنّ معيار الفضيلة هو ما يكتسبه الإنسان بـيده وبعمله ومن خلال سعيه وحركته في خط الفضيلة والأخلاق والمسؤولية، وبعبارة أُخرى: إنّ النفع الذي يجنيه الإنسان إنّما هو بمقدار ما لديه من رأس مال ذاتي ومـواهب فـطرية: «فانّ أصل رأس المال هذا لا يتعلق به بل هو من عند الله»، وببيان أدق: «إنّ معيار كرامـة الإنسان يكمن في سعيه وحركته في إطار قابلياته الذاتية والفطرية، ولا بدّ أن يكون هـذا

أ «ولكن في نفس الوقت لا يمكن إنكار أنّه حتى لو روعيت جميع أُصول العدالة في المجتمع الإنساني ـ أيضاً ـ فإنّه لا يتساوى الناس جميعاً من حيث القابليات ومن حيث الفكر، والذوق، وفي الذكاء، والسليقة وحتى من جهة التركيب البدنيّ، حيث يقول القرآن الكريم في الغرض من ذلك: «ليبلوكم فيما أتاكم ورفع بعضكم فوق بعضكم درجات». (التفسير الأمثل ذيل الآية البحث).

وعلى هذا الأساس فاننا نعلم يقيناً بأنّ بعض أشكال الاختلاف بين البشر ومنها في مسألة النبوغ والمـلكات الذاتية الأُخرىٰ إنما وجدت لغرض امتحان الناس جميعاً لكي يخرج الإنسان في استخدامه واستثماره لهـذه المواهب الإلهيّة مرفوع الرأس في هذا الامتحان الإلهي.

١. ورد في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام فيما يتعلق بقصّة موسى والخـضر عليهما السلام أنّ الخـضر تـحدّث عـن الجدار لليتيمين: «لمّا أقام العالم الجدار أوحى اللّه تعالى الى موسى عليه السلام أنّي مجازي الأبناء بسعى الآباء إن خيراً فخيرٌ وإن شرّاً فشرٌّ» (تفسير نور الثّقلين، ج ٣، ص ٢٨٧).

وفي حديث آخر أيضاً عن الإمام صادق عليه السلام أنّه قال:

«انّ الله ليصلح بصلاح الرجل المؤمن ولده وولد ولده». (المصدر السابق، ص ٢٨٩).

٢. سورة النجم، الآية ٣٩.

السعي هادفاً في حركة الحياة، ويصبّ هذا الهدف في جهة التكامل المعنوي والأخلاقي بما يحقق للإنسان الانفتاح على الله تعالى، ولا يكون ذلك إلّا مع خلوص النيّة وتحت مظلة التقوى التي تمثل حالة راسخة تعيش في مشاعر الإنسان الداخلية، ومن هنا جاءت الآية الشريفة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ...﴾[1] ناظرة إلى هذا المعنى بالذات.

ومن الواضح أنّ الالتفات إلى هذه الحقيقة المهمّة بإمكانه أن يخلق في نفس الإنسان النابغة اهتزازاً وخشية من تحمل المسؤولية الثقيلة الملقاة على عاتقه، وكذلك تسبب في بعث الطمأنينة من جهة أُخرى في قلوب أحبائه وأصدقائه باعتبار أنّ وجود هذا الإنسان يمثل نعمة إلهيّة في أوساطهم.

طبعاً لا ينبغي الترديد في هذه الحقيقة وهي أنّ الإنسان لو سخر جميع قابلياته ومواهبه في خط الطاعة والإيمان والعبودية فانّ ذلك سيعود عليه بالبركة العظيمة وسيقترب من مرتبة لقاء الله وسيحقق لنفسه درجات سامية من الكمال الإلهي في هذا السبيل.

إنّ استاذنا الجليل يتمتع في الأصل بهذا النبوغ والموهبة الذاتية من جهة، ومن جهة أُخرى فإنّه تحرك بلطف الله وعناية أهل البيت المعصومين عليهم السلام في خط الطاعة والمسؤولية والرسالة (كما سيأتي في البحوث اللاحقة) وعمل على تفعيل هذه المواهب الإلهية وتجسيدها في أرض الواقع النفساني والاجتماعي، وبالطبع فانّ ذلك يمثل حقاً كبيراً في ذمّة طلابه وتلاميذه بأن يتحركوا من أجل استمرار هذا الخط ودعم سماحة الاستاذ وتثبيت أقدامه بدعواتهم وممارساتهم العملية.

إنّ نبوغ سماحة الاستاذ كان مشهوداً منذ الطفولة وكان يتجلّى على شخصيته أكثر فأكثر طيلة مراحل عمره الشريف.

أقدم قضية في الذاكرة:

ويحدثنا سماحة الاستاذ عن قضية تمتد إلى مرحلة الطفولة ويقول:

---

١. سورة الحجرات، الآية ١٣.

«إنّ أقدم ما أتذكره من طفولتي هو ما يتعلق بمرضي في ذلك الوقت حيث أتذكر أنني مرضت مرضاً خفيفاً ونمت في المهد، وكان الفصل شتاءً وكان سريري يقع في زاوية من باحة البيت، وفي وسط الباحة هناك حوض نملؤه من ماء البِئر، ولكن بما أنّ ماء الحوض قد تنجس ولم يمكن تطهيره بماء الدلو الذي يستخرج من البئر، وكان حل هذا المشكل أن يتمّ افراغ بعض ماء الحوض ثم يملاؤون ظرفاً كبيراً من الجلد يدعى بالكر «وهو بمقدار كر واقعاً» ثم يتمّ افراغه في الحوض ليختلط ماؤه بماء الحوض ويطهر الجميع «وبالطبع فانني أفهم الحالة هذه ولكنني في ذلك الوقت كنت اذكرها بصورة ضبابية» وأخيراً تمّ ملأ الظرف الجلدي بالماء من البئر وأفرغوه في الحوض فامتلأ الحوض بالماء وفاض من جوانبه وجرى الماء إلى تحت سريري وكنت أرى كل هذه الأُمور وثبتت في خاطري بحيث أنني أتذكرها جيداً وكأنّ القضية حدثت بالأمس».

هذه الواقعة تذكرنا بالقصص والاساطير لنوابغ من أمثال ابن سينا، وتدلّ بوضوح على وجود نبوغ غير طبيعي لدى سماحة الاستاذ.

الدروس الطفروية:

وقد أشار كذلك سماحة الاستاذ إلى الدروس التي كان يحضرها بشكل قفزات إلى الأمام ويقول:

«عندما كان لي من العمر أربع أو خمس سنوات كنت أذهب إلى المدرسة الابتدائية، وبما أنّ سني لم يكن يسمح لي بالدراسة الرسمية، لذلك كنت أشترك في دروس مقدّماتية في مدرسة تدعى «زينة» في شيراز، ولكنني في نفس تلك الدروس كنت أستوعب التعليمات بصورة جيدة

ولذلك تمّ ارتقائي إلى دروس أعلى بدون مراعاة سلسلة المراتب المفروضة».

بداية الدروس الدينية:

هذا النبوغ غير العادي تجلىٰ أكثر فأكثر بعد الانتهاء من مرحلة الدراسة الابتدائية والمتوسطة وبعد سقوط رضا شاه والانفتاح والانفراج النسبي حيث تمّ ارسال دعوة من قِبل أحد علماء شيراز الكبار «وهو المرحوم آية الله الحاج السيد نورالدين الشيرازي» لجميع الراغبين في تحصيل العلوم الدينية «وكان سماحة الاستاذ في الصف الثالث للمرحلة الاعدادية أو الثانوية وفي نفس الوقت يشترك بهذه الدروس الدينية بشوق كبير إلى جانب دروس الثانوية». ويقول الاستاذ:

«في المرحلة التالية دخلت مدرسة «خان» في شيراز وكانت من المدارس القديمة والكبيرة جدّاً وكانت محل تدريس وتحصيل الفيلسوف الكبير صدر المتألهين الشيرازي، بدأت بدراسة جامع المقدمات وشرح الأمثلة وكان استاذي فيها المرحوم رباني الشيرازي، وقلت له إنني لا أمتلك كتاب جامع المقدمات فلو أنّك أعرتني هذا الكتاب ليوم واحد لأقرأه وأقرأ كذلك الأمثلة وشرح الأمثلة وأتقدم للامتحان، فقدم لي الكتاب وبدأت بقراءته جميع ساعات الليل والنهار وتوجهت إلى الامتحان في الغد ونجحت فيه وتمّ ارتقائي لمرحلة أعلى فودعته واشتركت في صف آخر».

مسيرة عشر سنوات من التحصيل بأربع سنوات:

إنّ ذروة هذا النبوغ للاستاذ تجلّت بصورة أكبر عندما تحرك بخطوات واسعة في التحصيل العلمي في الحوزات الدينية بحيث إنّ ما كان يستغرق من الطالب عشر سنوات من

الدراسة في الحوزة قد اختزله الاستاذ بأربع سنوات، فعندما كان عمره عند ذلك سبع عشرة سنة كان يكتب حاشية على متن كفاية الاصول للمرحوم الآخوند الخراساني، ويقول الاستاذ في هذا الصدد:

«كنت قد شرعت بالدراسة الحوزوية على يد استاذي الهمام «آية الله موحد» من أول كتاب السيوطي إلى آخر الكفاية بمدّة أربع سنوات، هذه الدروس التي تستغرق الآن في الحوزات العلمية مدّة عشر سنوات، وعندما أتممت درس الكفاية كان لي من العمر سبع عشرة سنة وكنت في شيراز حينما بدأت بكتابة حاشية مضغوطة على الكفاية، وأذكر هذه الملاحظة الشيقة وهي أنني بعد اتمام جامع المقدمات في مدرسة خان جاء المرحوم آية الله موحد يوماً إلى دكان والدي، وكان الفصل فصل الصيف حيث كنت اشتغل في دكان والدي الذي كان يعمل في حياكة الجوارب، فالتفت إلى والدي وقال له بما مضمونه:

ـ كم ولد لك؟

ـ أربعة أولاد.

فقال له الشيخ موحد: تعال واجعل هذا الولد (ناصر) وقفاً للإمام صاحب الزمان عليه السلام، فقبل والدي بالرغم من أنني كنت أُساعده في كثير من أُمور المتجر، وبذلك أرسلني مع الشيخ موحد إلى الحوزة العلمية في مدرسة آقاى بابا خان».

اتمام الصمدية في أقل من يومين:

ومن عجائب وقاع ذلك الزمان ما تحدث به سماحة الاستاذ حيث قال:

«في أحد الأيّام سألني استاذي عن العبارة المعروفة في كتاب

«الصمدية» (والمبرد إن كان كالخليل فكالخليل وإلّا فكيونس وإلّا فكالبدل»، وأوصاني بحلّ هذا الإشكال، ولم أكن قرأت كتاب الصمدية من بين كتاب جامع المقدمات إلى ذلك الوقت في حين أنّ هذا الكتاب يعتبر من أصعب كتب جامع المقدمات، فعزمت على حلّ الإشكال بمطالعة الصمدية وانتهيت من مطالعته في أقل من يومين (٣٦ ساعة) واستطعت أن أُجيب عن سؤال الاستاذ وشرحت له عن قراءتي للكتاب، فتعجّب كثيراً وشوقني».

إنّ هذا التوهّج وصل إلى الذروة عندما نرى شاباً في السابعة عشرة أو التاسعة عشرة من العمر يشترك في درس شيخ الفقهاء واستاذ الاساتذة المرحوم آية الله العظمى السيد البروجردي[1].

---

١. كان سماحة آية الله العظمى السيد البروجردي رحمه الله مرجع الشيعة الكبير قد ولد في شهر صفر عام ١٢٩٢ للهجرة في مدينة بروجرد وشرع بتحصيل العلم منذ السابعة من العمر وكان محط نظر استاذه لما وجده من معالم الذكاء غير العادي في هذا الطفل.

وعندما بلغ من العمر الثامنة عشرة توجه إلى مدينة إصفهان لإدامة تحصيله العلمي، وهناك مضافاً إلى استمراره بتلقي دروس الفقه والاصول والفلسفة والرياضيات قام بتشكيل حوزة تدريسية بنفسه، ثم إنّه توجه في سنة ١٣١٩ هق إلى النجف الأشرف وحضر في درس الأُصول للعالم الكبير الآخوند الخراساني رحمه الله حيث لفت نظر إستاذه الكبير إليه.

وبعد أن بقي السيد البروجردي مدّة تسع سنوات في النجف الأشرف عاد إلى ايران وبقي في مدينة بروجرد مدّة ست وثلاثين سنة مشتغلاً بالنشاطات العلمية والثقافية فيها.

ثم إنّ السيد البروجردي مرض عام ١٣٢٣ هش وتوجه إلى طهران لطلب العلاج وبعد أن تحسنت حاله قام ـ بدعوة من أكابر علماء الفضلاء والحوزة العلمية في قم ـ بالتوجه إلى هذه المدينة وبتدريس الفقه والاصول في حوزتها العلمية حيث تزعم منصب المرجع الأعلى للشيعة في ذلك الوقت وتخرج على يديه الكثير من الطلّاب والمجتهدين واستطاع أن يقدّم خدمات دينية وثقافية كثيرة للشيعة، ومن الخصوصيات المعنوية البارزة للسيد البروجردي: الإخلاص والتوكل على الله تعالى، حيث ينقل الشهيد المطهري هذه الواقعة التي تتحدث بوضوح عن هذه الخصوصية في سماحته:

«كان سماحته يتوجه في فصل الصيف (وكان حديث العهد بالإقامة في مدينة قم) إلى زيارة مدينة مشهد، وينقل أحد مراجع التقليد المعاصرين عنه أنّه أبدىٰ عزمه في جلسة خاصة على التوجه إلى مشهد، ونحن بدرونا قمنا بتشكيل جلسة في غيابه للمشاورة في ذلك ولم نر الصلاح في ذهابه إلى مشهد وكنّا نتصور أنّه وبسبب كونه جديد العهد بمدينة قم أنّ الناس في ايران وطهران ومشهد لا يعرفون سماحته بصورة جيدة

الاشتراك في درس آية الله العظمى البروجردي قدس سره:

لقد كان السيد البروجردي (كما يحدثنا سماحة الاستاذ) رجلاً قد ملئ إيماناً وتقوى، وذو ذكاء نادر وسيماء نوراني وجذاب وفقيهاً بارعاً، وفي والواقع كان يمثل مدرسة مستقلة في الفقه تقترب من الواقع الشيء الكثير، وأمّا في علم الرجال والحديث والعلوم والادب فإنّه كان متبحراً كثيراً، وكان درسه جذّاباً لسماحة الاستاذ كثيراً بحيث يعترف استاذنا أنّه قد حاز الكثير من الفقاهة في محضر مدرسة البروجردي الفقهية.

ويتحدث سماحة الاستاذ عن مشاركته في درس السيد الكبير في الفقه والحديث بما يلي:

«في بداية شبابي (كنت في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة) وكانت مشاركة الطالب في مثل هذا العمر في درس آية الله العظمى البروجردي الذي يعد من أساطين الحوزة ـ وكان يشترك في هذا الدرس استاذي آية الله العظمى الداماد وآية الله العظمى الكلبايگاني وكذلك الإمام الراحل قدس سره ـ أمراً عجيباً ولا سيما أنني كنت أتجرأ أحياناً وأطرح إشكالاً على الاستاذ في أثناء الدرس، فكانت ظاهرة عجيبة للطلاب في ذلك الوقت بحيث كان البعض يقول: كيف يتجرأ هذا الغلام الشيرازي ويسمح لنفسه بأن يطرح إشكالاً في مثل هذا الدرس الكبير».

هنا نورد حكاية تتعلق بهذه القضية كما يلي:

أوبالتالي ربّما لا يكون هناك استقبال جيد ولائق له في مشهد، ومن هنا قررنا أن نصرفه عن السفر إلى مشهد بذريعة أنّه قد أجرى حديثاً عملية جراحية جديدة وأعذار أُخرى.

في جلسة أُخرى كرر سماحته رغبته في السفر إلى مشهد، ونحن بدورنا ذكرنا له ذرائع مختلفة لنصرفه عن هذا السفر، ولكن أحد حضّار المجلس أظهر ماكنّا نخفيه في نفوسنا وفهم السيد البروجردي مقصودنا الأصلي من مخالفتنا لهذا السفر، وفجأة تغيرت سحنته وخاطبنا بلحن جدّي ومؤثر:

«لقد منحني الله تعالى من العمر سبعين سنة، وقد تفضّل عليَّ طيلة هذه المدّة بفضائل ونِعم كثيرة لم يكن لي أي تدبير فيها، وقد سعيت طيلة هذه المدّة أن أفهم وظيفتي الشرعية وأعمل بها، والآن وقد بلغت سبعين سنة لا أجد مناسباً أن أُفكر في نفسي وفي شؤوني الخاصة». (الامدادات الغيبية في حياة البشر؛ ص ٧٦، بتصرف قليل).

تشويق آية الله العظمى البروجردي قدس سره:

«في أحد الأيّام أشار آية الله العظمى البروجردي في بحث الفقه إلى مسألة صيد اللهو»، أي أن يسافر الإنسان لطلب الصيد لغرض اللهو، والمعروف بين الفقهاء أنّ الصلاة في هذا السفر لا تكون قصراً بل يتم هذا الشخص صلاته، ولكن قلّ ما يحكم الفقهاء بحرمة هذا العمل، وكنت في ذلك الوقت طالباً صغير السن وجمعت أدلة كثيرة على حرمة هذا النحو من الصيد من كلمات القدماء والمتأخرين وأثبتُّ أنّ صيد اللهو من مصاديق السفر الحرام بحيث يجب على المكلّف أن يتمّ صلاته فيه. عندما قرأ آية الله العظمى البروجردي ماكتبته في هذا الموضوع سألني متعجباً: هل كتبت أنت هذا الموضوع؟ فقلت له: نعم.

درجة الاجتهاد:

إنّ هذا النبوغ والذكاء الخارق مع جملة من الصفات والخصوصيات في شخصية الاستاذ أدّى إلى أن يحصل الاستاذ على إجازة الاجتهاد وهو في سن الرابعة والعشرين من العمر:

ويتحدث الاستاذ لنا عن ذلك بقوله:

«بعد مجيئي إلى النجف الأشرف ومن خلال مشاركتي في بحوث الخارج للأساتذة الكبار في حوزة النجف وطرح أسئلة متعددة أصبحت يشار إليّ بالبنان واهتم الأساتذة والعلماء بي ومنحوني حبّهم ورعايتهم بحيث إنني استطعت أن أحصل على إجازة الاجتهاد في سن الرابعة والعشرين من عمري من مرجعين كبيرين في ذلك الوقت، أحدهما: آية الله العظمى الاصطهباناتي الذي يعد من المراجع الكبار ويعتبر شيخ الفقهاء في

ذلك الوقت، وقد بذل لي رعـايته ولطـفه كـثيراً ولذلك كـتب لي الاجـازة بالاجتهاد الكامل، والآخر آية الله العظمى الحاج الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، وبما أنّه لم يكن على اطلاع بحالي وتحصيلي الدراسـي طـلب أن يمتحنني، فقبلت ذلك، فطلب مني أن أكتب له رسـالة فـي مسألة: هـل أنّ التيمم مبيح للصلاة أو رافع للحدث؟ فكـتبت له رسـالة مـفصّلة فـي هـذا الموضوع وعرضتها عليه، ومضافاً إلى ذلك أجرى لي الشيخ كاشف الغطاء امتحاناً شفوياً أيضاً وسألني عن أعقد مسألة من مسائل العـلم الإجـمالي، فعندما أجبته عنها كتب لي إجازة الاجتهاد ومنحني كل الحبّ والرعاية».

من الأُمور التي تشهد على وجود هذا النبوغ والموهبة الذاتية لسماحة الاستاذ «وفي نفس الوقت تعتبر شاهداً على الحافظة القوية له» هو أنّ الاستاذ أحياناً كان يكتب درس آية الله العظمى السيد الخوئي وهو في النجف الأشرف بعد مضي اسبوعين من تلقي الدرس، في حين أننا نرىٰ في هذا العصر أنّ أغلب الطلاب يكتبون درس الاستاذ في مكان الدرس حتى لا تفلت منهم ملاحظة أو ينسوا شيئاً منه.

تقريظ آية الله العظمى السيد الحكيم قدس سره:

وفي آخر قصّة يحدثنا سماحة الاستاذ عن حوزة النجف الأشرف، وهي شـاهد آخـر على نبوغ الاستاذ وبلوغه أوج النضج العلمي، هو ما تفضّل به صاحب مستمسك العـروة الوثقى المرحوم آية الله العظمى السيد الحكيم[1] الذي يعد من أساطين فقهاء الشيعة حيث

١. ولد آية الله العظمى السيّد محسن الحكيم ابن العلّامة السيّد مهدى الحكيم في سـنة ١٣٠٦ هـ ق، درس عند اساتذة كبار كالسيّد محمّد كاظم اليزدي، الملاّ محمّد كاظم الخراساني، السيّدابو تراب الخـوانسـاري، الميرزا حسين النائيني وآقا ضياء الدين العراقي، وقد أصبح السيد الحكيم من مراجع الشيعة المشهورين بعد وفاة آية الله العظمى السيد البروجردي، وتوفي في ٢٧ ربيع‌الاوّل من سنة ١٣٩٠ هق، وخلّف ٢٥ كتاباً في

كتب لسماحة الاستاذ تقريظاً وثناءً جميلاً في حاشية دفتر كتاب الطهارة «وهو تقريظ بحث الخارج للفقه للسيد الحكيم وبقلم الاستاذ» فقد كتب السيد الحكيم ما هذا نصّه:

«بسم الله الرحمن الرحيم وله الحمد والصلاة والسلام على رسوله وآله الطاهرين، قد نظرت في بعض مواضع هذا التقرير[1] بمقدار ما سمح به الوقت فوجدته متقناً غاية الاتقان ببيان رائق وأسلوب فائق يدلّ على نضوج في الفكر وتوقّد في القريحة واعتدال في السليقة فشكرت الله سبحانه أهل الشكر على توفيقه لجناب العلّامة المهذّب الزكي الألمعي الشيخ ناصر الشيرازي سلّمه الله تعالى ودعوته سبحانه أن يسدّده ويرفعه إلى المقام العالي في العلم والعمل، إنّه وليّ التسديد وهو حسبنا ونعم الوكيل والحمد لله ربّ العالمين».

محسن الطباطبائي الحكيم

٩ / ج ١ / ١٣٧٠ هق

الفقه والأُصول، وأهمها كتاب «مستمسك العروةالوثقى»، أمّا عن خصوصياته وسماته الأخلاقية فقد ذكروا: «كان السيد في غاية اللطافة والأدب في مجلسه حيث كان يتحدث مع الناس بمنتهى المحبّ واللطف وفي نفس الوقت كان يتمتع بهيبة خاصة، وكذلك كان يسعى دائماً أن تكون حركاته وسكناته وأعماله وفقاً للآداب والتعليم الإسلامية، ولهذا كان يتحلى بروح كبيرة وأخلاق طيبة وملكات فاضلة.

ومع هذه الروح الكبيرة والشخصية القوية التي كان يتمتع بها فإنّه كان في نفس الوقت متواضعاً جدّاً بحيث لم يشاهد على حركاته أي أثر للكبر والتكبر بل كانت ترتسم على فمه ابتسامة جميلة دائماً»(من سيرة آية الله العظمى الحكيم، ص ٤٠).

١. المراد من هذا التقرير هو ما كتبه سماحته عن بحث الخارج للفقه لآية الله العظمى حكيم قدس سره، حيث تضمن هذا التقرير نظرات سماحة آية الله العظمى مكارم الشيرازي (دام ظلّه) وقد تمّ تصوير الصفحة الأُولى من الدفتر الأول لتقريرات سماحته على درس السيد الحكيم والتقرير المذكور يقع في الحاشية وقد أوردنا صورة منه في فصل التصاوير.

مباحثة الاستاذ مع الإمام موسى الصدر حول كتاب (أشباه الفلاسفة):

لقد تجلّى نبوغ الاستاذ وقابليته الوفيرة في مجال التدريس والتحقيق والتأليف بعد إقامته في حوزة النجف مدّة سنة ونصف ورجوعه إلى قم المقدّسة [١] ولا سيما في مجال التحقيق والتأليف أولاً: لقد كتب الاستاذ كتاب «أشباه الفلاسفة» وله من العمر سبع وعشرون سنة.

وثانياً: إنّ هذا الكتاب قد صدر في أجواء مشحونة ضد رجال الدين والحوزة العلمية والدين الإسلامي وقد عرف بأنّه (كتاب العام) وذلك من خلال سعي وتعريف العلّامة الشيخ الشهيد المطهري قدس سره.

ثالثاً: على مستوى التجربة العملية في دائرة التأليف يمثل هذا الكتاب الثاني من مصنّفات المؤلف.

---

١. وقد ذكر سماحة الاستاذ السبب في عودته من حوزة النجف الأشرف قائلاً:
«... في البداية كنت أعيش ألم الغربة والبعد عن الأهل والأقرباء والأصدقاء في ايران وخاصة في شيراز وقم، ولكن مجاورة الإمام علي عليه السلام وخاصة زيارة مسجد الكوفة وأحياناً السفر إلى كربلاء مشياً على الأقدام في أيّام العطلة التي كانت مليئة بالأجواء المعنوية والروحانية كانت تزيل من حواسي الملل وألم الغربة... ولكنني كنت اواجه بعض الأُمور التي لم تسمح لي البقاء أكثر من ذلك إلى جوار الإمام علي عليه السلام:
أولاً: الجو الحار جدّاً في النجف في أيّام الصيف بحيث إنّ أحد الأصدقاء صنع لنا الشاي في أحد أيّام الصيف بحرارة الشمس، وأحياناً تصل حرارة الجو إلى درجة أننا عندما نريد تقبيل ضريح أمير المؤمنين عليه السلام نشعر بالحرارة تماماً، ولم أكن أتحمل الحرارة الكثيرة لأنني كنت أُصاب بالرعاف أحياناً من شدّة الحر.
ثانياً: كانت شدّة الاختلافات، التي كانت تصل أحياناً تصل إلى الازقة والشوارع تؤلمني بشدّة.
ثالثاً: والأهم من ذلك أنّ الأجواء الدينية السائدة في العراق كانت مؤسفة للغاية في ذلك الزمان، وقد كانت النجف التي تعدّ مركزاً كبيراً للشيعة وبسبب نفوذ الأجانب قد تلوثت بشدّة حيث كان الإفطار العلني في أيّام رمضان وترك الصلاة شائعاً بين الناس حتى أنّهم يلعبون القمار إلى جوار الصحن الشريف للأمام علي عليه السلام وصحن الإمام الحسين عليه السلام في المقاهي، وبدأ السفور تدريجياً بين النسوة وشاعت المفاسد الأخلاقية، أمّا مدينة بغداد مركز النواب الأربعة للإمام صاحب الزمان عليه السلام ومدفن هؤلاء العظماء فكانت قد غرقت بالفساد بحيث إنني ولمدّة طويلة نسبياً عندما كنت في العراق فكرت مرّات عديدة بزيارة قبور هؤلاء العلماء الأربعة كما كان الجميع يتشرّفون بزيارتهم ولكنني كنت أمتنع عن ذلك لئلا أُواجه مظاهر السفور في هذه المدينة وأبتلي بالتلوث بالذنب، ولهذا خرجت من العراق في حين أنني كنت أعيش أمل البقاء فيه، وعلى أيّة حال فانّ هذه الأُمور أدّت إلى عودتي مجدداً إلى الحوزة العلمية في قم في شعبان سنة ١٣٧٠ هـ ق وإقامتي في هذه المدينة.

ورابعاً: لقد تمّ طبعه ثلاثون مرّة، وبديهي أنّ الكتاب الذي يطبع ثلاثين مرّة يعدّ في عالم المطبوعات رقماً مهماً، ويحدثنا الاستاذ عن هذا الكتاب بقوله:

«كان لدينا جلسة اسبوعية مع فضلاء الحوزة العلمية من اصدقائنا الذين كنّا نشترك معهم في المباحثة، ويحضر هذه الجلسة بعض الشخصيات المهمّة منهم: الإمام موسى الصدر وأشخاص آخرون لا أجد مسوغاً لذكر أسمائهم، وكانت البحوث التي تطرح على بساط البحث تتعلق بالشيوعية حيث كانت الشيوعية تتمدد بسرعة في ذلك الزمان إلى ايران والبلاد الإسلامية المجاروة للاتحاد السوفيتي السابق، «وخاصة أنّ حكومة الشاه كانت تتحرك على مستوى توهين عرى الإيمان والتدين بين الناس» فكان ذلك سبباً في اشاعة الأفكار الماركسية بواسطة حزب تودة الشيوعي الذي كان يتحرك على مستوى الجامعات خاصة وكانت لديهم نشريات وصحف كثيرة اهتمت بترجمة كتابات رواد الماركسية وبعضها كان من كتابات الشيوعيين في ايران، وأخيراً وصل الأمر إلى درجة التأزم والتسافل بحيث خرج عن حدود البحوث المنطقية وأخذ يتجلى على شكل توجيه الإهانة إلى المقدّسات الدينية من قبلهم لأنّهم كانوا يعلمون أنّ الإسلام مهما كان ضعيفاً فإنّه يقف سدّاً منيعاً بوجه مطامعهم، وقد امتدت هذه البحوث إلى الحوزات العلمية التي وجدت أنّ وظيفتها التصدي إلى هذا التيار المخرّب، وكان المرحوم العلّامة الطباطبائي وتلميذه الشجاع المرحوم العلّامة المطهري من جملة الأشخاص الذين تصدوا إلى هذه المسؤولية حيث كتبا «اصول الفلسفة والمنهج الواقعي» الذي يمثل حصيلة جهد هذين العلمين في هذا المجال.

وقد شرعنا مع أصدقائنا بالتحقيق حول عقائد وأفكار هذه المدرسة وكنّا نبحث في جلستنا الاسبوعية المواضيع المتعلقة بالماركسية من خلال مطالعة

كتبهم لكي نكون على اطلاع كامل بأفكارهم ونظرياتهم ثم نضعها قيد الدراسة والنقد، وقد طلبت من الاخوة الموافقة على أن أكتب بعض المواضيع المتعلقة بالماركسية ثمّ أطرحها في هذه الجلسة لكي يتكامل الموضوع بصورة أفضل، وبالفعل فقد كتبت هذا الكتاب وسمّيته «أشباه الفلاسفة» وذكرت فيه جملة من المواضيع للفلاسفة الماديين وخاصة من أتباع المدرسة الماركسية ونقدتها مستعيناً بالملاحظات التي أوردها الاخوة في تلك الجلسة. ثم عملت على صياغتها بأسلوب قصصي لتكون أكثر جذّابية، وتمّ نشر هذا الكتاب وهو الكتاب الثاني من تأليفاتي، وقد استقبله الناس بشوق بالغ بحيث تكرّر طبعه لثلاثين مرّة تقريباً».

التأثير العميق لكتاب (أشباه الفلاسفة) في يقظة المسلمين:

ويتحدث سماحة الاستاذ عن تأثير هذا الكتاب الواسع لا سيما في البلدان الإسلامية الخاضعة لسيطرة الروس، ويقول في هذا الصدد:

«لقد كان الاخوة القادمون من أفغانستان يقولون لي: إنّ هذا الكتاب كان له أعظم تأثير في زمن سلطة الروس على أفغانستان وخاصة بين صفوف طلاب الجامعة الذين كانوا يدافعون عن الإسلام في وجه التيار الشيوعي وحتى أنّه تمّ وضعه في بعض الصفوف بصورة كتاب تدريسي، وبذلك حصل لي أصدقاء كثيرون من الشيعة وأهل السنّة في صفوف الاخوة الافغان بواسطة هذا الكتاب».

ثم يذكر سماحة الاستاذ حادثة شيقة في هذا المجال لا بأس بالاستماع إليها من لسانه:

«قبل عدّة سنوات وبينما كنت متشرفاً للحج إلىٰ مكة المكرمة وقد دعيت من قبل بعثة الإمام الراحل قدس سره إلى الحج، أخبرني أحد الاخوة في أحد

الأيّام في مكتب البعثة بأنّ رجلاً من طاجكستان يريد ملاقاتك، فقلت له: لا مانع لدي. فجاء ذلك الرجل وكان في متوسط العمر وله لحية طويلة ووجهٌ نورانيٌّ ويتحدّث بالفارسية بطلاقة فقال: لقد كنت قبل ثلاثين سنة أُفكر في الماركسية وكان بلدي طاجكستان من بلدان الاتحاد السوفيتي السابق، ولم يكن لدي مصدر لأتبيّن به الحق من الباطل إلى أن عثرت على كتاب «أشباه الفلاسفة» وقد قرأت عليه اسمك فقرأته وتبيّنت لي الأُمور بوضوح، وكما يعبر ذلك الرجل: لقد حصلت على الحجة القاطعة، وبالرغم من أجواء الاضطهاد والارهاب الفكري الشديد في ذلك الوقت قمت بمخاطرة كبيرة وطبعت من هذا الكتاب ألفي نسخة ونشرتها بخفية «والظاهر أنّ هذا الكتاب قد وصل إلى طاجكستان عن طريق أفغانستان»، وعلى أيّة حال فبعد ثلاثين سنة قررت التوجه إلى مكة المكرمة وكنت أفكر بأنّ مؤلف هذا الكتاب هل هو حي أو ميت؟ فقلت في نفسي أنّه ليس في حال الحياة بعد ثلاثين سنة، ولكن جئت على سبيل الاحتياط أسأل من الاخوة الايرانيين في هذا المقر عنك، فقالوا لي: إنّه حي يرزق وقد جاء إلى مكة أيضاً «ولعله تصور أنّ مؤلف هذا الكتاب له من العمر سبعون عاماً عندما كتب هذا الكتاب وبعد مضي ثلاثين سنة أصبح له من العمر مائة سنة ومن البعيد يبقى حياً إلى هذا الوقت، في حين أنني كنت كتبت هذا الكتاب ولي من العمر سبعة وعشرين سنة تقريباً».

لا يضيع عمل الخير:

وبينما كان الاستاذ يتحدث عن هذه القضية إذ أشار إلى نكتة دقيقة ولطيفة، وهي أنّ العمل الصالح مهما كان قليلاً فإنّه يفتح طريقه ويتجلّى بنفسه للآخرين بل ينمو ويشتد حتى

يصير شجرة طيبة: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [١]، حيث يقول:

«وأنا أشكر الله تعالى على أنّ هذا الكتاب انتقل بدون علمي واطلاعي إلىٰ أفغانستان ومن هناك نفذ إلى طاجكستان وبعث على يقظة الناس وانتباههم، وهنا أقول: إنّ عمل الخير لا يضيع كما ورد في الحديث الشريف: (ما كان لله ينمو) فبالرغم من أنّ هذا الكتاب لا يمثل إلّا عملاً صغيراً إلّا أنّه ازداد ونما وأنا أنظر إليه، واللطيف أنّ ذلك الرجل قال لي بعد ذلك: إنني على المذهب الحنفي ولكنني أُحب الثورة الإسلامية في ايران كثيراً، وأتوجه كل اسبوع إلى سفارة ايران في دوشنبه (عاصمة طاجكستان) ولي ابنان أرغب في ارسالهما إلى قم ليدرسا في الحوزة العلمية عندك، وبدوري أرشدته إلى طريقة ذلك ولكنّ أحداث طاجكستان وقعت بعد ذلك ولم تتحقق هذه الرغبة».

فتوة واخلاص الشهيد المطهري رحمه الله:

وعلى أيّة حال فإنّ النبوغ والابتكار والابداع وأمثالها من السمات التي يتميز بها سماحة الاستاذ تجلّت بوضوح في هذا الكتاب بحيث إنّ العلّامة المخلص الشهيد المطهري الذي يعدّ ثمرة من ثمرات هذه الشجرة الطيبة لم يمنعه حجاب المعاصرة عن الاعتراف بقيمة هذا الكتاب حيث أخذه بنفسه إلى هيئة الاشراف على الكتاب السنوي لتقييمه، ويتحدث سماحة الاستاذ عن فتوة الشهيد المطهري في هذا الصدد ويقول:

«ومن الضروري أن أُشير إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ المرحوم الشهيد المطهري قال لي:

إنني قرأت كتابكم (أشباه الفلاسفة) وبما أنّني أُعجبت به رأيت أن أُقدمه

---

١. سورة إبراهيم، الآية ٢٥.

إلى هيئة الاشراف على أفضل كتاب السنة (وهم هيئة من أساتذة الجامعة) وأرغب أن يطلع طلاب الجامعة على هذا الكتاب ويعلموا بوجود عقول مفكّرة في الحوزة العلمية ينافسون أفضل العقول المفكّرة في الجامعة.

وهكذا قدّم الشهيد المطهري هذا الكتاب وفاز بالجائزة الأُولى وانتخب في تلك السنة على أنّه أفضل كتاب لذلك العام، وكان كتاب الشهيد المطهري ا(أُصول الفلسفة والمنهج الواقعي) وهو عبارة عن أبحاث للاستاذ العلّامة الطباطبائي والشهيد المطهري. قد فاز في السنة السابقة بالجائزة الأُولىٰ في هذه المسابقة العلمية.

وطبعاً هناك بعض الاخوة وبسبب عدم اطلاعهم على محتويات هذا الكتاب بصورة جيدة كانوا يتحدثون عنه من موقع الإشكال والنقد».

٣

الإبداع والإبتكار

إنّ الذهنية الخلاقة والمبدعة لسماحة الاستاذ مع حافظته القوية وأُنسه بالآيات القرآنية وكلمات نهج البلاغة وروايات أهل البيت عليهم السلام، أدّت إلى أن يكون هذا الاستاذ سريع البديهة وحاضر الجواب لأغلب الأسئلة العلمية والمعضلات الفكرية، إنّ ملكة الابداع والتجديد لدى سماحة الاستاذ بإمكانها أن تصهر فولاذ المشاكل العلمية وتتغلب على التعقيدات الفكرية، فقد شوهد مراراً أنّ رواية من الروايات تتضمّن مفهوماً ساذجاً وبسيطاً ولا يعقل في حقّها التدقيق والتحليل العميق، أو بالعكس تتضمّن عقدة عمياء وبحاجة إلى تحليل وتفسير دقيق فانّ الاستاذ كان يستخرج منها نكات ظريفة وحقائق دقيقة بشكل جذّاب للغاية.

إنّ حلّ العُقد العلمية ورسم زوايا جديدة للمعرفة الدينية وعدم الخوف من نقطة البداية، وكذلك الشهامة والفراسة تتطلب وجود موهبة خاصة لدى الفرد، فعندما يتحرك الإنسان في تعامله مع القدماء من أساطين العلم من موقع التقديس والاحترام الكبير، وفي نفس الوقت يلتفت بدقّة إلى قصور أفكارهم عن إيجاد الحلول الدقيقة للمشكلات العلمية ولا تحجبه عن اكتشاف نقاط الخلل سيرتهم الجليلة، فانّ ذلك يحتاج إلى تأييد روح القدس، وهذا ما نلاحظه بشكل جلي في آفاق الاستاذ العلمية المختلفة.

النظر إلى التفسير الأمثل بعين الانصاف:

إذا نظرنا بعين الانصاف إلى «**التفسير الأمثل**» لسماحة الاستاذ بما يحتوي من بيان

سلس وجذّاب، وقارنّا بينه وبين سائر التفاسير، لاتضحت لدينا هذه الحقيقة، وهي: إنّ هذا التفسير قد خطى خطوة كبيرة في علوم التفسير إلى الأمام كما هو حال تفسير «**الميزان**» للعلّامة الطباطبائي قدس سره، وفي نفس الوقت فانّ هذا التفسير يتضمّن منتخبات من التراث التفسيري العظيم من علماء الإسلام، ويتضمّن في طياته حقائق بديعة في دائرة الاجتماع والسياسة والأخلاق، والحقيقة إنّ هذا الكتاب قد ملأ فراغاً محسوساً في العصر الحاضر في علم تفسير القرآن بل إنّه أثبت البعد الخالد للقرآن الكريم وأنّه كتاب هداية وشفاء لجميع الأجيال البشرية على مرّ العصور.

ولكن لا يخفى أنّ الوصول إلى حقيقة القرآن وروح كلام أهل البيت عليهم السلام، يحتاج، مضافاً إلى عنصر النبوغ والابداع (الذي تقدم بيانه في الفصل السابق) إلى علو الهمّة وعظمة الروح والانسجام مع مفاهيم هذا الكتاب السماوي الذي لا يلمس معانيه ولا يدرك عمق مضامينه إلّا الطاهرون[1].

كتاب «القواعد الفقهية» ظاهرة مستجدة في مجال الفقه:

إذا تجاوزنا التفسير الأمثل نرى أمامنا كتباً عديدة ومتنوعة في العقائد والأخلاق

---

١. يقول الراغب الإصفهاني في بيان الشرائط اللازمة للمفسّر في عملية التفسير الصحيح:
«إنّ المفسّر يحتاج مضافاً إلى العلوم اللازمة للغة، الصرف، النحو، القراءات، الفقه، اصول الفقه، الكلام، الحديث والتاريخ، إلى «علم الموهبة» أيضاً».
ثم أضاف: «وذلك علم يورثه الله من عمل بما علم، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: قالت الحكمة: من أرادني فليعمل بأحسن ما علم، ثم تلىٰ: «الذين يستمعون القول وفيتبعون أحسنه» وما روى عنه عليه السلام حيث سئل: هل عندك علم عن النبي صلى الله عليه وآله لم يقع الى غيرك؟ قال: لا، إلّا كتاب الله وما في صحيفتي وفهم يؤتيه الله من يشاء». (علوم القرآن عند المفسّرين، ج ٣، ص ٣٢١).
ومن المعلوم أنّ المفسّر يحتاج لإدراك المعارف القرآنية السامية وإدراك الحقائق الدقيقة التي تتضمنها الآيات الشريفة إلى ضمير طاهر وقلب مستعد وروح نقية من الذنوب، لأنّ هناك رابطة وثيقة بين روح الإنسان وهذا الكتاب النوراني فما لم تحصل السنخيّة بينهما لا يتمكن الإنسان من فهم التعاليم والمفاهيم القرآنية كما ينبغي فلا يكفي التعرف على سلسلة من القواعد والعلوم البشرية كما يقرر القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (سورة الواقعة، الآيات ٧٧-٧٩).

والتربية الاجتماعية بل في مجال الدراسات الحوزوية كلها مؤيدة وشاهدة على موهبة الابداع الكبير التي يتحلّى بها سماحة الاستاذ، ومن جملة هذه الكتب «**أشباه الفلاسفة**» الذي تقدم الحديث عنه في الفصل السابق، والكتاب القيم الآخر «**القواعد الفقهية**» الذي يعدّ في زمان طبع المجلد الأول[1] منه، كتاباً فريداً في موضوعه ومحتواه، لأنّ الكتاب المهم للمحقق الكبير المرحوم البجنوردي في هذا الباب قد تمّ طبعه ونشره بعد طبع كتاب الاستاذ، وهكذا بالنسبة إلى كتب أُخرى في هذا الباب نظير «**القواعد والفوائد**» للشهيد الأول قدس سره، و«**القواعد**» للمرحوم العلّامة قدس سره، و«**العناوين**» للعلّامة المحقق الحسيني المراغي قدس سره، و«**عوائد الأيام**» للمرحوم النراقي قدس سره، أو أنّ هذه الكتب لم تكن تبحث في القواعد الفقهية بصورة خاصة، أو أنّها أساساً تبحث في المسائل الفقهية من موقع كونها فروعاً في أبواب الفقه لا من باب كونها قواعد فقهية، بينما نرى أنّ سماحة الاستاذ تمكن لأول مرّة من تنظيم وجمع القواعد الفقهية المبثوثة في جميع أبواب الفقه، وأكثرها لم تكن تحظى باهتمام الفقهاء ولم تمنح حقّها من التحقيق والدراسة اللازمة.

ويحدثنا سماحة الأستاذ في مقدمة هذا الكتاب بما يلي:

«من أهم ما يجب على الفقيه تحقيقه والبحث عنه هي «القواعد الفقهية» وهي مجموعة في القواعد التي تكون ذريعة للوصول إلى أحكام كثيرة من أول الفقه إلى آخره، وتبتني عليها فروع هامة في شتى المباحث والأبواب.

لكن رغم فائدتها الكبيرة هذه، لم يبحث عنها بما يليق بها، ولم يؤدَ حقّها من البحث، لا في الفقه ولا في أُصوله، إلّا شيء طفيف منها، كقاعدة لا ضرر، وبعض القواعد الأُخرى كقاعدة التجاوز والفراغ التي وقع البحث عنها في بعض كتب المتأخّرين من الأُصوليين بحثاً تبعياً استطرادياً، لا ذاتياً استقلالياً، فأصبحت هذه القواعد النفيسة كالمشردين لا تأويها دار ولا تجد قراراً، لا عدّت من الأُصول ولا من الفقه، مع أنّ من حقّها أن يفرد لها علم مستقل،

---

١. سنة ١٣٨٣ هـ ق.

وغير خفي أنّه لا يمكن تنقيحها ضمن الأبحاث الفقهية، لأنّ كل مسألة منها تختص ببحث خاص، كما أنّ كثيراً منها لا تمسّ المسائل الأُصولية كي يبحث عنها في علم الأُصول ولو استطراداً.

نعم، قام شرذمة قليلون من متأخري الأصحاب بتأليف رسالات تحتوي على بعض تلك القواعد.

ولكن مع الأسف لم يصل شيء من هذه الكتب إلينا.

وأمّا الكتاب «**القواعد**» الذي صنفه شيخنا الشهيد الأول قدس سره فليس متمحضاً في سرد القواعد الفقهية، بل يحتوي على مسائل فقهية مختلفة من شتى الأبواب، وأُخرى أُصولية، ويرى فيه بعض المسائل الكلامية بل اللغوية أيضاً، فهو كتاب فقهي أشبه منه بغيره.

وكذا «**تمهيد القواعد**» للعلّامة النحرير الشهيد الثاني، فهو كما ذكر قدس سره في مقدمته يحتوي على مائة قاعدة أُصولية وما يتفرع عليها من الأحكام، ومائة قاعدة أدبية مع ما يناسبها من الفروع الشرعية.

وأمّا كتاب «عوائد الأيّام في بيان قواعد الأحكام ومهمّات مسائل الحلال والحرام»، الذي ألفه شيخنا المحق النراقي قدس سره فهو ـ كما يظهر من اسمه ـ وإن اشتمل على بعض القواعد الفقهية إلّا أنّه لا يستوعبها، كما أنّه لا يختص بها بل يعمّها وغيرها.

فتحصّل من ذلك كله أنّه لا يوجد في مؤلفاتنا تأليف يحتوي على تلك القواعد الهامة بأجمعها ويبحث عنها بحثاً يليق بها، ولذلك لم يبق لي شك في أنّ القيام بهذه المهمّة بجمع تلك القواعد في موسوعة مستقلة والبحث عنها بما يليق بها خدمة للعلم وأهله»[٢١].

---

١. مقدمة كتاب القواعد الفقهية، ج ١، ص ١٧ ـ ١٨.

٢. على الأقل طبقاً للمعيار الذي ذكره سماحة الاستاذ في مقدمة كتابه «القواعد الفقهية» فانّ القاعدة

عين صافية في صحراء الطاغوت:

المورد الثالث فيما يتعلق بالفكر الحر والخلّاق لسماحة الاستاذ هو إصدار مجلة «مكتب اسلام» التي تعتبر عيناً صافية في صحراء الظلم والشرّ في زمان الطاغوت «حكم الشاه»، فكانت بعنوان أول مجلة دينية يبزغ نورها في ظلمات تلك الأيام الحالكة، ويقول الاستاذ في حديثه عن هذه المجلة:

«لقد تمّ إصدار هذه المجلة في مرحلة من أشدّ مراحل النظام السابق ظلماً واضطهاداً على الدين، فلم تكن أيّة مجلة دينية تصدر في جميع مناطق ايران، فكان أن اجتمع بعض الاخوة الأفاضل وعلماء الدين المثقفين وصمموا على إصدار مجلة دينية تتولى أمر التصدي للانحرافات الفكرية والمفاسد الأخلاقية في هذا البلد، وتمّ الشروع في هذه المجلة بعد تقديم معونات من بعض الأخيار وتجّار طهران الذين تكفّلوا تأمين مصروفاتها المالية، وبما أنّ الناس كانوا متعطشين للمعارف الدينية وللثقافة السليمة فكانت هذه المجلة بمثابة جرعة الماء للعطشان في الصحراء المحرقة أو المنار والمشعل للسالك في الظلمات الحالكة، فكان استقبال الناس لهذه

ا الأُصولية إمّا أن لا تشتمل على حكم شرعي بل تقع في طريق استنباط الحكم الشرعي وإما أن تكون متضمنة لحكم شرعي عام يجري في جميع أبواب الفقه ولا يختص بموضوع فقهي خاص مثل البراءة الشرعية في موارد فقدان النص، خلافاً للقاعدة الفقهية التي تتصف بكونها أولاً: إنّها تعد حكماً من الأحكام الشرعية في جميع الموارد.

وثانياً: بالرغم من كونها عامة إلّا أنّها في نفس الوقت تختص ببعض أبواب الفقه لا جميعها «مثل قاعدة الطهارة، وقاعدة لا تعد، وقاعدة ما يضمن وما لا يضمن» أو تختص بموضوعات خارجية معينة قد تجري في جميع أبواب الفقه نظير قاعدتي لا ضرر ولا حرج، فبالرغم من جريانها في جل أو في كل أبواب الفقه ولكنها في نفس الوقت تدور حول محور موضوعات خاصة وهي الموضوعات الحرجية والضررية، والنتيجة فانّ القواعد الفقهية تمثل برزخاً بين المسائل الفقهية والقواعد الأُصولية، أي أنّها ليست جزئية وخصوصية كالمسائل الفقهية ولا بتلك الدرجة من الشمولية كما في القواعد الأُصولية. (انظر مقدمة القواعد الفقهية، ص ٢٣ ـ ٢٤ من المجلد الأول).

المجلة عظيماً جدّاً بحيث لم نتوقع مثل هذا الاستقبال فكان عدد المجلة يزداد بشكل كبير فمن ألفي نسخة في الاعداد الأُولى إلى أن بلغ عدد النسخ في العدد الواحد مائة ألف نسخة وتمّ ارسالها إلى جميع أرجاء ايران من المدارس والجامعات إلى الادارات والسوق وقد استطاعت هذه المجلة خلق موج كبير في أجواء الثقافة الدينية السائدة».

حماية آية الله العظمى البروجردي؛ وعرقلة أزلام النظام:

هذه الحركة الثقافية بدأت في عهد المرحوم آية الله العظمى السيد البروجردي، وبما أنّ مثل هذه الحركات الثقافية تعتبر جديدة في أجواء الحوزة العلمية قلنا لبعض الأصدقاء: لعل آية الله العظمى السيد البروجردي يقف منها موقفاً سلبياً ويخالف إصدار مثل هذه المجلة، فكنّا قلقين في هذا الشأن فقمنا بإرسال المجلة إلى سماحته وانتظرنا جوابه، ولكننا كنّا في غفلة من أنّ هذا المرجع الكبير والمقتدر والذائع الصيت كان أكثر انفتاحاً وثقافة ممّا كنّا نتوقع ، حيث أرسل إلى بعض الاخوة: إني قرأت أعداداً من مجلتكم الكريمة وهي مجلة جيدة ومفيدة وأنا بدوري سأقف معكم في هذا المشروع، وهكذا كان موقف السيد البروجردي قدس سره هذا مؤثراً بشدّة في حركتنا الثقافية لأنّ هذه المجلة كانت تصدر بدون امتياز للنشر خلافاً لما هو المتداول في عالم الصحف والمجلات، لأنّ الحكومة كانت تمانع من إصدار مثل هذه المجلة وكنّا نتوقع أنّ الحكومة ستبادر إلى كبت هذا الصوت الحر وإغلاق المجلة، وهكذا وقع بالفعل فما أن أحس نظام الشاه بهذه الحركة وأنّ هذه المجلة الإسلامية تحولت إلى رقم مهم في صعيد الثقافة الدينية والاجتماعية بحيث كان بإمكانها خلق بعض المشاكل للنظام فيما تنشره من

أفكار دينية في جميع المناطق، فقد أصدرت الحكومة أمراً بتوقيف إصدار المجلة، ومعلوم أنّ هذا الأمر صدر بذريعة عدم وجود ترخيص رسمي للمجلة، ولو كنّا نتقدم بطلب إجازة إصدار هذه المجلة من الحكومة فسوف لا نحصل عليها اطلاقاً».

ويشير سماحة الاستاذ في بيانه هذا إلى دور آية الله العظمى السيد البروجردي المؤثر والمهم في إحياء واستمرار هذه المجلة بما له من نفوذ كبير في أوساط الناس في ذلك العصر ويقول:

«لقد تحدثنا في هذا الموضوع مع آية الله العظمى السيد البروجردي، فكان أن استدعى رئيس الشرطة في قم وقال له: عليكم بفتح هذه المجلة فوراً، وبما أنّ نظام الشاه كان يعلم جيداً أنّ تهديد آية اللهالعظمى السيد البروجردي يمثل تهديداً جدياً للنظام، فقد رأيت أنّ رئيس الشرطة أخذ بالبحث عنّي وقال: أرجو منك أن تصدر أمراً بالسماح باصدار المجلة وأنا الآن أمنحكم إجازة شفوية ثم أُلحقها بإجازة كتبية في ذلك، وهكذا تمّ نشر المجلة مرّة أُخرى بدون إجازة رسمية وبقيت مشكلة عدم الترخيص الرسمي إلى وقت طويل إلى أن اشتدت ضغوط المرجعية على النظام فتمّ إصدار الترخيص الرسمي بالاكراه، واللطيف أنّه قد كتب على ملف المجلة في قسم المطبوعات في وزارة الداخلية ما يلي:

(إنّ هذه المجلة محل عناية آية الله العظمى البروجردي)، وهذا الأمر كان مفتاحاً لحلّ جميع المشاكل».

الأبعاد الانتقادية والسياسية لمجلة «مكتب إسلام» ودورها في تصعيد الثورة:

ثم يتحدث سماحة الاستاذ عن البعد الانتقادي والسياسي لهذه المجلة المبتكرة ويقول:

«بعد أن شعرنا بأننا نقف على أرضيّة متماسكة من دعم المرجعية بدأنا بطرح مقالات انتقادية واجتماعية وسياسية بعد أن كانت جميع المقالات تبحث جوانب عقائدية وتفسيرية وأخلاقية وروائية فقط، ولكن بعد هذه الواقعة تطرقنا إلى المفاسد الاجتماعية أيضاً وتحدثنا عنها من موقع التحليل والعلاج والنقد، وبحمد الله كان هذا الفصل مؤثراً جدّاً وقد منحت هذه المقالات المجلة قدرة وديناميةً كبيرة في التحرك على مستوى النشريات والمجلات الدينية في ذلك الوقت في عملية إصلاح الفكر الديني في أجواء المتدينين والوقوف ضد الكلمات والبحوث الضّارة بالفكر الديني».

ثم إنّ الاستاذ ذكر حادثة في هذا المجال وأضاف يقول:

«في أحد أعداد صحيفة اطلاعات التي كانت صحيفة حكومية بإشراف «مسعودي» الذي يعتبر من أصدقاء الشاه المقربين كانت هناك مقالة ضد الحوزة ورجال الدين، فكتبت رسالة شديدة اللحن إلى مسعودي وأكّدت عليه بأنّه ما لم تنتهِ الصحيفة من نشر مثل هذه المقالات المضادة للروحانيين فاننا سنقوم بتحريم صحيفة اطلاعات في جميع المناطق، وسيكون هذا التحريم مؤثراً كثيراً من خلال هذه المجلة التي تتمتع بمقبولية واسعة في أوساط الناس، ولم تمض فترة وجيزة إلّا وكتب مسعودي رسالة يعتذر فيها عن خطأ الصحيفة ا لمذكورة وأنّ الغرض ليس هو إهانة رجال الدين وهتك حرمة الروحانيين ولكن بما أنّكم تلقيتم المقالة من موقع الاهانة واعتبرتم ذلك العمل بمثابة هتك لمقام الحوزة العلمية فأنا بدوري سوف أصدر أمراً للعاملين في الصحيفة بعدم تكرار مثل هذا العمل، وأنتم أعلى شأناً وأجلّ مقاماً من أن تقوموا بتحريم صحيفة اطلاعات، ومن الواضح أنّه كان مرتبكاً لما حصل لعلمه بخطأ موقفه من الحوزة العلمية».

دور الإمام موسى الصدر، المطهري، البهشتي... في مجلة «مكتب اسلام»:

ثم إنّ سماحة الاستاذ أشار إلى الدور الهام والمؤثر لبعض أساطين العلم ورواد المعرفة كالعلّامة الطباطبائي، والشهيد المطهري، والشهيد البهشتي والإمام موسى الصدر والشهيد مفتح (قدس الله أسراهم) في دعم مسيرة الفكر الديني وكذلك دورهم الفعّال في تفعيل المجلة وحركة العلم والتبليغ في الحوزات العلمية حيث عبّدوا الطريق بنشاطاتهم العلمية لإنجاح الثورة الإسلامية، فيقول:

«إنّ أصدقاءنا في المجلة كانوا يمثلون نخبة واعية من رجال الحوزة العلمية الذين أصبحوا بعد ذلك من الشخصيات الكبيرة في الحوزة كالإمام موسى الصدر، المرحوم آية الله الشهيد المطهري، المرحوم آية الله الشهيد البهشتي، والمرحوم آية الله الشهيد مفتح (قدّس سرهم) وحتى بعض الاساتذة الكبار أمثال العلّامة الطباطبائي قدس سره كانوا يساهمون بدورهم وبمقالاتهم في تفعيل المجلة وتحقيق أهدافها المرسومة، ونحن بعد أن اتصلنا بشرائح مختلفة من أفراد الشعب أحسسنا بأنّ شيئاً ما قد حصل، وهو أنّ هذه المجلة قد عبّدت الطريق للثورة، وكشاهد على ذلك أنّ كثيراً من الشخصيات المرموقة التي تحتل مناصب مهمّة في النظام الإسلامي الحالي كانوا وقتذاك يتصلون بنا ويقولون: نحن من قراء مجلة (مكتب اسلام) ومن صنائع المجلة، والحقيقة أنّها كانت كذلك، فهذه المجلة كانت واقعاً اللسان الناطق باسم الحوزة العلمية في قم المقدّسة، وفي الحال الحاضر فهذه المجلة ما زالت تصدر تباعاً «غاية الأمر أنّ بعض الاخوة تكفّلوا بمسؤولية إصدارها وقد اعتذرت عن الاستمرار في العمل معهم بسبب الظروف والمشاغل الفعلية الكثيرة»، وبالطبع فانّ المجلة المذكورة لا تصدر الآن بالكمية السابقة لأنّ مجلات إسلامية أُخرى والحمد لله قد سدّت فراغاً في هذا المجال من قبيل المجلات التي تصدر في الحوزة العلمية وخارجها،

ولكنّ هذه المجلة كانت الشعاع الوحيد تقريباً في ذلك الزمان شقّ ظلمات الجو الحاكم في زمان الطاغوت».

ثم إنّ الاستاذ ذكر لنا خواطر عديدة فيما يرتبط بهذه المجلة وموقف السافاك منها، وسوف نشير إليها في الفصول اللاحقة إن شاء الله.

المسائل المستحدثة والحوادث الواقعة:

المورد الرابع في ما يخص نبوغ الاستاذ وقدرته الخلّاقة، الحركة الثمينة والمثمرة التي شاهدناها في الأعوام الأخيرة فيما يتعلق بالمسائل الفقهية المستحدثة في الحوزةالعلمية في مشهد والتي بدأها سماحة الاستاذ هناك في فصل الصيف.

وبما أنّ الدخول في دائرة الحوادث المستحدثة وبسبب جدتها وعدم طرحها سابقاً في كتب العلماء والفقهاء وبالتالي عدم وجود المنابع والمدارك الكافية لها وعدم الأُنس بهذه المدارك والمصادر، كان هذا العمل مليئاً بالمشاكل والتعقيدات الفكرية بحيث يحتاج إلى مهارة فائقة وسعة صدر وقدرة اجتهادية كبيرة وجرأة على تحدي الموانع للوصول إلى نتيجة مقبولة وعملية في دائرة الاستنباط الفقهي، ويحدثنا الاستاذ عن نشاطه هذا في مجال المسائل المستحدثة ويقول:

«كنت أتوجه في أيّام الصيف إلى مدينة مشهد المقدّسة وأبقىٰ لمدّة أسابيع معدودة وذلك لمدّة عدّة سنوات، وكنت أتفرغ إلى المسائل المستحدثة في دروس الفقه لطلاب الحوزة العلمية في مشهد في تلك الفترة، وأعتقد أنّ هذه المباحث تمثل بحراً عميقاً وموضوعاً مهمّاً من مواضيع الفقه، بسبب الظروف المتغيرة في عنصر الزمان والمكان والظروف المعيشية والثقافية للمجتمعات البشرية من جهة، ومن جهة أُخرى فانّ نجاح الثورة الإسلامية وتشكيل الحكومة الإسلامية تسبّب في خلق مسائل جديدة في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والقضائية في أُمور الطب

والصحة والجريمة وحتى في مسائل العبادات أيضاً، ونحن نعتقد أنّ فقهنا بإمكانه أن يستجيب لجميع الحاجات البشرية في كل زمان ومكان ولا توجد مسألة في فقهنا بدون جواب، والشاهد على ذلك ما ورد في الأحاديث الشريفة عن المعصومين عليهم السلام في هذا الصدد، وعلى هذا الأساس يجب على فقهائنا البحث بجدية من أجل استنباط الأجوبة لهذه المسائل من متون الأدلة والمنابع الغنية للفقه الإسلامي، ونحن بدورنا بحثنا هذه المواضيع المستحدثة وتحركنا للأجابة عن الاسئلة وعلامات الاستفهام الجديدة في دروس الخارج الصيفية إلى جوار حرم الإمام الرضا عليه السلام وبالاستمداد من روح هذا الإمام العظيم، وتمّ تدوينها وجمعها بصورة كتب متعددة ثمّ طبعها ونشرها، وبحمد الله كانت النتيجة هي هذا الأثر الفقهي الجيد، ونأمل في المستقبل أن يقوم الفقهاء بدورهم في إيجاد الحلول التي تلامس أزمات المجتمعات الإسلامية في العصر الحاضر وحلّ العُقد المستعصية في الفقه لإثبات أنّ الفقه الإسلامي لا يواجه نقصاً في أي مجال من المجالات وبإمكانه الاستجابة لجميع الحاجات البشرية والاسئلة الفقهية للناس، وهذا بنفسه يشكل علامة من علامات خلود الدين الإسلامي المقدّس».

فكر جديد بهيئة جديدة:

والمورد الخامس والأخير من الموارد المتعلقة بنبوغ الاستاذ وإبداعه الفكري هو مجموعة الابتكارات في مجال الفكر الديني سواء في مسائل التفسير، العقيدة، الاجتماع، الأخلاق وغير ذلك.

ويرى الاستاذ أنّ مجرّد تغيير المقالة والقالب والشكل من دون إجراء تغيير في المضمون والمحتوى هو أمر غير ممكن، ويعتقد بأنّ المنهج في التعليم الديني بحاجة إلى تحول جذري مضافاً إلى إجراء تغييرات أساسية في كثير من المسائل، ومن هذا المنطلق

تحرك الاستاذ في كتاباته وتصنيفاته من خلال ابداع اسلوب جديد في تدوين المفاهيم الدينية والتعاليم الإسلامية[١]، فقد كان الاستاذ فيما مضى يدرّس طلابه أساليب الكتابة ويصرّ دائماً على لزوم تجنّب التكلّف في الكتابة وترك التعقيدات البلاغية والمفهومية، وسيأتي الكلام عن سلاسة قلم الاستاذ في المواضيع اللاحقة.

وبنظرة فاحصة إلى «**التفسير الأمثل**» من هذه الزاوية نرى ـ ولعله لأول مرّة ـ وجود تقسيم للبحوث التفسيرية إلى قسمين أساسيين:

١ ـ البحوث التوضيحية والأدبية المتعلقة بظاهر الآيات والجمل والمفردات.

٢ ـ الملاحظات والمعطيات.

وبهذه الصورة تجلّى هذا التفسير بشكل مقبول لدى الذهنية المسلمة في مجال المفاهيم التفسيرية لجميع الناس على اختلاف مستوياتهم الثقافية، وهذا يمثّل أفضل شاهد على المدّعى، وهذا المنهج نجده بشكل أكمل في تفسير «**نهج البلاغة**» حيث يبتدىء الاستاذ في هذا الكتاب بالتحقيق والبحث في سند الخطبة (وبالطبع فانّ الهامش يختص بالجهات الفنية واللطائف العلمية التي تخرج عن دائرة اهتمام العامة من الناس) ثم ينطلق الاستاذ في شرح الخطبة بعد تقسيمها إلى عدّة أقسام منسجمة ومتناسبة، أي أنّه يشرع بتفسير وشرح كل عبارة منها بصورة مستقلة ويبيّن مراد المتكلّم ومضمون العبارة منها وارتباطها بما قبلها وبعدها، وفي المرحلة الثالثة يبيّن الاستاذ الملاحظات والمعطيات في هذا المقطع من الخطبة الكريمة تحت عنوان مناسب، وفي المرحلة الرابعة نجد اهتماماً بمعنى المفردات اللغوية والمعقدة وذلك في الهامش «وهذا الموضوع أيضاً خارج دائرة اهتمام العامة من الناس»، وفي آخر مرحلة نقرأ ترجمة فارسية لهذا المقطع من الخطبة.

هذا الاسلوب من البيان والشرح الذي يحلل في طياته العبارات الصعبة والمغلقة في

---

١. لا شك أنّ الابتكار في عرض المفاهيم الدينية يختلف عن الابتكار والابداع في عملية خلق هذه المفاهيم، فالكثير من الأشخاص يتمتعون بذهن خلّاق ولديهم أفكار جديدة وبديعة إلّا أنّهم بسبب عدم جودة العرض والبيان فإنّه لا يستفاد من ابداعاتهم الفكرية بالشكل المطلوب.

الظاهر من خطب نهج البلاغة ويقدّمها للخاص والعام بشكل مريح للذهن وسهل الهضم، هذا بنفسه دليل واضح على المدّعى، كما هو الحال في مجلة «مكتب اسلام» لسماحة الاستاذ حيث نجد فيها هذا المنهج المبتكر في عرض المعارف الدينية والمفاهيم الإسلامية بقوالب عصرية مناسبة لذلك الوقت.

المورد الآخر: التفسير الموضوعي «**نفحات القرآن**» الذي يعد ـ انصافاً ـ منهجاً جديداً وإبداعاً في دائرة العرض والبيان وهو عبارة عن دورة كاملة في اصول العقائد والمعارف الاعتقادية والأخلاقية في القرآن الكريم، ومن الجدير أن يكون هذا الكتاب، كما ذكر ذلك بعض اساتذة الحوزة العلمية، كتاباً دراسياً في الحوزات العلمية.

وقد تحرك الاستاذ في هذا الكتاب من منطلق بيان وبحث جميع المواضيع المتعلقة بالعقيدة الإسلامية من باب فلسفة المعرفة إلى مباحث المعاد والعدل والإمامة، وكذلك البحوث المتعلقة بالحكومة والأخلاق الإسلامية في الآيات القرآنية (مع تطعيمها بالروايات الشريفة والنكات التاريخية المتعلقة بها) وذلك بأن يبدأ البحث باستعراض مجموعة الآيات المتعلقة بذلك الموضوع العقائدي، ثم يشرع الاستاذ بأسلوبه السلس ومنهجه التفسيري بشرح وبيان معاني الآيات الكريمة بعد ترجمتها، ثم يبيّن الملاحظات المهمّة المستخلصة من فذلكة هذه الآيات وعلاقتها بالموضوع العقائدي محلّ البحث،وهكذا يأتي على بقيت الآيات الكريمة.

المورد الرابع: كتاب «**أشباه الفلاسفة**» فبغض النظر عن الابداع المهم في محتويات ومضامين هذا الكتاب (كما تحدثنا عنه في الفصل السابق) فإنّه قد بلغ الذروة في عالم الابداع والتجديد على مستوى عرض المفاهيم وبيان المواضيع العلمية في هذا الكتاب ولا سيّما الكتب في دائرة الحوزة العلمية والدراسات الدينية، لأنّه أولاً: قد مزج النقد العلمي للماركسية والمادية بالحقائق الاجتماعية والتاريخية الجذّابة.

وثانياً: تمّ اخراجه بشكل قصة رائعة تتناول موضوعاً علمياً معقداً، ويحدثنا الاستاذ في هذا الصدد في مقدمة هذا الكتاب:

«لقد كنت منذ سنوات أقرأ وأتأمل (في المذهب الماركسي والعواقب الوخيمة المادية والمعنوية المترتبة على هذا الفكر الخطير تجاه المجتمع البشري، ولكنّ المانع الكبير الذي يتجلّى للباحث قبل كل شيء هو عدم اطلاع أغلب الناس على المصطلحات الفلسفية الجديدة والقديمة، ولذا قمنا بحذف هذه المصطلحات أو تبديلها بعبارات سهلة وميسورة، بدون أن تفقد قيمتها الحقيقة، مضافاً إلى ذلك فانّ المواضيع العلمية المذكورة في هذا الكتاب تمّ دعمها بمجموعة من الحقائق التاريخية والاجتماعية الجذّابة من أجل تسهيل فهم مضامين هذا الكتاب وتمّت صياغتها في قالب قصصي جميل»[١].

ولذلك لا نتعجب إذا رأينا إنّ هذا الكتاب تكرر طبعه (أربعين مرّة) وحظى باستقبال واسع في صفوف المؤمنين.

المورد الخامس: «**كيف نتعرّف على الله**» حيث ذكر سماحة الاستاذ في مقدّمة هذا الكتاب:

«إنّ الفلاسفة اختاروا طريقاً خاصاً لمعرفة الله، واختار علماء الكلام طريقاً آخر، وعلماء الحديث اختاروا بدورهم طريقاً ثالثاً، ونأمل أن نسلك في هذا الكتاب طريقاً يجمع بين مزايا جميع تلك الطرق، وفي نفس الوقت نتجنّب نقاط الضعف فيها، وذلك سعينا على مستوى جمع تلك البحوث وإدغامها وسلوك طريق معتدل يوصلنا إلى الحقيقة بشكل أفضل»[٢].

وعلى أيّة حال فانّ الفكر الجديد يتطلب عرضاً جديداً وصياغة جديدة في الاسلوب لأننا نرىٰ في هذا العصر الجديد مستمعين وقراء جدد، وذلك يقتضي صياغة المعارف والمفاهيم الدينية صياغة جديدة ويتمّ تبليغها إلى الناس بأحدث الوسائل والإرتباطات وأجهزة الإعلام، فالاستاذ كان ملتفتاً بدقّة إلى المتغيرات الكبيرة التي حدثت في هذا العصر

---

١. مقدّمة كتاب «فيلسوف‌نماها» (بالفارسية).
٢. مقدّمة كتاب «خدا را چگونه بشناسيم» (بالفارسية).

وكتب في مقدّمة كتابه «**دوافع ظهور الأديان**» يقول:

«إنّ تصادم الأفكار في عصرنا الحاضر، عصر ثورة الارتباطات والمعلومات الهائلة، أمر حتمي وغير قابل للاجتناب، إنّ صراع العقائد والحضارات في عصرنا أوسع وأعمق بكثير من الحروب العسكرية، ووجود أدوات الإعلام المتطورة والأجهزة الدقيقة في مجال نشر الثقافات قد زاد في مساحة هذا السجال والصراع الثقافي بحيث إنّ نصف سكان المعمورة «ملياري شخص تقريباً» يتمكنون من مشاهدة مباراة لكرة القدم مثلاً بهذه الأجهزه المتطورة فوراً وفي وقت واحد، أو يتمّ طبع مجلة أو صحيفة بعدّة ملايين من النسخ وتوزع في خمس قارات في العالم، ومن ذلك ندرك جيداً أهميّة صراع وتصادم العقائد من خلال الاستفادة من هذه الأجهزة المتطورة، ولإدراك أهميّة هذا الموضوع يكفي أن نعلم أنّنا إذا أردنا أن نعقد جلسة في كل يوم يبلغ عدد الحضار فيها ألف نفر فانّ توفير ذلك العدد الغفير من المستمعين سوف يستغرق ستة آلاف سنة، أي يستغرق جميع التاريخ البشري المرقوم، أو إذا أردنا طبع كتاب منذ بداية التاريخ البشري إلى الآن في كل سنة مرّة بمقدار مائة ألف نسخة، فستكون بمجموعها بمقدار نسخ إحدىٰ الصحف اليومية في بلادنا في الوقت الحاضر»[١].

وفي ختام هذا الفصل نرى من الضروري الإجابة عن هذا السؤال، وهو أنّ مثل العقل المبدع والخلّاق هل يوجد في جميع أفراد البشر أو يحظى به بعض الأفراد فقط؟ وعلى أيّة حال كيف نتمكن من ترشيد قوّة الابداع في العقل البشري وتجسيدها في الواقع الفعلي؟

بالنسبة إلى جواب السؤال الأول، ينبغي القول إنّ هناك شواهد من الآيات والروايات تدلّ على أنّ جميع أفراد البشر يمتلكون نوعاً من الابتكار وبالابداع بالقوّة، وأساساً فانّ هذا الأمر يعد من امتيازات النوع البشري على سائر الأنواع، ويمكن أن تكون الآية الشريفة

---

١. «انگيزه پيدايش مذاهب» (بالفارسية).

﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [١]، ناظرة إلى هذا المعنى.

كيف يتمّ ترشيد قوّة الابداع والابتكار؟

وفي مقام الجواب عن السؤال الثاني يمكن القول إنّ أحد أسباب نمو وتفتح الابداع والابتكار في الإنسان يكمن في حصول الشك بل الوسواس في كل مسألة من المسائل التي ترد على ذهن الإنسان.

فإذا كانت المسألة المطروحة على ذهن الطالب تمثّل عقدة مستعصية عن الحلّ ويفضي ذلك إلى أن يعيش هذا الشخص الشك في نظرات وأفكار الآخرين بل في كل فكرة ورأي فانّ مثل هذا الشخص لا يذوق طعم الراحة قطعاً بل يتحرك بجدية وبسعي كبير في دائرة الابداع والابتكار.

والشاهد على ذلك ما ذكره سماحة الاستاذ من حكاية في مرحلة شبابه قال:

«لقد واجهت في بداية دخولي إلى الحوزة وسواساً عجيباً في جميع الأبواب وبدأ ذلك من مسائل الطهارة والنجاسة ثم اتسعت دائرة هذا الوسواس تدريجياً وشملت جميع الأبواب الفقهية وحتى العقائدية أيضاً ابتليت بالوسواس في جميع الأُمور وأحياناً بلغ إلى درجة أنني كنت أشك في وجودي أيضاً، أو أنني كنت في حالات اليقظة أشك هل أنّني الآن في حالة النوم أو اليقظة؟

وامتدت ظاهرة الوسواس حتّىٰ أنني عندما أتذكرها الآن فانّها تثير الضحك، مثلاً كنت في صباح شهر رمضان عندما أتيقن من طلوع الفجر كنت أشك هل طلعت الشمس أم لا؟!».

جذور الوسواس:

ويتحرك الاستاذ في تفسيره وتحليله لهذا الوسواس العميق والواسع على مستوى

---

١. سورة الرحمن، الآية ٤.

البحث عن علله وجذوره ويقول:

«أنا أعتقد أنّ بعض هذه الظاهرة تعود إلى خصوصية معينة في مرحلة البلوغ التي كنت أقترب منها، ومعلوم أنّ مرحلة البلوغ تمثّل مرحلة الاستقلال الفكري، والشخص في هذه المرحلة يودّع التقليد والتبعية للآخرين، ولذلك فلو افتقد التعليم الكافي فمن الطبيعي أن يبتلىٰ بالوسواس، والقسم الآخر من الوسواس يمثّل افرازات لحالة الجهل لعدم الاطلاع على المسائل الفقهية في دائرة الطهارة والنجاسة، والحلال والحرام وأمثال ذلك، فلو أنّ المكلّف تعلم هذه المسائل جيداً فسوف يتخلص من هذا النوع من الوسواس، وهناك قسم آخر من الوسواس يتفرع على حالة الفراغ والبطالة، فلو أنّ الإنسان وجد له عملاً فإنّه سيغفل عن ذلك الوسواس، ولم أكن وسواسياً من القسم الثالث قطعاً لأنني كنت أشتغل أكثر من اللازم، ولكنني كنت أقترب من مرحلة البلوغ الفكري والنضج العاطفي، ووقفت في مقابل عشرات أو مئات علامات الاستفهام التي دارت في ذهني من دون العثور على جواب مقنع، هذه الحالة استمرت بعد البلوغ إلى ما بعد سن العشرين وكانت تؤرقني كثيراً، وكانت على شكل مجموعة من الأسئلة والإشكالات المعقدة من قبيل إشكالات «هيوم» المعروفة حول برهان النظم وإشكالات أُخرى كثيرة من قبل التيار المادي والفكر الوضعي والوهابي وغير ذلك، فكانت تعصف بي وتضغط على روحي وفي ذلك المحيط الفكري لم يكن هناك من مجيب على هذه الأسئلة والمشكلات الفكرية، لقد كان استاذي رجلاً فاضلاً ولكنّه كان يدور في دائرة علم الكلام التقليدي ويجيب عن بعض المشكلات الفقهية فحسب».

النتائج النفسية والبدنية الوخيمة للوسواس:

ثم إنّ الاستاذ تحدّث عن الآثار والنتائج النفسية والبدنية للوسواس التي كان يعيشها وتحملها في ذلك الوقت وقال:

«في هذه المرحلة تحملت متاعب وآلاماً كثيرة وكنت أشعر بالهزال والذبول يوماً بعد آخر، وأُفكر باستمرار في حالتيالوخيمة حيث كنت أشعر أنني غريب عن الجميع وأنّ الجميع غرباء عني، وكنت أتصور أنني أعيش في عالم يختلف عن العالم الذي يعيش فيه الآخرون، وكنت أشعر بالرغبة في الصلاة ولكن ما تنفع الصلاة؟ كنت أُريد أن يجيبني أحدهم عن مجموعة الأسئلة والإشكالات التي تدور في ذهني عن المبدأ والمعاد واصول الدين وفروعه، وعندما اشتدّ ضغط هذه الأفكار عليَّ كنت أخلو أحياناً لوحدي وأجهش بالبكاء متوسلاً إلى الله تعالى أن يفتح لي أبواب معرفته وينقذني من هذا الوسواس، كان قلبي يحبّ الاستيقاظ آخر ساعة من الليل لأُصلي فيها صلاة الليل وأُناجي ربّي ولكن الاستيقاظ في هذه الساعة لشاب مثل عمري كان صعباً للغاية، فقررت شراء ساعة لتوقظني بصوت جرسها، وكان أحد تلامذتي ولعله كان يعمل في حانوت لبيع الساعات قد جاءني بساعة ذات جرس وقال: إنّ قيمتها ثلاثة عشر تومانا، فما كان مني إلّا أن أعدتها إليه باحترام لأنّ حقوقي الشهرية لا تتجاوز ثلاثة تومانات للشهر الواحد، يعني (ثلاثين ريال) في ذلك الوقت، وعليه فلا يمكنني شراء ساعة بهذا المبلغ».

بركات الوسواس:

وفي الختام تطرق سماحة الاستاذ لبيان المعطيات الإيجابية للوسواس وبركاته الخاصة وطرق علاجه أيضاً، فقال:

«إنّ هذا التعب والألم بالرغم من شدّته إلّا أنّه لا يخلو من بركات كثيرة

أيضاً، حيث أجبرني على مطالعة كتب الأعاظم والعلماء في دائـرة العـقائد والكلام والتدقيق في أدلتهم والتدبر والتأمل في الآيات القرآنية والروايات الشريفة، ولعل هذه المعارف أصبحت بمثابة رأس مال فكري لما سأقوم به من تأليف وتصنيف لكتب كثيرة في أُصول الدين لاحقاً.

ومن أجل التعرف على المسائل الفرعية والعملية المتعلقة بالأُمور الفقهية ولغرض قلع الوسواس من جذوره، بدأت بمطالعة «العروة الوثقى» وأعدت قراءته مرات عديدة، فكان هذا سبباً لخلق ملكة فقهية لديّ بحيث تسلطت على المسائل الفرعية (ولكن ليست بصورة استدلالية بـل بـصورة عـادية) وأتصور أنّ الإنسان إذا واجه الوسواس بهذه الصورة ومـن مـوقع التأمـل الفكري والعقلي فانّ ذلك من شأنه أن يمنحه حركة فكرية قوّية، ولكن إذا اتخذ موقفاً سلبياً من الحياة وواجه الوسواس من موقع اليأس فربّما يـؤثر ذلك سلبياً على عـقيدته وإيـمانه ويـتحرك بـالتالي فـي خـط الانـحراف والكراهية للدين كما كنت أرى مثل هذه النماذج طيلة حـياتي فـي أجـواء المجتمع المتدين، ومن هنا أُوصي أعـزّائـي المـبتلين بـحالةالوسـواس أن يتوجهوا من أجل علاج الوسواس إلى الشخصيات المجربة والعالمة.

وعلى أيّة حال لقد وجدت في نفسي أنني أعيش عاصفة فكرية وطوفاناً في روحي واستمر هذا الحال لسنوات عديدة ولكن لم تمنع هـذه الحـالة استمراري في الدرس والبحث بل بالعكس كنت أحسّ بالنشاط في الدرس والاهتمام بالاشتغالات الفكرية التي كانت تسكّن ما أشعر به من اضطراب، وعلى أيّة حال كنت أعيش هذه الحالة من الصراع النفسي عندما دخلت في صفوف الحوزة العلمية في قم»[١].

---

١. إنّ التوجه إلى الله تعالى مبدأ عالم الخلقة والغرض الأسمى منها وكذلك الإهـتمام بـفكرة المـعاد ويـوم

القيامة وعشرات المسائل العقائدية الأُخرى تمثل همّاً كبيراً لكلّ العلماء بل أغلب الناس في مرحلة المراهقة والشباب ولكنّ بعض الأشخاص الذين يتمتعون بذهن متحرك وفعّال لا يقتنعون بسهولة بكل جواب بل يتحركون دائماً من منطلق البحث عن الأجوبة الأساسية والحلول الجذرية لهذه الأسئلة والإشكالات، وبذلك يسلكون طرقاً طويلة وشاقة لتسكين أرواحهم والوصول إلى منبع المعرفة وعينها الصافية، ولكن على أيّة حال فانّ هذه المرحلة ليست بدائمية بل تنتهي بعد فترة، ولكن إذا لم يستعن الإنسان في هذه المرحلة بكلمات وإرشادات الأعاظم وأهل الفن فانّ احتمال انحرافه سيكون كبيراً، ويتحدّث الاستاذ الشهيد مرتضى المطهري بدوره عن هذه الحالة الروحية والاضطراب النفسي الذي كان يعيشه في مرحلة الشباب ويقول:

«إنّ ما أتذكره من حالات القلق الروحي التي كنت أعيشها في مرحلة المراهقة والشباب كانت قد بدأت منذ السن الثالثة عشرة من عمري حيث أصابتني حالة من القلق والحساسية عجيبة بالنسبة إلى المسائل المتعلقة بالله تعالى، وهذه الأسئلة كانت تهجم عليّ واحدة بعد الأُخرى، ففي السنوات الأُولى من هجرتي إلى مدينة قم وقبل أن أُتم مقدمات درس العربية كنت غارقاً في دوامة الأفكار هذه حيث شعرت بالرغبة إلى العزلة والانطواء، فلم أكن أتحمل وجود شخص آخر في غرفتي، وقد عملت على تبديل غرفتي في الطابق العلوي إلى ما يشبه المغارة الصغيرة حيث كنت أسكن فيها لوحدي غارقاً في تأملاتي وأفكاري، في ذلك الوقت لم أكن أرغب في ساعات الفراغ من الدرس والمباحثة أن أُفكر في موضوع آخر، وفي الواقع فانّ التفكير في موضوع آخر قبل أن أحلّ مشكلاتي في هذه المسائل كان إتلافاً للوقت، وأتذكر أنني منذ بداية دخولي في سلك الحوزة وكنت أدرس حينذاك مقدّمات العربية في مدينة مشهد كان الفلاسفة والعرفاء المتكلمين، رغم عدم معرفتي بنظرياتهم وآرائهم، يمثلون بالنسبة لي شخصيات عظيمة وكنت أحترمهم أكثر من سائر العلماء والمخترعين والمكتشفين، والسبب في ذلك أنّ هؤلاء العظماء كانوا يمثّلون أبطالاً في ميدان الفكر والمعرفة، وأتذكر بدقّة أنني في تلك الأعوام فيما بين الثالثة عشرة إلى الخامسة عشرة من عمري كنت أرىٰ من بين جميع الفضلاء والعلماء ومدرسي الحوزة العلمية في مشهد أنّ الشخص الوحيد الذي أراه عظيماً وأُحبّ أن اتطلّع إلى سيماء وجهه وأجلس بين يديه في الدرس وأُراقب سكناته وحركاته المرحوم (الميرزا مهدي شهيدي الرضوي) مدرّس الفلسفة الإلهيّة في تلك الحوزة».

ثم إنّ الشهيد المطهري أشار إلى حضوره في حلقات دروس الأخلاق والسلوك والمعارف الإلهية للإمام الخميني قدس سره التي كانت تعقد في كل خميس وجمعة ويتحدّث عن الهيام والعشق الذي كان يعيشه بالنسبة إلى هذا الدرس وشدّة تأثير تلك الجلسات والدروس في أعماق روحه وجدانه (مقدمة كتاب علل المادية، ص ٩ إلى ١١).

٤

الجدّية والاستقامة

من خصوصيات سماحة الاستاذ أنّه كان يتسم بالاستقامة والجدّية في أعماله وكان يتحرك في تحصيل العلم بقوّة ومثابرة بعيداً عن أي تساهل وتسامح في هذا الأمر.

وأتذكر دائماً نصيحتين للاستاذ في هذا المجال، وهما:

أ) ينبغي الشروع في العمل بقوّة وجدّية ولا ينبغي التسامح والتماهل أبداً في البداية، وهذه النقطة يذكرها سماحة الاستاذ مراراً في بداية كل سنة دراسية وبلحن محرك ومثير ويقرأ في هذا الصدد قوله تعالى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [1].

وأحياناً يقرأ بيتاً من الشعر يفور حرارة واخلاصاً وجدّية ويقول:

أنا لا أقول كن ملكاً أو كن فراشة ولكن إذا احترقت بنيران العشق فكن رجلاً

ب) ويشترط بعد الشروع في العمل أن يستمر الإنسان فيه ولا يشعر بالتثاقل أو يتقطع في عمله، ويتمسك الاستاذ، أولاً: بهذه الآية الشريفة: ﴿وَ الَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [2].

ويقول: إن رمز التوفيق والنجاح لطالب من طلاب الدروس الدينية أمران:

أحدهما: الجهاد والسعي بجدّية «**جاهدوا**».

والآخر: خلوص النيّة «**فينا**».

وثانياً: كان الاستاذ يشير إلى حوادث التاريخ ويقول: إذا تصفحتم تاريخ العظماء من

---

١. سورة مريم، الآية ١٢.

٢. سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

الرجال وقرأتم سيرة أساطين العلم الذين بذلوا جهدهم في خدمة الإسلام وحملوا راية العلم والدعوة إلى الله لوجدنا أنّ أغلب هؤلاء العظماء لم يكونوا يتمتعون بنبوغ خارق بل إنّ كثيراً منهم يملكون قابليات متوسطة ولكنهم تحملوا في هذا السبيل المشاق والمخاطر وأتعبوا أنفسهم في هذا السبيل[١].

المهم ترشيد الشخصية:

وببيان آخر: أنّه حتى المتوسطين من الناس إذا تحركوا بعزم وجدّية في خط الاستقامة والرسالة فإنّ قابلياتهم الكامنة بالقوّة تصبح بالفعل وتتحرك في مسيرها الواقعي، وبذلك يتمكنون من أن يخطوا خطوات واسعة على مستوى خدمة الدين والبشرية، فالكثير من

---

١. بديهي أنّ حصة السعي والمداومة على العمل في نيل الموفقية في مدارج الكمال العلمي والمعنوي أكثر من حصة الاستعداد والنبوغ الذاتي، بمعنى أنّ الإنسان حتى لو كان يتمتع بقوّة الحافظة والذكاء القوي ولكنّه لم يستخدم هذه الموهبة بصورة صحيحة ولم يمارس الجدّية في النشاط والسعي لاخراج القابليات والملكات من القوّة إلى الفعل فإنّه بعد مدّة سيفقد مقداراً كبيراً من هذه المواهب الفطرية في وجوده، ولكن ما أكثر الأشخاص الذين يعيشون القابليات المتوسطة والمواهب العادية ولكنّهم بحركتهم الجادة في خط تفعيل هذه المواهب والقدرات فانّ ذلك كان سبباً في تقوية هذه المواهب وبالتالي الوصول إلى مراتب عالية من الكمال العلمي أو الاجتماعي.

ومن هؤلاء «الشيخ الرئيس ابو علي ابن سينا»، الفيلسوف والنابغة الايراني الكبير الذي كان موهوباً في قوّة الحافظة والذكاء الحاد ولكنّه مع ذلك لم يغفل عن السعي الجاد والجهد المستمر في تفعيل هذه المواهب بحيث إنّه في أيّام التحصيل لم ينم ليلة كاملة من أجل قراءة كتاب «القانون» وهو في السادسة عشرة من العمر (لغت نامهٔ دهخدا).

وذكروا في ما يتعلق بسماحة «آية الله العظمى البروجردي رحمه الله» أنّه كان يبذل سعيه وجهده في تحصيل العلم بحيث أنّه يبقى مستيقظاً إلى وقت الفجر في المطالعة».

(من حياة الزعيم الأكبر مرجع الشيعة آية الله العظمى البروجردي رحمه الله)

ومن جهة أُخرى ذكروا في حالات «الملّا محمّد صالح المازندراني» الذي كتب شرحاً عميقاً على اصول الكافي أفضل من غيره، فيقال إنّه عندما كان يشتغل بأمر التحصيل كان ضعيف الحافظة حتى أنّه كان ينسى بيت استاذه مع أنّه كان يذهب إلى بيته للدرس في كل يوم.

وهكذا ما ينقل عن ضعف الحافظة وقلّة الذكاء بالنسبة إلى «السكاكي» الذي يضرب به المثل في ذلك بين العلماء ولكنّه بسعيه الجاد ونشاطه الدؤوب صار من أصحاب النظر والرأي وخلّف تأليفات كثيرة (قصص العلماء، ص ٢٢٩).

الناس يتمتعون بالمقدرة الخطابية أو الأدبية بالقوّة ولكنهم لم يبذلوا جهدهم في سبيل تفعيل هذه المقدرة النفسية ولم يمارسوا عملاً من أجل تقوية هذه الملكة فيهم ولذلك بقوا في حالة متخلّفة فلا هم يستطيعون الخطابة ولا يتمكنون من كتابة مقالة أو تأليف كتاب.

ويحدّثنا الاستاذ في هذا المجال ويقول:

«لا شك أنّ فنّ الكتابة والخطابة لم يمنح للبشر على السويّة، ولكن على أيّة حال فانّ كل شخص يمتلك مقداراً من هاتين الموهبتين ينبغي أن يمارس عملية تفعيل هذه الملكة ويجسد هذه الموهبة على أرض الواقع العملي بأن يخطب أو يكتب ويدافع عن معتقده ورأيه، بالرغم من أنّ موهبة الخطابة أو الكتابة يجب أن نضعها في دائرة الفنون الإنسانية المهمّة بل هي أهم الفنون ولكن باعتقادي إنّ فنّ الكتابة أو الخطابة ليس مثل فنّ الشعر الذي يملك تذوقه بعض الناس ويفقده البعض الآخر، وعلى هذا الأساس يجب على جميع الفضلاء وطلّاب العلوم الدينية أن يتحركوا في هذا السبيل ويبذلوا قصارى جهودهم من خلال التمرين والممارسة والتتلمذ لدى استاذ ليتسلحوا بهذين السلاحين ويكونوا من الخطباء أو الكتّاب المتميزين، وأنا بدوري لم يكن لدى موهبة الكتابة في مرحلة الابتدائية والثانوية، فعندما كنت أكتب موضوعاً إنشائياً في المدرسة لم يكن إنشائي أفضل من الآخرين لعدم وجود الأرضية المناسبة لتفتح هذه القابلية والملكة، ولكن تجربتي الشخصية تحكي عن أنّ الإنسان إذا أراد تقوية وتفعيل هذه الملكة في نفسه يجب عليه مطالعة آثار الكتّاب والأُدباء الجيدين، وهكذا فعلت في هذا المجال وقرأت كتباً عديدة مشهورة بقوّة الأدب وقد طبعت مرّات عديدة وكانت مورد استقبال الناس في مجالسهم وكلماتهم.

وهنا تجربة أُخرى أيضاً وهي أن يشتغل الطالب في هذا المجال تحت

نظر مرشد واستاذ فانّ ذلك من شأنه الاسراع في عملية ترشيد المواهب الفنية لدى الطالب، ولكنني مع الأسف كنت أفتقد الاستاذ في الكتابة، واقتصرت على الطريق الأول وهو قراءة الكتب الجيدة للآخرين (وهذا أيضاً من قبيل الاستفادة من الاستاذ) ولكن الأشخاص الذين اشتركوا في جلساتنا وتعلموا فن الكتابة بصورة منظمة كانوا أسرع من غيرهم في اقتباس هذا الفن وتجسيده في الخارج على شكل تأليف كتب جيدة».

أهميّة التأليف والخطابة:

يتحدث الاستاذ عن أهميّة فنّ التأليف والخطابة بقوله:

«لقد ذكرت الآيات القرآنية والأحاديث الإسلامية هاتين الموهبتين بعنوان أنّهما من المواهب الإلهيّة الكبيرة للإنسان، مثلاً نقرأ في سورة «الرحمن» بعد أن يتحدث عن خلق الإنسان يذكر مباشرة مسألة تعليمه البيان: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[1]، ويقول تعالى في الآية الاولىٰ من سورة القلم: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، حيث يقسم الله بالقلم وبمحتويات القلم، ومن هنا يتضح جيداً أهميّة هذا الأمر حيث يقسم الله تعالى دائماً بالأُمور المهمّة.

أمّا الأحاديث الشريفة فقد سمعتم جميعاً الحديث المعروف: «مدادُ العلماءِ أفضلُ مِن دِماءِ الشُّهَداءِ»، لأنّ قلم العلماء وتأليفاتهم هي التي تبعث على حركة بالشهداء من أجل الدين والفضيلة، مضافاً إلى أنّ الحافظ لدماء الشهداء هو قلم العلماء، وقد ورد في الحديث النبوي المعروف:

«إذا مات المؤمن انقطع عمله إلّا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[2].

١.سورة الرحمن، الآية ١ ـ ٤.

٢. بحار الأنوار، ج ٢، ص٢٢، ونقرأ في حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله:

ولنستمع إلى ما ذكره أحد الأصدقاء وهو «**آية الله ذاكر الشيرازي**» يحدثنا في هذا المجال عن حادثة شيّقة ويقول:

«إنّ أحد الأُمور الدخيلة في نجاحي في الحياة هو النشاط والجدّية التامة في العمل، وأتذكر أنني كنت في شيراز في مدرسة (آقا بابا خان) كنت أشتغل طيلة اليوم والليلة ما عدا أربع ساعات للنوم والاستراحة مع أنني كنت أستغل أيّام العطل أيضاً للعمل والمطالعة والبحث العلمي».

ويحدّثنا صديق آخر وهو «**حجّة الاسلام والمسلمين مؤمن الشيرزاي**» بهذه الحكاية:

«إنّ أحد الخصوصيات التي أعلمها عن الاستاذ أنّه كان كثير الاشتغال والنشاط، وعندما توفي والده ذهبنا لتشيع جنازته وعدنا إلى المدرسة، ولكنّه توجه إلى بيته وجاء صباح الغد إلى الدرس، وكان يشتغل بالدرس والبحث طيلة أيّام السنة في تلك المدرسة حتى أيّام العطلة ما عدا أيّام الجمعة وثلاثة أيّام أُخرى في السنة: يوم عاشوراء و٢٨ صفر و٢١ من شهر رمضان، فكان جاداً في عمله وعندما قدم إلى مدينة قم حضر درس المحقق أية اللهالعظمى الداماد وكان من طلّابه المقرّبين».

أ«من كتب عنّي علماً أو حديثاً لم يزل يكتب له الأجر ما بقى ذلك العلم والحديث». (ميزان الحكمة، مفردة «الكتاب»).

و في رواية أُخرى أيضاً عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال:

«المؤمن إذا مات وترك ورقةً واحدةً عليها علم، تكون تلك الورقة يوم القيامة ستراً فيما بينه وبين النّار وأعطاه اللّه تبارك وتعالى بكلّ حرف مكتوب عليها مدينةً أوسع من الدنيا سبع مرّات» (المصدر السابق).

٥

المداوة والاستقامة[١]

من الأُمور الجميلة أنّ سماحة الاستاذ لا يوجد في قاموسه معنى ومفهوم لكلمة العطلة، فعندما يدخل إلى المدرسة يتوجه فوراً إلى غرفته الخاصة ويبدأ بالمطالعة والكتابة إلى أن يحين وقت خروجه من المدرسة، وهكذا كان حاله في جميع أيّام السنة، ولعلّه يمكن القول أنّه كان يستفيد من أيّام العطلة أكثر ممّا كان يستفيده من أيّام التحصيل والدرس.

ولو لم يكن كذلك فلا يعقل أن يتمكن الاستاذ من الانتهاء من تفسير القرآن بأجمعه وبذلك التفصيل والشمولية خلال خمسة عشر سنة، هذا العمل والفعالية كما يعبّر عنها بعض اساتذة الحوزة العلمية المعروفين أنّها من المواهب الإلهيّة، واللطيف أنّ هذا الرجل المملوء حزماً وتصميماً كان لا يترك السعي والاشتغال حتى في أيّام المنفى، فعندما أمرت حكومة الطاغوت بتبعيده كان الاستاذ يعقد جلسات تفسيرية في محلّ المنفى[٢].

---

١. لا حاجة إلى ذكر أنّ كثرة العمل غير الاستقامة في العمل، فالكثير من الأشخاص النشطين والذين يعيشون الجدّية وكثرة العمل في حياتهم بمعنى أنّهم إذا شرعوا في عمل معين فانّهم لا يتركونه ناقصاً بل يستمرون بهذا العمل حتى النهاية ولكن ربّما يعملون في اليوم الواحد أربع ساعات أو ثمان ساعات في أكثر الأحيان في حين أنّ الإنسان النشيط والفعّال يمكن أن يعمل ستة عشر ساعة في اليوم.

٢. أساساً فانّ العلماء الذين خلّفوا تأليفات وآثاراً كثيرة مضافاً إلى ذكائهم واستقامتهم وعزمهم في ميدان الإرادة فانّهم يتمتعون بنعمة النشاط والفعالية أيضاً، ولا يفترون عن التأليف والتصنيف والتحقيق في حالاتهم وظروفهم المختلفة سواء في السفر أو الحضر.

«إنّ العلّامة الحلّي رحمه الله كان من جملة الأشخاص من أصحاب النشاط والفعالية الكبيرة والمعروف عنه أنّه إذا قسمت تأليفاته على مدّة عمره (البالغ سبع وسبعين سنة) فإنّه كان يكتب في كل يوم ألف سطر، وذكر البعض

ويحدثنا الاستاذ عن هذه القضية ما يلي:

«أتذكر أنني كنت أكتب التفسير الأمثل ليل نهار ولم يكن لدي وقت إضافي، وفي أيّام التبعيد والنفي كنت أشتغل بكتابة التفسير الأمثل، لأنني كنت أملك وقتاً كثيراً لهذا العمل، وكان يشترك معي عشرة من الأصدقاء بحيث كان يأتي إلى محلّ التبعيد شخصان منهم على التوالي، وبالطبع كان مجيئهم إلى ذلك المكان يتضمّن مخاطرة ومشاكل سياسية وغير سياسية، ولكن في النهاية كانوا يأتون إليَّ في ذلك المكان، وهكذا استمر العمل، وأحياناً كنت أشتغل بتأليف كتاب وأنا مسافر بالقطار أو في الطائرة ولكن الكتابة في السيارة كانت تواجه بعض الصعوبة فكنت أشتغل بالتفكير وكتابة بعض الملاحظات والنقاط، والكثير من الموضوعات والأشعار كتبتها في أسفاري، وباعتقادي أنّ جميع المؤلفين الكبار هم من الأشخاص الفاعلين والنشيطين».

العمل أربعة عشر ساعة في اليوم والليلة:

ويحدّثنا هذا الاستاذ الكبير في هذا المجال ويقول:

«لم أكن بحمد الله أتعب من العمل، والآن وقد بلغت من العمر سبعين

أأنّه ألّف خمسمائة كتاب وقال الطريحي في مجمع البحرين: إنّه رأى خمسمائة كتاب بخط العلّامة، وهذا غير التأليفاته التي وقعت بخط الآخرين، بحيث إنّه نسب إليه ألف كتاب» (اقتباس من كتاب قصص العلماء، ص ٣٦٠).

وبعض العلماء ترك تأليفات قيمة منه وهو في السجن:

«من هؤلاء المؤرخ الإسلامي الكبير ابن خلدون حيث يذكر في أثره الخالد (المقدمة على تاريخه) أنّه ألّفه في أيّام النفي والتبعيد، وهكذا بالنسبة إلى الخواجة نصير الدين الطوسي الذي كان معتقلاً في (قلعة الموت) من قبل فرقة الإسماعيلية حيث كتب كتابه الكبير والقيم (شرح الاشارات) في ذلك السجن، وكذلك العالم الكبير للشيعة والشهيد الأول الذي كتب (كتاب اللمعة) الذي يعدّ متناً للقوانين الإسلامية، في سجن دمشق، وقد كتب (سر والتر راله) كتاب (تاريخ الدنيا) في السجن»، (سر موفقية العظماء، ص ٢٣).

سنة فأنا أعمل أحياناً في بعض الأيّام مدّة أربعة عشر ساعة في اليوم، وبما أنني أحبّ العمل والفعالية فانّ هذه الرغبة تسبب زيادة روح النشاط في نفسي بعيداً عن حالة التعب، ولعلّكم تعجبون ممّا أذكره لكم بأنني أحياناً أغرق في العمل إلى درجة أنني إذا أردت تقليم أظافري فإنني أقوم بتقليم أظافر كفّ واحدة في هذا اليوم ولا أجد وقتاً كافياً لتقليم أظافر اليد الأُخرى، فأُوكل أمرها إلى الغد، وأحياناً لا أجد الوقت لأن أشرب الماء، ولا أحسّ بذلك إلّا إذا اشتدّ بي العطش لأنني لا أجد فرصة في أثناء عملي لشرب الماء، هذه الأُمور قد تورث العجب لدى البعض ولكن بالنسبة إلى الأشخاص الذين يعيشون قريباً من هذه الأجواء فلا يتعجبون من ذلك، والأقرباء والأهل بدورهم يدركون جيداً هذه الحالة».

وهذه الملاحظة تحلّ مسألة كثرة تأليفات الاستاذ «**أكثر من مائة كتاب**» وترد شبهة العجلة في كتابة وتأليف هذه الكتب بأن تضحي العجلة بالكيفية لحساب الكمية، «وربّما تصحّ هذه المقولة بالنسبة لبعض المؤلفين الذين عُرفوا بكثرة تأليفاتهم» فالشخص الذي يشتغل أربعة عشر ساعة أو أكثر في اليوم لا نتعجب لكثرة تأليفاتهم، وكما يقول بعض[1] أصحابه عنه:

«كان يستيقظ آخر ساعة من الليل وبعد الإتيان بالنوافل يصلي صلاة الصبح ثم يشتغل بالمطالعة إلى أن يحين موعد تناول طعام الفطور ثم يخرج من غرفته لممارسة نشاطاته العلمية الأُخرى من الدرس والتدريس».

ولا سيّما إذا أخذنا بنظر الاعتبار سرعة العمل وملكة النبوغ الذاتي والذهن الخلّاق الذي مرّ الكلام عنه سابقاً وسرعة البديهة ودرك المطالب والمسائل العميقة فانّ مثل هذا الشخص يمكنه الجمع بين كثرة التأليف والدقّة والعمق في مجال الموضوعات العلمية.

---

١. آية الله المحفوظي.

الكمية لا تكون على حساب الكيفية:

ويحدّثنا الاستاذ عن هذه الخصوصية في تأليفاته ويقول:

«إنني أُوصي دائماً بعدم العجلة في الأُمور وخاصة في مجال التأليف، فالتأليف مثل السهم المنطلق من القوس عندما ينطلق ويخرج من سيطرة الإنسان وينتشر في المجتمع لا يمكن بعد ذلك جمعه وإعادته، فأنا أُوصي الاخوة في هذا المجال وفي المجالات الأُخرى أن لا يضحّوا بالكيفية فداءً للكمية، علينا الاقلال من الكتابة لحساب زيادة الجودة والكيفية، فلعلّكم تشكلون عليَّ بأنّك أكثرت من التأليف وكتبت كتباً كثيراً حيث يبلغ عددها مائة وعشرين كتاباً.

جوابي عن هذا الإشكال أنني إذا أردت أن أُضحي بالكيفية لحساب الكمية فانني قادر على أن أكتب أكثر من ذلك بكثير، ولكنّ بعض هذه التأليفات قدكتبتها مرّتين أو ثلاث مرّات قبل طبعها، وهذا الأمر حصيلة كثرة العمل والفعّالية (أحياناً أعمل أربعة عشر ساعة في اليوم) ولا أعتقد أنني قد أكثرت من كمية التأليفات على حساب اهتزاز الكيفية والجودة».

٦

العشق للعمل

ممّا لا شك أنّ أحد عوامل زيادة النشاط والفعالية هو أن يمتلك الإنسان حالة العشق للعمل والطريق الذي يختاره الإنسان في حركة الحياة، فلو أنّ هذا العشق لم يكن عشقاً أعمى بل يتحرك من موقع الحِكم والمصالح المعقولة فإنّه سيكون سبباً لكثرة العمل وزيادة النشاط وعدم التعب، وكذلك يورث الإنسان استمرارية وجدّية في عمله، مثلاً إذا اختار الإنسان فرع العلوم الدينية واشتغل في الحوزة العلمية حيث تعتبر هذه العلوم والدراسات من أفضل وأسمى الفروع العلمية لأنّها تتسبّب في هداية الناس وإرشادهم، وهذه المسألة تعتبر من أعظم الحاجات في المجتمع البشري، فالمجتمع الذي يخلو من الأخلاق والإنسانية فإنّه بمثابة جسد بلا روح (ولا يختلف حاله عن المجتمع الحيواني بل يكون أقصى وأشدّ توحشاً وانحطاطاً حتى لو كان يملك أعلى قدرة تكنولوجية ويملك أحسن الأطباء والمهندسين والفنانين في مختلف العلوم والفنون) فلو أنّ الإنسان تحرك من هذا المنطلق وسلك في حياته هذا الخط أي أنّه سلك طريق الأنبياء واتخذ مهمّة أولياء الدين عملاً له وجعل من نفسه جندياً للدين وخادماً للإمام صاحب الزمان عليه السلام، وعاش في هذه الأجواء من العشق للتحقيق والتأليف، فمن المسلّم أن يكون مثل هذا الشخص كثير النشاط والفعالية ولا يتعب ولا يمل من التحقيق والعمل والدراسة ولا يقف في وسط الطريق بدون إكمال المسيرة الرسالية.

خمس الأبناء يقدّمه إلى الإمام المهدي عليه السلام:

لقد وضع استاذنا قدمه في هذا الطريق بهدف أن يكون جندياً من جنود صاحب الزمان عليه السلام، بل أنّ والده بنيّة خالصة كما يعبّر أية الله موحد (استاذ استاذنا)، قدّم ابنه هذا بعنوان أنّه خمس أبنائه إلى الإمام المهدي عليه السلام، ومن هنا شعر الاستاذ بالعشق الملتهب في وجدانه يزيل عنه كل أشكال الكسل والتعب ويسلب منه طعم الراحة.

وحكى لنا سماحة الاستاذ عن عمل والده في تقديمه إلى الدراسة وقائلاً:

«بما أنّ الدروس العلمية في مدرسة خان في شيراز كانت متقطعة من جهة، ومن جهة كنت أعيش العشق الملتهب لتحصيل العلوم الدينية وقد ملك هذا العشق جميع وجودي وألهب روحي فلم يروني هذا المقدار القليل من الدراسة، وكان أن انتهت امتحانات السنة الثالثة في المدرسة الثانوية وانتقلنا إلى مدرسة أُخرى تدعى «آقا بابا خان» من المدارس المعروفة في شيزار والتي يدرس فيها الطلّاب جميع الوقت، فتوجهت إلى آية الله موحد وبدأت أتتلمذ عنده، وفي أحد الأيام جاء آية الله موحد إلى السوق وحضر في دكان والدي وقال له: أنت والد لخمسة أبناء أحدهم ناصر، فاجعل هذا الولد بعنوان خُمس أبنائك للإمام صاحب الزمان عليه السلام ودعه يحضر دروسه الدينية بشكل منظم، فوافق والدي، وذلك في وقت كان لي من العمر ثلاثة عشر سنة وكان والدي في أمس الحاجة إليَّ».

العشق للإمام صاحب الزمان عليه السلام:

ويتحدّث سماحة الاستاذ عن حبّه الشديد للإمام صاحب الزمان عليه السلام ويقول:

«لا أتذكر بالدقّة كم كان لي من العمر عندما شعرت بالعشق الشديد لمعرفة الله وأولياء الدين وخاصة الإمام صاحب الزمان (عج)، ولعلّه كان لي

من العمر اثنتا عشرة سنة حيث كنت أشعر دائماً بأنني أبحث عن ضالتي وينبغي عليَّ البحث عنها والعثور عليها، فتوجهت إلى المسجد واشتركت في مجالس الوعظ والإرشاد وكنت أزور مرقد «شاه چراغ»[1] في شيراز ولكنني لم أعثر على ضالتي، وكانت لي دعوات ومناجاة مختلفة ولكنّها لم تكن تروي عطشي إلى الغاية المنشودة، وصارت لي علاقة شديدة بالعبادة ولكنني لم أكن أُدرك في هذا العمر الطفولي مضمون العبادات، وأحياناً كنت أحتاج للذهاب إلى الحمام ولكن بما أنّ البيوت في ذلك الزمان تفتقر إلى الحمام وكنت أشعر بالخجل «ولم أكن أرغب أن آخذ نفقة الحمام من أبي وأُمي، وأساساً الأولاد في عمري كانوا يتوجّهون إلى الحمام مع أبائهم» فاضطررت إلى الذهاب إلى خارج المدينة في محلة «قصر سعدي» حيث يمرّ من هناك غدير للماء ولعله يبعد عن منزلنا فرسخ واحد فكنت أغتسل هناك بذلك الماء وأعود إلى البيت، ولكنني كنت أشعر بالرضا في قلبي، وعندما دخلت سلك طلّاب العلوم الدينية ازدادت هذه الحالة واشتدّت أكثر من السابق».

العشق لطلب العلم:

وعلى أيّة حال هذا العشق المقدّس لطلب العلم، كما تقدّم في الفصول السابقة، تسبب في أن ينتهي سماحة الاستاذ من قراءة كتاب الصمدية بدون استاذ في أقلّ من يومين ويجيب على إشكال استاذه، أو أن يقرأ في يوم واحد كتاب الأمثلة وشرح الأمثلة ويشترك في الامتحان به ويرتقي إلى صف أعلى، ويحدّثنا الاستاذ عن ذلك بقوله:

---

١. شاه چراغ أحمد بن موسى الكاظم أخو الإمام الرضا عليه السلام، ويعتبر من أولاد الأئمّة المعروفين في مدينة شيراز حيث يأتي الناس لزيارة مرقده الشريف من مناطق قريبة وبعيدة.

«أنا لا أرى أنّ هذه الأُمور ترتبط بالقابلية والاستعداد الذاتي بل تتعلق بشكل أكبر بالعشق الجياش لطلب العلم وأعتقد أنّ العشق والعلاقة العاطفية بإمكانه أن يحدث معجزة في هذا المجال ولكن قليلاً من الناس يصدّق بهذا المعنى».

وكذلك يقول سماحته:

«كنت أدرس ليل نهار، في الصيف والشتاء، في شهر رمضان ومحرم وصفر ما عدا يوم الجمعة وبعض أيّام التعطيل المهمّة (ثلاثة أيّام في السنة)، ولم يكن اهتمامنا في المدرسة سوى المطالعة والتدريس، وكان عشقي يزداد ويشتدّ يوماً بعد آخر، وكنت كلما درست أكثر لا أشعر بالرضا في نفسي فكنت أضغط على استاذي أن يدرسني أكثر، ولكنّه لم يكن يقبل بذلك، ولعله كان يتصور أنّ الصبي الذي له من العمر ثلاث عشرة سنة لا ينبغي له أن يدرس كل هذه الدروس ويضغط على نفسه وأعصابه فيصاب بالذبول والضعف بسرعة، ويواجه الخطر في مستقبله، ولكنني كنت دائماً في صراع معه لأكسب منه دروساً أكثر وكان هو يسعى أكثر بأن لا أدرس أكثر من اللازم، وكان الحق معه ولكن الشخص العاشق لا يذعن لهذه الأقوال بسهولة[1].

---

١. إنّ مهمّة العقل هي الحسابات المنطقية والمعادلات الرياضية في تعامله مع الأُمور، فيبدي نظره وفق قراءة معروفة ومقاييس سائدة بين العقلاء ويصدر حكمه وفقاً لها، ومن هنا نراه يحذر الإنسان الدخول في كثير من الأُمور والموارد حتى المقدّسة منها ولا يرى التورط بمثل هذه الأُمور في صالحه، ولو كان العمل يورث الإنسان ضعفاً في بدنه وقلّة في وزنه وفقراً في معيشته فانّ مثل هذا العمل في مقياس العقل بعيد عن العقلانية والحكمة فكيف بالعمل الذي يوقع الإنسان في وادي الخطأ؟!

ولكنّ للعشق منطقاً آخر، فالمحالات تكون ممكنة حينئذٍ والعاشق لا يفكّر إلّا بالهدف المقدّس الذي يعيش التضحية من أجله بنفسه ومكانته الاجتماعية وأمواله ولا يذوق طعم الراحة والسكينة إلّا بالوصول إليه.

فالإنسان الذي يريد السير في طريق الأهداف العلمية والعملية المقدّسة ويتحرك في خط الدفاع عن حريم

ولعلّكم لا تصدّقونني بل إنني بدوري لا أكاد أُصدق بأنني في تلك الأيّام شرعت بتدريس المراحل البدائية من المقدمات وأحياناً كان لي في تلك المدرسة ثمان جلسات للتدريس في يوم واحد مضافاً إلى دروسي والمباحثات التي كنت أُجريها مع اخواني، ومع أن بيتنا في شيراز لم تكن تفصله عن المدرسة فاصلة كبيرة فإنني قلّما كنت أذهب إلى البيت بل كنت أبقى ليل نهار في المدرسة مشتغلاً بالمطالعة والدرس إلى وقت متأخر، حيث كان لدينا في ذلك الوقت مصباح نفطي، وفي أحد الليالي ملكني النوم وأنا في أثناء المطالعة وانقلب المصباح فلما استيقظت في الصباح رأيت نفسي وكتبي كلّها سوداء والمصباح منطفىء، وقد ملكتني رحمة الله أنّ

الدين والرسالة إذا لم يكن يعيش العشق في واقعه الروحي وجميع جوانب حياته فإنّه سيفقد الكثير من البركات والثمرات والنتائج المترتبة على هذه الأعمال.

وأحد هؤلاء العشّاق في طريق العلم والدين هو «العلّامة الأميني» حيث كان يسير في طريق الدفاع عن أهل البيت عليهم السلام وخاصة أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام بحالة من الوجد التام:

«إنّ العلّامة الأميني كان قد أقام في مكتبته الخاصة من أجل كتابه «الغدير» والدفاع عن حريم الولاية، واستمر في عمله الدؤوب يحدوه العشق والرغبة الخالصة بحيث أنّه كان يعمل في الليل والنهار ستة عشر ساعة في المطالعة والكتابة، ولا يتسنى لشخص هذا المقدار من النشاط والعمل إلّا بدافع العشق للرسالة والأهداف السامية، فأحياناً يصرف من وقته من أجل شرح حال أحد الرواة والتحقيق في وثاقته أو عدم وثاقته أكثر من عشرة أيّام، وكان يعمل في مكتبته الخاصة في استنساخ الكتب بدون الاهتمام بالحر والبرد، فهذا الإنسان العظيم كان قد أتمّ مطالعة جميع كتب ومحتويات سبعة مكتبات كبيرة في النجف (التي تدخل في صلب موضوعه) ثم انتقل إلى مكتبات كربلاء والكاظمين وسامراء وبغداد والحلة والبصرة وأخذ بالتحقيق في كتبها، ثم إنّه توجه إلى الهند وسورية وبعض مدن تركيا للعثور على الكتب الخطية النادرة وعمل على استنساخها» (من كتاب ربع قرن مع العلّامة الأميني، ص ٣٩ ـ ٤٣).

ثم إنّ العلّامة الأميني توجه إلى مكتبات مشهد ومكتبة الإمام الرضا عليه السلام والمكتبة الوطنية في مجلس الشورى في طهران وعدّة مكتبات أُخرى لاكمال تحقيقاته لدراسته. (المصدر السابق، ص ١٠٥).

وقد أنفق العلّامة الأميني نصف قرن من عمره الشريف لتأليف كتابه الشريف والقيم «الغدير» في أحد عشر مجلداً (المصدر السابق، ص ١٠٧ بتصرّف) ويقول أحد الأعاظم: عندما عاد الأميني من الهند سألته: كيف وجدت الحر الشديد في صيف تلك الديار وتحملت هذا الحر؟ فأجاب: عندما كنت هناك سألني أحدهم نفس هذا السؤال فشعرت بعد سؤاله هذا بأنّ الهواء حار.

الغرفة لم تحترق. ولم أكن أهتم لنوع الغذاء إطلاقاً، وأساساً فإنّ حالة الطلاب في ذلكالوقت كانت أشدّ صعوبة من الحالة في هذا الزمان، فقد سبب مجموع هذه الأُمور أن أُصاب بالضعف والذبول في بدني ولكنّ حرارة العشق لطلب العلم كانت تعوّض تلك الخسارة».

٧

النظم في جميع الأمور[١]

إنّ حالة النظم في حياة الاستاذ إلى درجة من الدقّة بحيث يذعن لها كل إنسان منظم ولا يطيقها كل شخص غير منظم، وهذه الحقيقة يدركها كل شخص كانت له رابطة معينة مع سماحة الاستاذ.

---

١. إنّ مسألة النظم في الأُمور في نظر الإسلام إلى درجة من الأهميّة بحيث إنّ أمير المؤمنين عليه السلام أوصى به في آخر وصاياه لولديه الحسن والحسين عليهما السلام وأهل بيته وقال: «أوصيكما وجميع ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي بتقوى الله ونظم أمركم» (نهج البلاغة، الرسالة ٤٧).

كيف يعقل أن يعيش الإنسان في عالم مبني على أساس النظم والالتزام بين جميع المخلوقات من السماء والأرض والشمس والقمر والكواكب التي تتحرك وفق نظم دقيق جدّاً، فكيف يعيش الإنسان ضمن هذه المجموعة المنظمة بحالة عدم النظم ويتوقع أن ينجح في الوصول إلى أهدافه، إنّ الإنسان يمكنه من خلال نظم أعماله ومراعاة برنامج منظم في أوقاته، أن يحصل على متسع من الوقت في ساعات الليل والنهار، وأن يؤدّي كل عمل في وقته المعين وتسير أُموره وفق برنامج سليم، إنّ الإشخاص الذين يعيشون النظم في حياتهم يمتلكون صدق الوعد ويلتزمون بكلامهم وبذلك يحترمهم الآخرون، ولكنّ الشخص الذي يعيش اللامبالاة وعدم النظم فنراه يتخبط في دوامة الحيرة ولا يجد لديه فرصة مناسبة للانتهاء من أعماله وبالتالي سيكون قليل الفعّالية ويعيش القلق والاضطراب الدائم فلا يجد وقتاً كافياً للدرس والتحقيق والعبادة وسائر النشاطات العلمية ولا يجد وقتاً كذلك للترفيه للاستراحة أيضاً.

الإنسان العديم النظم يتحرك في تعامله مع الآخرين من موقع نقض الوعد وعادة يغفل عن الانتهاء من أعماله والتوصل إلى نتائج مقبولة من نشاطاته، ولو رأينا بعض الأفراد غير المنظمين قد أحرزوا نجاحاً في عملهم فلابدّ أن نعلم أنّهم في صورة تنظيم أُمورهم سينالون توفيقات أكثر من ذلك.

وفي العالم المعاصر نرى أنّ البلدان الناجحة والموفقة في ميدان التطور العلمي والتقدم الحضاري فانّهم مضافاً إلى حركتهم وفق برنامج دقيق ونظام منسجم فإنّ الناس في هذه البلدان يتحركون في حياتهم ومعيشتهم من خلال مراعاة القوانين والمقررات الاجتماعية بدقّة ونظم خاص، ومن هنا فانّ إيجاد برنامج منظم للطلّاب والمحقّقين من أجل التحصيل العلمي، التدريس، المطالعة، التحقيق، العبادة، الاستراحة، يعدّ أمراً لازماً وضرورياً كيما يتنسى لهم الوصول إلى الغرض المطلوب والهدف المنشود في حياتهم وليعيشوا بنشاط دائم وأُفق جلي ومستقبل زاهر.

ويتحدّث الاستاذ عن هذا الجانب بقوله:

«كنت أتحرك في حياتي وفقاً للنظم لا في مجال الدرس والبحث والتحقيق فحسب بل حتى في مجال الأكل والنوم والاستيقاظ وسائر الأُمور الأُخرى، وقد أدّىٰ هذا النظم إلى أن أستفيد من أوقاتي بأفضل ما يكون، ولو لم يكن هناك نظم في حياتي لم أكن موفّقاً لإنجاز أعمال مهمّة، ومن غير الممكن أن أنتج هذه التأليفات المهمّة بدون برنامج منظم».

وأمّا بالنسبة إلى حكايات الاخوة والأصدقاء فكلّها تحكي عن وجود مثل هذا النظم الدقيق في حياة الاستاذ منذ قديم الأيّام حيث يقول أحدهم[١]:

«إنني رأيت في الاستاذ أمراً مهمّاً وهو نظمه في العمل وقد كان يتحرك وفق برنامج معين ومنظم للمطالعة، وبرنامج للنوم، وبرنامج للعبادة، وبرنامج لأعمال داخل الغرفة».

إنّ تنوع نشاطات سماحة الاستاذ العلمية وكثرة رجوع الناس إليه وخاصة بعد قبوله لمسؤولية الافتاء والمرجعية الدينية من شأنها أن تؤدّي إلى مشكلات كثيرة في حال عدم وجود النظم والانضباط في دائرة الأعمال والنشاطات المختلفة لأنّ النظم يعني وضع كل شيء في محلّه وبالتالي ستكون الإجابة على الكم الهائل من الأسئلة والاستفتاءات في الأبواب الفقهية المختلفة ممكنة وميسورة، يقول الاستاذ في هذا الشأن:

«النقطة الأُخرى التي لها جنبة خصوصية واجتماعية في نفس الوقت لأنني أعتقد أنّ الإنسان المسؤول يجب عليه أن يجيب على طلبات الناس ورسائلهم، هذه الرسائل إذا استمرت تمثل حلقة وصل بين الفرد والمجتمع، وأنا بدوري أوصيت الاخوة في قسم الرسائل في مكتبي أن يكون هذا القسم فعّالاً ولابدّ من الإجابة على كل رسالة حدّ الإمكان فلا ينبغي أن

---

١. وهو آية الله المحفوظي.

تكون هذه الرابطة مع الناس ضعيفة ومهزوزة، لأنّ الرسائل تورث الإنسان معلومات كثيرة عن وضع المجتمع والناس، ولهذا السبب نرى في الحال الحاضر الكم الهائل من الرسائل، وفي كل يوم يفتح المسؤولون عن هذا القسم رسائل عديدة تصل إلينا من الناس وبما أنّ هذه الرسائل بمثابة أمانة من المرسلين فأنا لا أُجيز لمسؤولي المكتب فتح هذه الرسائل لوحدهم بل يجب عليهم فتحها وقراءتها في حضوري ليتمّ عزل تلك الرسائل التي تتضمن أسرار الناس، وتفكيكها عن الرسائل العادية التي لا تحتوي على موضوع خاص، وهكذا يتمّ بعث الرسائل الخاصة بالاستفتاءات إلى قسم الاستفتاء، والرسائل المتعلقة بطلب الكتب إلى قسمها الخاص، والرسائل العلمية التي كتب عليها «رسالة علمية» ترسل إلى القسم الخاص بالأجوبة العلمية، والرسائل العادية ترسل كذلك إلى قسمها الخاص، ولكل واحد منها شخص مسؤول عن الإجابة عنها ولكنّ التوقيع النهائي على الرسائل وخاصة فيما يتعلق بالاستفتاءات إنّما يكون تحت نظري».

بركات النظم وروح الإصلاح والتنظيم:

إنّ روح النظم المتوغلة في شخصية الاستاذ عندما تتحد مع إرادة الإصلاح والتكامل فانّ من شأنها أن تفرز بركات كثيرة للحوزة العلمية، إنّ اتصاف الاستاذ بمثل هذه الروحية الإيجابية أدّى إلى أن يهتم منذ عنفوان شبابه بإصلاح وتنظيم البرامج الدراسية في الحوزة العلمية، ومن هنا كان له لقاء مثير وشيّق مع آية الله العظمى السيد البروجردي (وبصحبة مجموعة أصدقائه الطلّاب الشباب في الحوزة)، وسيأتي تفاصيل هذا اللقاء تحت عنوان «**حرية الفكر والاعتماد على النفس**» لسماحة الاستاذ، ولكن لا بأس بالإشارة في هذا الفصل إلى هذه الحقيقة، وهي أنّه بالرغم من أنّ مثل هذه الاطروحات الإصلاحية لإيجاد النظم في

الحوزة العلمية في زمان آية الله العظمى البروجردي قدس سره لم تؤثر كثيراً في تغيير الوضع الراكد في الحوزة، والراكد على مدى الزمان فانّها أثرت تأثيراً ملموساً على يد مراجع كبار كالسيد الإمام قدس سره وآية الله العظمى الكلبايكاني (الذي كان يعدّ في زمان المرحوم آية الله العظمى من علماء الدرجة الثانية ولكن بعد ذلك أصبح من علماء الدرجة الأُولى وزعيماً للحوزة العلمية)، والأفضل أن نستمع لهذه الواقعة من الاستاذ نفسه بحيث يقول عنها:

«لقد شعر القائمون على أُمور الحوزة بعد آية الله العظمى البروجردي وما رافق ذلك من تحولات كثيرة، أنّ مسألة الامتحان مثلاً في الحوزات العلمية أضحت من الواجبات، ولابدّ في المراحل الابتدائية في دروس الحوزة من وضع برنامج دقيق للمدارس الدينية، من هؤلاء العلماء آية الله العظمى السيد الكلبايكاني حيث شكل أول مدرسة علمية وفقاً لهذا البرنامج: حيث كان هناك برنامج دراسي منظم، وساعات دراسية منظمة، وتسجيل للحضور والغياب في جلسات الدرس، وكان الطالب يؤدّي الامتحان بصورة مرتبة، وكانت هناك حالة من الاهتمام بأمر معيشة الطلّاب فيها، ثم إنّ هذا المنهج امتد إلى دائرة أوسع في الحوزة، وأتذكر جيداً أنني تحدثت مع مجموعة من الاخوة الفضلاء في ضرورة أن يكون هناك درس لبعض اللغات الأجنبية إلى جانب دروس الحوزة، وقد عثرنا على استاذ خاص لتدريسنا هذه اللغة في الليالي التي لم يكن لدينا بحث أو درس حوزوي، ولكن بعد ذلك أصبحت هذه المسألة تمثل ظاهرة عامة، وأنا بنفسي استخدمت استاذاً لتعليم اللغة الأجنبية لمجموعة من الطلّاب الذين يدرسون في مدرسة أميرالمؤمنين عليه السلام التابعة لي، وقد استقبل الطلّاب هذا الدرس بشوق بالغ وقد رأينا ضرورة هذا الدرس لبعض الطلّاب بعنوان مقدّمة الواجب على الأقل، لأننا يجب علينا الاطلاع على أصحاب التيارات

الفكرية الأُخرى ومصادرها الفكرية بلغتهم من جهة، ومن جهة أُخرى ينبغي علينا إيصال صوت الإسلام من خلال القلم والبيان إلى أقصى نقاط العالم، وكانت هذه البرامج الإصلاحية تستوعب جهات مختلفة: منها، إصلاح وتكميل الكتب الدراسية غير كتب الفقه والأُصول، حذف المباحث الزائدة في الفقه والأُصول، الاهتمام بالمسائل المستحدثة، الاهتمام بالمذاهب المنحرفة والمجعولة ومباحث أُخرى، حيث رأينا أنّ الاهتمام بهذه المواضيع يزداد يوماً بعد آخر حتى بداية الثورة الإسلامية حيث أثمرة الجهود بحمد الله وكان الإمام الراحل قدس سره من المؤيّدين لهذه البرامج الإصلاحية وقد اقترح تأسيس شورى مديرية الحوزة وأوصى بتشكيلها، وقد بعث من جانبه ثلاثة أشخاص لهذا الشأن وثلاثة أشخاص من قبل آية الله العظمى الكلبايكاني، وثلاثة أشخاص من مجمع المدرسين، فبلغ عددهم مجموعاً تسعة أشخاص من فضلاء وأساطين الحوزة العلمية، حيث تقبلوا هذه المسؤولية وشرعوا باصلاح الوضع في جوانب مختلفة، وقد رأينا بحمد الله معالم التوفيق لهذه الشورى المحترمة، وعندما انتهت مهمتهم اقترح عليَّ الاخوة في مجمع المدرسين قبول هذه المسؤولية وقد وافقت على هذا الطلب لأسباب متعددة كما اتّضح فيما سبق (أي أنني كنت راغباً جدّاً في إيجاد تحول وإصلاح في الحوزة العلمية مضافاً أنّ بعض الأصدقاء اشترطوا لدخولهم في هذه الشورى مشاركتي فيها وقبولي لهذه المسؤولية)، ولكنني كنت متردداً فيما إذا كانت هذه المسؤولية الجديدة تتوافق وتنسجم مع أعمالي الكثيرة الفعلية أم لا؟ فاستخرت الله تعالى في الحرم المقدّس للإمام الرضا عليه السلام وكنت في عداد خدّامه الإفتخاريين طبق المقررات المعمول بها لدى مديرية الحرم الشريف) فخرجت الآية الشريفة: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن

سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَباً﴾[١]، فعلمت أنّ هذا الأمر تتخلله صعوبات كبيرة ولكنه يتضمن أيضاً ماء الحياة وفقاً لما ورد في شأن هذه الآية الشريفة، وعلى أيّة حال فقد وافقت على طلبهم واستلمت منصب مدير هذه الشورى في الدورة الثانية والثالثة وبحمد الله توفقنا إلى أداء خدمات كثيرة...».

ويستمر سماحة الاستاذ في بيان فهرست مفصّل عن هذه النشاطات والخدمات «وقد وردت بالتفصيل في مجلة پيام حوزة» فراجع، وفي الختام يقول الاستاذ:

«ومن جملة الأعمال المهمّة التي استطعنا تقديمها في تلك الفترة مسألة تنظيم القانون الأساسي لشورى الحوزة العلمية وقد تمّ امضاؤها من قِبل آية الله العظمى الكلبايكاني وآية الله العظمى الأراكي وقد أقرّها سماحة السيد القائد، وتقرر أن يوافق عليها سائر الأعاظم في الحوزة العلمية في قم حيث أنّها تمثل دعامة قوية من جهة حقوقية وقانونية للحوزة العلمية فلا تكون أموال الحوزة باسم أشخاص معينين بل باسم شخصية حقوقية فقط، ومن هذا الطريق فإنّ الأموال التي ترد إلى الحوزة في الحال الحاضر وفي المستقبل ستكون محفوظة ومصونة من التلاعب، ولا أنسى أنّي قمت بزيارة المرحوم آية الله العظمى الكلبايكاني في أواخر عمره وتحدثنا عن مسائل الحوزة العلمية فرأيته يبكي ويتحرق على مستقبل الحوزة، واكد كثيراً بقاء استقلال الحوزة العلمية (وهذا المعنى قد أكد عليه جميع الأعاظم منهم الإمام الراحل) فقلت له: اطمئنوا إلى ذلك فاننا كأبنائكم نسعى بجدية إلى حفظ هذا الاستقلال وخاصة مع عدم وجود من يخالف في الوقت الحاضر، والحمد الله، وستكون الحالة كذلك في المستقبل بإذن الله».

---

١. سورة الكهف، الآية ٦٢.

٨

البيان الجيد في ظّل الفهم الجيد

إنّ سلاسة بيان الاستاذ وسهولته في بيان المعاني والمفاهيم إلى درجة أنّ بعض الطلّاب في بداية الأمر يشكّون فيما إذا كان هذا الموضوع يتضمّن عمقاً أكثر ولم يؤدّ الاستاذ حقّه في بيان الموضوع.

وأنا بدوري كنت غارقاً في أجواء الترديد في هذا المجال إلى حدّ الوسواس وكنت أسعى إلى مطالعة الموضوع بدقّة والمباحثة فيه مع اخواني الطلّاب في عملية التحقيق في جوانب وأبعاد المسألة، وبعد البحث الكثير وصلنا إلى هذه النتيجة، وهي أنّ حقّ المطلب هو ما ذكره الاستاذ بدون تعقيدات لفظية وابهام في العبارة بل وصل إلى النتيجة بطبعه السيال وفكره الثاقب وبيّنه للطلّاب بسهولة وجذّابية خاصة.

وبما أنّ اللسان والبيان بمثابة المترجم لما يختلج في ذهن الإنسان وفكره فيمكن القول: إنّ هذا البيان الجذّاب والسلس يعكس الفهم السليم والجيد لسماحة الاستاذ، ومن المسلّم أنّ المهم في صياغة البيان السهل هو كيفية الورود والخروج من المسألة والتحليل الصحيح للبحث وما يتضمنه البحث من تفريعات ودقّة في الأُمور الجزئية للموضوع الكلي العام، وبالجملة إراءة معالم الموضوع بكل أبعاده وبما يتضمنه من دقائق وتفاصيل بإمكانها رفع الستار عن محلّ النزاع، والانصاف أنّ الاستاذ في هذا الجانب كان موفقاً جدّاً.

ولا بأس ببيان هذه الحقيقة، وهي أنّ الاستاذ يتحرك في بيانه الدرسي بكامل النشاط ويؤدّي الكلمات بقوّة ومتانة بحيث يخلق جواً من النشاط والانشداد الذهني عندما

يتحدّث بالموضوع العلمي وهو على كرسي التدريس بحيث إنّ الطالب لا يشعر بالكسل والكلل ولا يرى نفسه متخلفاً عن قافلة البحث والدرس بل إنّ كل طالب يجد في نفسه فهماً واضحاً لموضوع الدرس ويعلم بأنّ الآخرين فهموا هذا المطلب مثله.

وهذه الحقيقة كنت أشعر بها مراراً في أثناء درس الاصول لسماحة الاستاذ، وأتذكر أنني في بداية اشتراكي وحضوري في درس الاستاذ تفألت بالقرآن الكريم وخرجت الآية: ﴿وَقَالُواْ الْحَمْدُلِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾[1]، وهكذا كان درس الاستاذ يذهب عنّا الحزن في حلّه للعقد العلمية الدقيقة في هذا الدرس.

وبديهي أنّ التمتع بهذه الخصلة الجيدة بإمكانه أن يؤثر كثيراً في جذب الطلّاب إلى درس الاستاذ في الفقه والاصول (في تلك السنوات التي كان الاستاذ يدرس الأُصول أيضاً، حيث تحوّل درس الاستاذ إلى أكبر درس في الحوزة من حيث عدد المشاركين.

الاعتراف بذنب كبير:

والملفت للنظر أنّ هذه السهولة والسلاسة يمكن مشاهدتها أيضاً في قلمه وكتاباته بدرجة كبيرة، بحيث إنّها تعتبر من خصائص قلمه وتأليفاته، فمن يقرأ كتب الاستاذ يذعن لهذه الحقيقة وهي أنّ المعارف القرآنية العميقة والمفاهيم الدينية السامية تمّ عرضها بشكل جذّاب وشيق وقابل للفهم والهظم، ولهذا تمّ طبع بعض هذه الكتب من تأليفات الاستاذ أكثر من ثلاثين مرّة وكان مورد استقبال الناس من الخاص والعام، هذه الخصوصية قد يتصورها البعض على أساس أنّها تمثل عيباً كبيراً في دائرة التأليف، والاستاذ نفسه يتحدّث في مقدّمة كتابه المعاد عن هذه الخصوصية بعنوان «**الذنب الكبير للكاتب**» ويقول:

«...إن السبب في كل هذا التوفيق (في تأليف الكتب العقائدية للاستاذ من قبيل كتاب «خالق العالم» و«كيف نعرف الله» و«القادة العظام» و«القرآن

---

١. سورة فاطر، الآية ٣٤.

والنبي الخاتم») رعاية أربعة أُصول: اجتناب الاصطلاحات المعقدة، الصدق والاخلاص في بيان الموضوع، الابتعاد عن التعصب، التجديد في المعرفة. ولكن البعض يتصور أنّ هذه السلسلة من التأليفات والكتب تتضمن عيباً كبيراً من شأنه أن يقلل من قيمتها، ولعلكم تتعجبون إذا علمتم بأنّ العيب الكبير في نظرهم هو نفس اجتناب المصطلحات المعقدة والعبارات الغامضة والكلمات المبهمة ورعاية الحدّ الأعلى من السلاسة في التعبير لتقريب فهم الموضوع إلى أذهان الناس بصورة عامة، فهذه الأُمور بحسب نظرهم القاصر تقلل من شأن الكتاب على المستوى العلمي وتهبط به إلى مراتب دانية».

ثم يقول الاستاذ:

«و لا يسعني هنا إلّا الاعتراف بهذا «العيب» أو «الذنب» و أعلم لو تركت العنان لقلمي ليسطر ما يشاء من المصطلحات المعقدة و العبارات المغلقة لبدا البحث لذلك البعض أكثر علمية، لكني ما فعلت ذلك عامداً و أعتقد أنّ هذه هي رسالة الكاتب.

و بالطبع يمكن القول بقوّة أنّه يمكن تعقيد كل بحث من أبحاث هذه السلسلة بحيث يصعب فهمها على أغلب القراء الاعتياديين، فيكتفون بالقول أنّها أبحاث علمية ذات مستوىٰ رفيع لايسعنا إدراكه»[١].

إنّ السبب الذي أدّىٰ إلى أن يُنتخب «**أشباه الفلاسفة**» لسماحة الاستاذ على أساس أنّه (كتاب العام) ويحضى باستقبال كبير بين الناس ويطبع لأكثر من ثلاثين مرّة، هو سهولة التعبير والابتعاد عن الاصطلاحات المعقدة والعبارات الفلسفية الغامضة وتبديلها بعبارات سهلة وميسورة.

---

١. المعاد وعالم الاخرة، ص ١٢.

يقول الاستاذ في مقدّمة هذا الكتاب أيضاً:

«كنت لسنوات عديدة أُفكر وأتأمل في الماركسية والفكر الماركسي، وكنت أُدرك العواقب المعنوية والمادية الخطيرة التي يتضمنها هذا الفكر إلى البشرية والمجتمع البشري، فقمت بمطالعات كثيرة عن مقولات وكتابات هذا الفكر وكنّا نجتمع مع بعض الاخوة ونتذاكر هذا الفكر من موقع التحليل والنقد إلى أنّ صممنا على عرض نتيجة أفكارنا على الناس وكتابة هذه المواضيع، ولذلك تحركنا على مستوى جمع هذه المواضيع في كتاب خاص، ولكن المانع الكبير الذي كان يقف أمامنا هو عدم اطّلاع أغلب الأفراد على الاصطلاحات الفلسفية الجديدة والقديمة ولكننا قمنا بحذف هذه الاصطلاحات أو تبديلها إلى عبارات ومفردات سهلة وميسورة (بدون التقليل من قيمتها الحقيقية)»[١].

دور التدريس:

ومن جملة الأُمور التي تساهم في سلاسة البيان ورفع مستوى قدرة التصميم هو كثرة التمرين والممارسة في إفهام الناس من خلال كرسي التدريس أو منبر التبليغ، فيجب أن يكون الدرس إلى جانب التدريس، والتدريس والتعليم إلى جانب تحصيل الدرس واكتساب العلم، وطبعاً فإنّ من بركات التدريس هو حلّ العُقد البيانية وتحصيل القدرة والملكة على تبيين المسألة إلى المخاطب بسهولة ويُسر، وهنا يتحدّث لنا الاستاذ عن حكاية في مجال شروعه في عملية التدريس وكيفية الاستمرار فيها ويقول:

«عندما ودعت النجف الأشرف وحرم الأئمّة الاطهار عليهم السلام بعين باكية وتركت العراق بكل ما يحفل به من حسنات ومشاكل وأقمت في الحوزة

١. «فيلسوف‌نماها» ص ٢٥، الطبعة الرابعة (بالفارسية).

العلمية في قم كنت أُمارس عملية التدريس إلى جانب الاستفادة من درس الاساتيذ العظام في هذه الحوزة، وطبعاً لم يكن تدريس العلوم الدينية أمراً جديداً عليَّ حيث شرعت في ذلك منذ السادسة عشرة من عمري حينما كنت في حوزة شيراز، وعندما أتيت إلى قم شرعت بتشكيل درس في الحوزة أيضاً، وكذلك في النجف أيضاً كنت أُمارس التدريس، وأعتقد أنّ التدريس واجب كتحصيل الدرس، فالإنسان حين التدريس يقف على بعض الأُمور وتنفتح له بعض المسائل المغلقة التي لم يكن يقف عليها أثناء تلقي الدرس، وعند التدريس يشعر الإنسان بمسؤولية أكثر وأنّه ما لم يفهم الموضوع بصورة جيدة ودقيقة لا ينبغي له طرحه على الآخرين من موقع التدريس.

لقد ازداد رونق أبحاثي ودروسي يوماً بعد آخر بسبب معرفتي التدريجية وزيادة تجربتي في فن التدريس الذي يعتبر فناً ظريفاً ودقيقاً جدّاً، فعندما كنت أُدرس الرسائل والمكاسب والكفاية كنت أرى مجموعة من الطلاب الأذكياء والمستعدين يحيطونني ويجلسون على مقربة منّي، وأنا بدوري أُوصي جميع الطلّاب والفضلاء أن لا يهملوا عملية التدريس إلى آخر عمرهم حتى لو كان ذلك لطالب واحد».

ثم يشير الأستاذ إلى بداية تدريسه لبحوث الخارج ويقول:

« لعل البداية كانت قبل أربعين سنة حين فكرت بتدريس البحث الخارج وشرعت بتدريس الاصول ثم البحث الخارج في الفقه وكنت أعيش العلاقة الشديدة بالتدريس وأشعر بلذة كبيرة من تدريس الطلّاب وكان التعب يزول عني تماماً وأنا الآن أشعر بهذا الشعور أيضاً...».

وفي الختام يشير الاستاذ إلى دور التدريس المهم في عملية النهضة العلمية للطلّاب ويؤكد مرّة ثانية لطلّاب الحوزة العلمية الأعزاء على هذه الحقيقة ويقول:

«مرّة أُخرى أُوصي الطلّاب الأعزاء أن يغتنموا هذه السنّة الشريفة في الحوزة العلمية، وعلى الأشخاص الذين يتلقّون الدروس العالية أن يهتموا بتدريس الكتب في المراحل الدانية، وليكن معلوماً لديهم كما أنّ الطلّاب ينتفعون من بيانهم ووجودهم فانّهم بدورهم ينتفعون من وجود الطلّاب في حلقات دروسهم، ولعل التدريس ينفع الاستاذ أكثر من الطالب، فالتدريس يجبر الإنسان على التحقيق في جوانب المسألة أكثر ويهتم بمعرفة غوامض المسألة، ومضافاً إلى فهم المسألة ستكون لديه القدرة على تفهيمها، وبكلمة واحدة: إنّ العالم الذي لا يمارس التدريس فإنّه يبتلىٰ بالنقص في معلوماته».

لماذ قمنا بتأليف التفسير الأمثل؟

وينطلق قلم الاستاذ في مجال التأليف والتحقيق سلساً وجذّاباً كما هو الحال في بيان الاستاذ الجذّاب في التدريس، فكان قلمه نشطاً وفعّالاً في كافة المجالات العلمية، وأساساً فانّ الباعث المهم على تأليف كتابه القيم «**التفسير الأمثل**» هو إراءة تفسير سهل وميسور وبعيد عن التعقيدات والابهام، وفي نفس الوقت تفسير جيد وشامل، وفي هذا الصدد يقول الاستاذ:

«لا بأس بأن أذكر لكم الباعث على تأليف (التفسير الأمثل)، فانّ الكثير من طلّاب الجامعات والشباب المثقفين كانوا يأتون إلينا ويطلبون تفسيراً باللغة الفارسية خالياً من التعقيدات في البيان، ففكرت بأن أذكر لهم بعض التفاسير المتداولة، ولكنني كنت أرى بأنّها لا تحلّ لهم أيّة مشكلة، ومن الطبيعي أنّ الإنسان عندما يجد طلباً من الناس ويرى أنّ مشكلتهم لا تنحل بما هو موجود من التفاسير والكتب فإنّه سيشعر بالمسؤولية الثقيلة على

عاتقه وأنّه يجب عليه أن يعزم الهمة ويقدم على التأليف في هذا المجال، ومن هنا فكرت بكتابة تفسير يحوي دقائق الأُمور التفسيرية للآيات الكريمة وفي نفس الوقت يكون سهلاً ميسوراً ويتضمن كذلك بيان الحلول التي يعيشها الناس في العصر الحاضر... وأملنا أن يكون هناك تفسير شامل ينفع العلماء الفضلاء وكذلك عامة الناس لا سيّما الشباب الأعزاء وشريحة طلاب الجامعات، مع العلم بأنّ الجمع بين هذه الأُمور ليس بالأمر السهل بل يحتاج إلى توفيق إلهي خاص، فكان أن انتهينا من هذا العمل بحمد الله، ولذلك فانّ أغلب الأشخاص الذين يتحدثون معنا في هذا المجال يقولون: إنّ الغاية قد تحققت في هذا التفسير».

الامتداد الواسع للتفسير الأمثل في نشر ثقافة القرآن:

ثم أشار الاستاذ إلى النفوذ والامتداد الواسع والتأثير العميق للتفسير الأمثل في نشر الثقافة القرآنية والمعارف الإسلامية وقال:

«وهنا أذكر جملة قصيرة في هذا المجال، فقد جاءني أحد الاخوة وذكر لي أنّ پروفسوراً يدرس في جامعة كندا المعارف الإسلامية قال: (إنّ المنبع الأصلي لمعلوماتي في تدريس المعارف الإسلامية في تلك الجامعة هو التفسير الأمثل)، ونقل لي المرحوم حجة الإسلام الحاج السيد صفدر الحسيني النجفي الباكستاني الذي كان رجلاً مخلصاً ونشيطاً وقد ترجم جميع أجزاء التفسير الأمثل إلى اللغة الاوردية، بأنّ أحد العلماء من أهل السنّة الناطقين بالاوردو قال: (أنا لم اطالع كتب علماء الشيعة، ولكن وقع بيدي الجزء الأول من التفسير الأمثل باللغة الاوردية فقرأته وثبت لي أنّ العلوم الإسلامية هي عند الشيعة».

٩

خلق الاعتماد لدى الاستاذ

إنّ من جملة الأُمور التي تلعب دوراً أساسياً (ولعله من أهم الأُمور) في تكوين شخصية الطالب ورجل الدين بشكل عام هو السعي لنيل اعتماد الاستاذ وبالتالي كسب محبّته وعطفه الأبوي، بيد أنّ أجواء المحافل الدراسية في الحوزات التعليمية سواء على مستوى الجامعات أوالحوزة مليء بمعالم الحسد وأشكال التنافس السلبي بين الأفراد ممّا يؤدّي إلى تزريق روحية اليأس والشعور بالتخلّف عن القافلة في نفسية الطالب وبالتالي ينتج أنواع الكآبة والكسل الفكري.

وأهم عامل بإمكانه القضاء على هذه الأُمور السلبية ويبعث في الإنسان روح الأمل والتقدم العلمي هو تشويق الاستاذ ونفخه روح الاعتماد على الذات وقوّة الشخصية لدى الطالب، إنّ أذكى طالب إذا لم يتحرك في دراسته في أجواء سليمة وحول محور الاستاذ المبدع والمتخلّق بالأخلاق الإسلامية، وما لم يتخلص من عنصر (الأنانية) والتحرر المطلق من أجواء الدرس والتربية الأخلاقية فانّ ذلك من شأنه أن يجر الطالب إلى منزلقات خطيرة وطموحات وهمية وادّعاءات عجيبة وغريبة.

القليل من الأشخاص الذين يعيشون الحرمان من عطف الاساتذة وبتعبير آخر لم يتربوا في أجواء نورانية على يد معلمين ربانيين، ومع ذلك لم يواجهوا مشاكل فكرية ونفسية وحركة الحياة والواقع الاجتماعي.

آية الله الاصطهباناتي وكاشف الغطاء:

وعلى أيّة حال فانّ الموهبة الأُخرى التي كان يعيشها سماحة الاستاذ هو أنّه كان منذ بداية شبابه مورداً لألطاف أساتذته وتشويقهم، والشاهد على ذلك ما تقدّم من حكاية في الفصل الثاني «**النبوغ والقابلية الذاتية**» تحت عنوان «**درجة الاجتهاد**» ونجد من المناسب إعادة هذه الحكاية:

«بعد مجيئي إلى النجف الأشرف ومن خلال مشاركتي بحوث الخارج للاساتذة الكبار في حوزة النجف وطرح أسئلة متعددة أصبحت يشار إليّ بالبنان واهتم الاساتذة والعلماء بي ومنحوني حبّهم ورعايتهم بحيث أنني استطعت أن أحصل على إجازة الاجتهاد في سن الرابعة والعشرين من عمري من مرجعين كبيرين في ذلك الوقت: أحدهما: آية الله العظمى الاصطهباناتي الذي يعد من المراجع الكبار ويعتبر شيخ الفقهاء في ذلك الوقت، وقد بذل لي رعايته ولطفه كثيراً ولذلك كتب لي الاجازة بالاجتهاد الكامل، والآخر آية الله العظمى الحاج الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، وبما أنّه لم يكن على اطلاع بحالي وتحصيلي الدراسي طلب أن يمتحنني، فقبلت ذلك، فطلب مني أن أكتب له رسالة في مسألة: «هل أنّ التيمم مبيح للصلاة أو رافع للحدث؟» فكتبت له رسالة مفصّلة في هذا الموضوع وعرضتها عليه، ومضافاً إلى ذلك أجرى لي الشيخ كاشف الغطاء امتحاناً شفوياً أيضاً وسألني عن أعقد مسألة من مسائل العلم الإجمالي، فعندما أجبته عنها كتب لي إجازة الاجتهاد ومنحني كل الحبّ والرعاية».

آية الله حجّت رحمه الله:

والحكاية الأُخرى تتضمن تشويق آية الله العظمى حجّت رحمه الله حيث يحدّثنا الاستاذ عن ذلك بقوله:

«ومرّة أُخرى كنت حاضراً في درس المرحوم آية الله العظمى حجّت رحمه الله فكان أن طرح سؤالاً وفقاً للمنهج الذي يسير عليه، وقال: كل من أتاني بجواب هذا السؤال فسوف أُعطيه جائزة بعد الدرس توجّهت إلى المكتبة وبقيت مدّة أبحث فيها عن الجواب حتى عثرت عليه وقدمته للاستاذ، وبعد فترة وجيزة من ذلك تقدّم طالب آخر بذلك الجواب إلى الاستاذ فقال له: لقد سبقك إلى هذا الجواب شخص آخر. وبعدها أعطاني مائة تومان حيث كان يعدّ في ذلك الوقت مبلغاً كبيراً (لأنّ الحقوق الشهرية لبعض الطلاب لم تكن تتجاوز ثلاث تومانات في الشهر) بعنوان جائزة تشويقية».

التواضع الكبير وروحية التشويق لدى آية الله العظمى الميرزا هاشم الآملي[1]:

لا شك أنّ هذا التشويق يبلغ الذروة لدى الإنسان ويتضاعف تأثيره عندما يحظى الإنسان بأستاذ يتمتع بروح قبول الإشكال ويتعامل مع الطلاب من موقع الاهتمام بأسئلتهم

---

١. ولد آية الله العظمى الميرزا هاشم الآملي في سنة ١٣٢٢ هـ ق في لاريجان آمل، درس المقدّمات في آمل في سنة ١٣٥٥ هـ ق، هاجر إلى طهران وعمره ثلاث عشرة سنة وسكن مدرسة العالي الشهيد المطهّري (مدرسة عالى سپهسالار) لمدّة عشر سنوات.
ثم هاجر إلى الحوزة العلمية في قم لتكميل دراسته في سنة ١٣٤٥ هـ ق واستفاد من الاساتذة المعروفين والبارزين أمثال الآيات العظام، حائري اليزدي، وحجّت وشاه آبادى.
في سنة ١٣٥١ هق وبعد أن حصل على درجة الاجتهاد من آيات الله الحائري واليزدي وحجّت، توجه إلى النجف للتتلمذ على يد اساتذتها العظام، وحضر درس خارج ميرزا حسين النائيني، الحاج ضياءالدين العراقي، والحاج السيد أبو الحسن الاصفهاني، وكان في نفس الوقت يدرّس هذه العلوم لتلاميذه.
وبعد أن مكث في النجف الاشرف ٣٠ عاماً في الدرس والبحث، عاد إلى ايران سنة ١٣٨١، وبقي في قم مشتغلاً بالدرس والتحقيق وتربية الطلّاب والفضلاء إلى يوم وفاته حيث رفد المجتمع الإسلامي بالكثير من العلماء والفضلاء، وكان في أخلاقه متواضعاً وطيباً وأنيساً في مجلسه ويراعي العدل والانصاف في محاوراته.
وأخيراً ودّع الدنيا في الرابع من رمضان ١٤١٣ هـ وشيع جثمانه الطاهر في قم وسط أجواء الحزن والأسف لدى الناس كافة ودفن في الحرم المطهر للسيدة المعصومة. (نامداران راحل، ص ٣٩٥ ـ ٤٠٠ بتلخيص).

وإشكالاتهم ولا يرى ذلك منافياً لشؤون الاستاذ، ومن حسن الحظ أنّ بعض استاتذة سماحة الاستاذ كانوا يتمتعون بهذه الملكة النورانية، حيث يحدّثنا الاستاذ عنهم بقوله:

«لقد جذبتني أخلاق المرحوم آية الله العظمى الميرزا هاشم الآملي إلى الحضور في حلقة درسه... إنّ آية الله العظمى الآملي مضافاً إلى امتلاكه صفة التواضع الشديد فإنّه كان يتعامل مع الطالب بروح التشويق والتقدير، وكان محيطاً بعلوم اساتذته مثل آية الله آقا ضياءالدين العراقي، الذي كان طلّابه في ذلك الزمان في حوزة النجف أفراداً قلائل ولكنهم من الفضلاء، وكان يتمتع بانصاف عجيب في درسه بحيث إنني لم أُشاهد أحداً مثله في هذه الخصوصية، فلو تقدم الطالب بإشكال عليه وكان الإشكال وارداً فانّ الاستاذ لم يكتف بقبوله فحسب بل يتحرك على مستوى شرحه وتقويته بصورة كافية وينطلق من موقع الدفاع عنه وبالتالي قبول رأى الطالب».

تشويق آية الله العظمى البروجردي رحمه الله وكتاب (تجلي الحق):

وبالنسبة إلى تشويق المرحوم آية الله العظمى السيد البروجردي رحمه الله ولطفه لسماحة الاستاذ يحدّثنا الاستاذ بقوله:

«عندما تمّ طبع كتاب «تجلي الحق» وهو أول كتاب من كتبي قدّمت نسخة منه إلى آية الله العظمى البروجردي رحمه الله وبعد مدّة أرسل إليَّ يستدعيني فذهبت إليه، فقال: أنا أشكو من ألم في رِجلي ولم أحضر الدرس لعدّة أيّام فكانت لي فرصة أكثر للمطالعة، ووقعت عيني على كتابك، فقرأت عنوانه «تجلي الحق» وهو يستخدم كثيراً في كلمات المتصوفة، وكان ذلك سبباً في تحرك حس الفضول فيَّ، فتناولت كتابك فقرأته من أوله إلى آخره (وتعجبت كثيراً من روحية هذا الرجل الكبير كيف يقرأ كتاب طالب شاب من أوله إلى

آخره، وهذا يكون عبرة لأمثالي في حين أنّ السيد كان يتمتع بمقام المرجعية والزعامة العامة للشيعة)، ثم قال: أنا لم أعثر على أي مورد سلبي في هذا الكتاب، وقال: (إنني أحسست أنّ الكاتب أراد بيان بعض الحقائق عن طائفة الصوفية دون أن يريد التظاهر أو يجمع المريدين حوله) فكانت هذه الكلمات من هذا السيد الجليل قد بعثت في نفسي روح الاعتماد على الله في مسألة الكتابة، ومن هنا أدركت جيداً مدى تأثير تشويق الاساتذة وخاصة الكبار منهم».

يا ناصر: سوف تنتفع من بركاتنا

وهذه الحقيقة بلغت أوج النضج والنورانية عندما نجد أنّ الطالب بغض النظر عن تشويق أساتذته، يقع مورداً لتفقد وتشويق الاستاذ الحقيقي وإمام الاساتيذ أي الإمام المعصوم حين يراه الطالب في عالم الرؤيا الرحمانية ويحصل على البشارة من قِبل الإمام المعصوم (سلام الله عليه) حيث يخاطبه بقوله: «**يا ناصر: سوف تنتفع من بركاتنا**».

ولنستمع إلى هذه القصة من لسان أحد اساتذتنا وهو الاستاذ المرحوم حجّة الإسلام والمسلمين قدوة، حيث قال:

«لقد وجدت سماحة الشيخ مكارم مستبشراً وترتسم على محياه معالم السرور عندما دخل مجلس الدرس، فسألته عن السبب، فامتنع عن الجواب ولكن مع اصراري أجابني أنّه كان قد رأى ليلة البارحة الإمام صاحب الزمان (سلام الله عليه) في عالم الرؤيا فقال لي: «يا ناصر: سوف تنتفع من بركاتنا»[١].

---

١. سمع هذه القصة حجّة الإسلام والمسلمين موحّد الشيرازي (ابن آية الله موحّد رحمه الله استاذ استاذنا) بلا واسطة عن المرحوم (حجّة الإسلام والمسلمين قدوة).

اهتمام وتشويق الإمام الراحل رحمه الله:

نختم هذا الفصل بذكر أشكال التشويق والاهتمام الذي كان يبذله الإمام الراحل قدس سره لسماحة الاستاذ، ويحدّثنا الاستاذ نفسه عن ذلك بقوله:

«إنني بالرغم من عدم التوفيق لحضور درس الإمام الراحل قدس سره لأكثر من يوم واحد، ولعل ذلك كان بسبب أنّ درس الإمام كان قد ازدهر واشتدّ في الحوزة العلمية في وقت لم أكن فيه أدرس عند أحد إلّا قليلاً بل كنت أُمارس عملية التدريس غالباً، وعلى أيّة حال كنت ذا علاقة وارتباط كامل بأفكاره من خلال تقريراته وكتبه فكنت مطلعاً على آرائه الفقهية والأُصولية وكنت أكن له احتراماً كبيراً وطالما توجهت لزيارته فكان يبذل لي مزيد المحبّة والاحترام ولا أنسى أنني كنت قد امتنعت لأسباب معينة عن الذهاب إلى مجمع المدرسين في الحوزة العلمية. فأمر الإمام الراحل أحد الأشخاص من أرحامه الذي كان عضواً في المجمع المذكور وقال له: إذهب إلى فلان وقل له أن يرجع إلى مجمع المدرسين، فجاءني ذلك الشخص وبلّغني الرسالة وعدت على أثرها إلى المجمع، وكان ولده المرحوم السيد أحمد الخميني حاضراً في جلسة لبعض الأفاضل وقال لي: إنّ رسائلك التي تبعثها إلى الإمام في مناسبات مختلفة يقرأها الإمام كاملاً (لأنني كنت قد ذكرت في رسائلي أنني لا أعلم ما إذا كان الإمام يقرأ هذه الرسائل أم لا) فقال لي: إنّها تصل إلى الإمام ويقرأها ويكّن احتراماً خاصاً بالنسبة لكم».

وينقل الاستاذ في هذا المجال حادثة جميلة أُخرى عن مجلس الخبراء للقانون الأساسي ويقول:

«كنت في قسم البحوث في مجلس القانون الاساسي وكنت مع عدّة أشخاص من علماء الشيعة وأهل السنّة والمذاهب الأُخرى، فعندما طرحت

مسألة الاعتراف بالمذهب الشيعي، وهو مذهب الأغلبية بالنسبة إلى الشعب الايراني على بساط البحث في مجلس الخبراء ودافعت عن هذه الاطروحة، قام أحد الاخوة من أهل السنة (السيد مولوي عبدالعزيز) وخلافاً للمتوقع منه وأظهر مخالفته لمقولتي بعد أن انتهيت من تقرير رأيي، وأنا بدوري أجبته ببيان منطقي وأوضحت له أنّ المفروض في كل دولة أن تكون القوانين فيها تابعة لمذهب معين ولا يمكن أن تكون على رأي مذهبين أو ثلاثة في الأحكام العامة، وبالطبع فإنّ سائر المذاهب ينبغي أن تكون محترمة ويتمتع أتباعها بجميع حقوق المواطنة، ولكن تعدد القوانين الحاكمة في الدولة غير ممكن، فالجميع أحرار فيما يتعلق بشؤونهم الخاصة (من قبيل الزواج والطلاق التي تسمى بالأحوال الشخصية) ولكن في الأحوال العامة يجب اتباع قانون واحد، وبعد أن ذهبت لزيارة الإمام قال لي: (لقد رأيت وسمعت دفاعك في المجلس من خلال التلفزيون وسررت بذلك كثيراً وقد كان دفاعاً جيداً ومنطقياً وقد أدّيت المسألة حقّها».

١٠

العلم بمقتضيات الزمان والتحرك معها

إنّ من الصعوبة بمكان للمحقق الذي يبحث مواضيع علمية دقيقة في مجال التراث الثقافي والديني الواسع، أن يهتم في نفس الوقت بآخر التطورات العلمية والكشوفات التجريبية وتكون له في هذا المجال مطالعات منظمة ومنسجمة ويهتم كذلك بكتابة آخر الكشوفات العلمية الجديدة ويتحرك وفقاً لمعطياتها المعاصرة.

إنّ ما يظهر من كلمات سماحة الاستاذ وخطبه في المجالس العلميةوالأخلاقية في السابق والحاضر وكذلك ما كتبه من مقالات سياسية واجتماعية في الصحف والمجلات «التي استمرت منذ زمان ما قبل الثورة إلى سنوات متأخرة» هذه الحقيقة، وهي أنّ سماحته يتمتع بشخصية فذة يجمع بين العلوم المختلفة القديمةوالجديدة، فهو ابن اليوم ويساير حركة العلم والثقافة في هذا العصر.

هذه الحقيقة أضفت جواً منفتحاً علىٰ أفكار سماحة الاستاذ وبعثت على الحركية والدينامية في أفكاره ونظراته التي فعّلت من عناصر الهداية الفكرية للأُمة.

وهذا هو السبب في ما نجده من اقتران بحوثه العلمية بحقائق ملموسة ومحسوسة من العلوم التجريبية والكشوفات العلمية المعاصرة.

النموذج الأول:

وعلى سبيل المثال نقرأ في كتاب «**المعاد**» لسماحة الاستاذ فيما يتعلق بقصّة أصحاب

الكهف وإمكانية النوم سنوات عديدة:

«نشرت في احدى مجلات علمية مقالة تتحدث عن اكتشاف علمي وهو كتاب طبع في السنوات الأخيرة يتحدّث عن تجميد بدن الإنسان لإبقائه فترة أطول في قيد الحياة بقلم «رابرت نيلسون»، وكانت له أصداء واسعة في الاوساط العلمية، وصرّحت تلك المقالة في المجلة المذكورة بوجود فرع علمي تمّ استحداثه أخيراً في العلوم الطبيعية بهذا العنوان، حيث نقرأ في هذه المقالة: «لقد كان الخلود يمثّل، طيلة التاريخ البشري، أملاً بعيداً وحُلماً ذهبياً للإنسان، ولكننا الآن نرى أنّ هذا الحلم قد تحقق على أرض الواقع، وهذا الأمر مدين للتقدم العلمي المذهل في علم «كريونيك» وهو العلم الذي يذهب بالإنسان إلى العصر الثلجي ويعمل على الاحتفاظ ببدنه منجمداً بأمل أن يتمكن العلماء فيما بعد من بعث الحياة فيه من جديد»، فهل يمكن تصديق هذه المقولة؟

إنّ الكثير من العلماء من الطراز الأول يفكرون في هذه المسألة من جهات أُخرى وقد بحثت بعض الصحف مثل «لايف» و«اسكواير» وكذلك الصحف الأُخرى في بلدان العالم هذا الموضوع المهم، وأهم من ذلك وجود برنامج حي في هذا المجال بقيد التجربة.»[1].

«و قد صرّح في مقالة وردت في المجلة المذكورة بهذا الخصوص أنّ فرعاً علمياً من بين الفروع قد ظهر بهذا الشأن، و جاء في المقالة المذكورة: «إنّ الحياة الخالدة كانت من الأحلام الذهبية و العريقة للإنسان على مدى التاريخ، أمّا الآن فقد أصبح هذا الحلم حقيقة، يدين بالفضل للتطور الهائل الذي حققه العلم المعاصر الذي يعرف بعلم الكريونيك (العلم الذي يصحب

١. مجلة (المفكرون) (دانشمندان)، بهمن ٤٧، ص ٤ (بالفارسية).

الإنسان إلىٰ العوالم المنجمدة و يحفظه كبدن منجمد على أمل أن يعيده العلماء يوماً إلىٰ حياته).

هل يعقل هذا المنطق؟ إنّ أغلب العلماء و المفكرين البارزين يفكرون في هذه المسألة من عدّة جوانب، و قد خاضت فيه بعض الصحف العالمية، والأهم من كذلك أنّ هناك برنامجاً الآن بهذا الخصوص في حيز التنفيذ».[١]

و قد أعلنت الصحف قبل مدّة أنّه ثم العثور في الثلوج القطبية و التي تدّل أغطيتها على أنّها تعود إلى ما قبل آلاف السنين على سمكة منجمدة وبمجرّد أن قذفت في ماء معتدل بدأت حياتها من جديد وقد أصابت الجميع بالذهول لما شرعت بالحركة.

واضح أنّ الاجهزة حتى في حال الانجماد لا تتوقف كما هي عليه الحال في الموت، لأنّ العودة إلىٰ الحياة في تلك الحالة ليست ممكنة.

و الذي نخلص إليه ممّا مرّ معنا هو إمكانية إيقاف الحياة و شل حركتها لتتحرك ببطىء تام، و الدليل على ذلك مختلف الدراسات و الأبحاث العلمية الواردة بهذا الشأن. و في هذه الحالة يبلغ إستهلاك البدن للطعام الصفر، يمكن للاحتياطي الزهيد المخزون في البدن أيديم الحياة بهذا البطىء لسنوات عديدة»[٢].

وبعد أن ذكر الاستاذ مثل هذه النماذج العلمية استعرض البحث القرآني المتعلق بهذه المسألة وكتب يقول:

«قطعاً نوم أصحاب الكهف لم يكن نوماً عادياً طبيعياً علىٰ غرار نومنا، بل كان نوماً إستثنائياً، و عليه فليس من العجيب ألا يشكو من قضية الطعام ولا من الضرر علىٰ مستوى عضوية البدن بسبب ذلك النوم الطويل!»[٣].

---

١. مجلة العالم، العدد ٤٧، ص ٤.
٢. المعاد وعالم الاخرة، ص ١١٣ – ١١٤.
٣. المعاد وعالم الاخرة، ص ١١٤.

النموذج الثاني:

ويذكر سماحة الاستاذ في مقدّمة كتابه «**الحياة في ظلّ الأخلاق**» نموذجاً آخر من هـذا القبيل ويقول:

«ماذا نبحث في هذا الكتاب؟ إنّ ما تواجهه البشرية من أزمـة وطـريق مسدود، صراع المعذَّبين والبائسين، الحروب الدامية، كثرة الجرائم وازدياد ارتباك العلاقات العائلية ووهنها وضعف وشائج الودّ والمحبّة بين الأفراد و.. كل ذلك شاهد صادق على هذه الحقيقة، وهي أنّ القوانـين المـتداولة فـي العالم المعاصر بالرغم من بذل الجهود ظاهراً لاصـلاحها وتـحسينها فـانّها ليس فقط لم تثمر في تحسين حياة الناس في حركة الواقع الاجتماعي بـل أدّت إلى زوال الأمل بمستقبل أفضل للبشرية، ولا نعلم إلى متى ينبغي علينا أن نجرّب هذه القوانين البائسة؟ هؤلاء لا يستطيعون أن يتحركوا من أجـل حماية أوليائهم فكيف بحماية الآخرين؟ هذه القوانين بمثابة أبار عميقة تصل أحياناً إلى الصخور الكبيرة تحت الأرض، وكلما سعينا لشق وتحطيم تـلك الصخور والتوغل في أعماقها فاننا سنعيش حالة التعب الشديد دون أن نصل إلى الماء، وعلى هذا الأساس يجب علينا البحث عن مصدر المشكلة ونرى أين يكمن العيب؟ وبعد تشخيص الخلل نتحرك صوب إيـجاد الحـل لهـذا المشكل، ففي المرحلة الأُولى نواجه هذه الحقيقة، وهي أنّ هـذه القـوانـين تمثل أدوية للاستعمال الخارجـي فـقط فـليس لهـا تأثـير إلّا فـي الظـاهر والسطح، إنّ هذه القوانين لم تتمكن من النفوذ إلى أعماق الوجدان البشري الذي يعتبر منبع حركات الإنسان وسعيه في خط الصلاح والسعادة، وبالتالي لم تتمكن من تعبئة جميع طاقات الإنسان وتفعيلها لمكافحة هذه المشاكـل وعلاج تلك الآلام والأزمات»[١].

---

١. «زندگی در پرتو اخلاق»، ص ٥ ـ ٦ (بالفارسية).

ويتحدث الاستاذ في كلماته هذه ويذكر لنا عدّة أمثلة تعكس اطلاعه الواسع في مجال العلوم العامة بحيث يقول:

«أي قانون يتمكن «مثلاً» أن يضغط على تلك الفئة من أثرياء العالم الذين يوصون بجميع ثروتهم بعد وفاتهم إلى كلابهم وقططهم، وإيجاد وسائل الرفاهية في قرية القطط للأثرياء، ويعيد إليهم عقلهم وعاطفتهم الإنسانية ويدعوهم إلى دعم ملايين الجياع في أفريقا؟

أيّ قانون بإمكانه نفخ روح حبّ الآخرين في وجدان الأشخاص الذين يملكون قِطع ألماس تبلغ قيمة الواحدة أربعة عشر مليون توماناً، أو يملكون ألبوم للطوابع البريدية تبلغ قيمتها عدّة ملايين، أو نرى في غرفة الاستقبال بعض التزيينات والآثار الغالية جدّاً، ويدعوهم بالتالي بدل ذلك إلى إنقاذ ملايين الأشخاص الذين يعانون من مرض الجذام والسرطان والسل؟...»[١].

لا شك في أنّ هذا النوع من البحوث التي يمتزج فيها الموضوع العقائدي مع هذا القبيل من الأمثلة يتمتع بجاذبية خاصة لدى جميع القراء.

إنّ الخصوصية المذكورة أدّت إلى أن ينفذ الاستاذ إلى أعماق روح الناس وأذهانهم وخاصة الشباب، ويكشف عن أشكال القلق والاضطراب فيهم ويهتم بإيجاد الحلول للشبهات والأسئلة المختلفة لديهم ومعالجة أزماتهم التي تعصف بكيانهم.

النموذج الثالث:

ويستعرض سماحة الاستاذ في مقدّمة كتابه «**البحث عن الله**» نموذجاً آخر ويقول:

«في عالمنا المعاصر نرى شيوع أشكال القلق الخفي والاضطراب الروحي بين جميع أفراد البشر إلّا ما ندر، وعلى الرغم من جودة الظاهر يعيش

---

١. «زندگی در پرتو اخلاق»، ص ٦ ـ ٧ (بالفارسية).

الإنسان نوعاً من الإرتباك الروحي والجفاف العاطفي، وهذا الاضطراب والقلق المبهم، وأحياناً من دون أن يعلم له الإنسان علّة معينة، يكاد يعصف بروح الإنسان كالطوفان الموحش ويمزقه تمزيقاً.

الكثير من الناس الذين يعيشون بين أصدقائهم واخوانهم يشعرون بالوحدة والوحشة تقض مضاجعهم وتلهب أرواحهم، ويتصورون أن لا يوجد أحد يدركهم ويفهم ما يختلج في أعماق وجودهم وكأنّهم موجودات زائدة في العالم المضطرب وقد تحوّلت حياتهم إلى العدمية واللاهدفية، فيجد الشخص في نفسه العطش والفراغ من ذاته ومن الآخرين لشعوره بالكراهية والمقت، ولهذا فهو يعيش اللامبالاة والتشاؤم أمام كل حادثة.

وينبغي القول بكل ثقة إنّ جميع هذه الظواهر الروحية هي نتيجة حقيقة مهمّة وكبيرة قد أهملها الإنسان في مطاوي النسيان، ولهذا يعيش الحيرة في حركة الحياة، ولعله يتصور أنّ هذه الحقيقة قد أصبحت قديمة أو لا حاجة له بها، ولا ضرورة للاهتمام بها في أجواء الفكر والعواطف والعلاقات الاجتماعية، ولذلك تركها الإنسان في زواية النسيان، هذه الحقيقة المهمّة هي «الله» تعالى، خالق عالم الوجود، ومُبدىء المخلوقات والكائنات في العالم، والحاكم المقتدر على جميع قوانين الطبيعة وما وراء الطبيعة.

أجل عندما يعيش الإنسان حالة النسيان والاهمال لهذه الحقيقة فهو في الواقع يعيش بلا أمل معين وبلا رؤية مستقبلية واضحة في حياته وبالتالي يعيش النسيان لذاته ولكل شيء... الكثير من الشخصيات العالمية يعترفون بأنّهم أمضوا فترة عويصة من حياتهم مليئة بالاضطراب والقلق والحيرة، ولكن عندما وصلوا إلى منهل الإيمان بالله واغترفوا من ماء الحياة لهذا الغدير الزلال عاشوا حياة جديدة وكأنّهم ولدوا من جديد... وقد نالوا اقتداراً

ونشاطاً في حركة الحياة لاعتمادهم على مبدأ القدرة الازلية التي تحوّل كل صعب أمامهم إلى سهل وميسور، فكانوا يتحركون في حياتهم الجديدة بخطوات ثابتة وبأُفق واضح وأمل فيّاض، وعندما يواجهون تحديات صعبة في واقع الحياة والمجتمع فانّهم يلجأون إلى بارئهم ويختلون به لمناجاته وطلب المعونة منه حيث يدركون أنّ خالقهم يعلم بآلامهم وبدائهم ودوائهم أفضل من الجميع، فيتّجهون إلى من هو أرحم بهم من أي مخلوق وأقرب إلى نفوسهم من أي صديق، ولذلك يجدون في أنفسهم الشوق العظيم إلى الاعتراف أمامه بكل ما يحزنهم ويهمهم بكامل الحرية وبدون يأس من الاستجابة لهم ويخففون بذلك عن أثقالهم ويعود إليهم نشاطهم وحيويتهم... ألا ينبغي لنا الاعتراف بأنّ مسألة التفكير بالله والسعي لمعرفته تمثل أهم مسألة في حياة الإنسان والبشر وتمثّل أساساً التغلّب علىٰ المشاكل التي تعصف بالبشرية طيلة التاريخ البشري وخاصة في عصرنا الحاضر»[١].

النموذج الرابع: التفكير في آفاق واسعة

إنّ تناغم حركة الاستاذ الفكرية مع مقتضيات الزمان أدّت علىٰ التعرف أكثر إلى خطط الأعداء والمستعمرين وفضح نواياهم، وبذلك نرى أنّ الاستاذ كان يتوقع منهم هذه المخططات والأساليب العدوانية، وعلى سبيل المثال يقول سماحته في كتاب «**نهاية عمر الماركسية**» الذي طبع قبل عدّة سنوات من انتصار الثورة الإسلامية:

«وبهذا التحقيق نصل في النهاية إلى هذه الحقيقة، وهي: أنّ الماركسية مذهب يطوي مرحلة الشباب والنضج ويتجاوزها إلى حيث منزلقات الأُفول

١. البحث عن الله، ص ٤ ـ ٧.

والذبول فليس ببعيد أن يتوقف هذا المذهب عن الفعّالية ويختم حياته بذلك»[١].

النموذج الخامس:

ويتحدث سماحة الاستاذ في مقدّمة كتابه «**الخطوط الأصلية للاقتصاد الإسلامي**» بعد بيان خصوصيات الاستعمار الثلاث: (١ ـ تجميد الأفكار؛ ٢ ـ خلق الإرتباط والتبعية؛ ٣ ـ إيجاد عوامل النفاق)، فبالنسبة إلى الخصوصية الأُولى يقول:

«إنّ «المخ» هو أول طعام يسيل له لعاب «أفعى الضحاك الاستعمارية»[٢] وخاصة عقول الشباب والأحداث! وهو ما تقوم به دائماً وكل يوم.

و على هذا الأساس فأيما حديث تسمعونه عن تخدير العقول وعن قضايا ترتبط بشكل مباشر أو غير مباشر بتعطيل العقول المفكرة والواعية وغسل الأدمغة، فاعلموا أنّ وراء ذلك الاستعمار خفية أو علانية.

فإنّ أولى المهمات التي يقوم بها الاستعمار لتنفيذ خططه، قتل «الفكر» و«العقيدة» ويكون تنفيذ هذه المهمة إمّا عن طريق تفريغ الثقافة الاجتماعية من محتواها، وإمّا من خلال جذب الأنظار نحو مسائل هامشية والابتعاد بالمجتمع عن أصل الحياة الحقيقية، وبالتالي تغيير «القيم» ومسخها، حتى يصل الأمر إلى وقوع المجتمع في أخطاء عندما يريد تشخيص ما هو حق مسلّم وما هو باعث للفخر والاستقلال والحرية، وتقبّله لأشياء أخرى فاقدة لأية قيمة حقيقية مكانها»[٣].

---

١. «پايان عمر ماركسيسم»، ص ٧ (بالفارسية).
٢. أفعى الضحاك اصطلاح فارسي يشير إلى أسطورة أحد السلاطين الظلمة باسم الضحاك الذي كان من شدة ظلمه أن خرج من أعلى كتفيه أفعيان (المترجم).
٣. الخطوط الأساسية للاقتصاد الإسلامي، ص ١١.

النموذج السادس:

لا شك أنّ هذه الخصلة تعدّ من العوامل المهمّة في فاعلية فكر الاستاذ واعتقاده بحضارية الدين الإسلامي وقدرته على تشكيل الحكومة وإدارة المجتمع البشري والإجابة على المشكلات المختلفة التي تعيشها المجتمعات البشرية، ولهذا السبب بدأ الاستاذ يكتب في هذا المجال، فأولاً: كان الاستاذ من رواد أُطروحة الحكومة الإسلامية حيث كتب في بداية انتصار الثورة الإسلامية المباركة كتاب «**اطروحة الحكومة الإسلامية**»، وثانياً: أجاب عن كثير من الشبهات وعلامات الاستفهام المختلفة في ما يتعلق بالقضايا المعاصرة في عدّة من تأليفاته وكتبه تحت عنوان «**أسئلة وأجوبة**»، وفي مقدّمة هذا الكتاب يقول:

«إنّ السؤال، من أجلىٰ مظاهر الروح المتعطشة الطالبة للحقيقة في الإنسان ونافذة مفتوحة في مسيرة التكامل الإنساني والعلمي، والسؤال عبارة عن مَعْلَم للسعي وبذل الجهد المداوم لدى الإنسان لكشف حقيقة العالم الملىء بالأسرار والمجهولات، ولهذا السبب نرى أنّ الأشخاص الذين يفتقدون السؤال في مدارات الفكر هم أشخاص ضعفاء في شخصيتهم وتفكيرهم، وكذلك ولهذا السبب أيضاً نرىٰ الإسلام الذي يُعتبر ديناً متقدماً وحضارياً، ليس فقط منح أتباعه حق السؤال في المسائل المختلفة بل إنّ أولياء الدين الإسلامي قد دعوا الناس كراراً إلى تقديم أسئلتهم في مختلف المجالات العلمية، غاية الأمر كانوا يلاحظون مدى قابلية الفرد الفكرية ومقدار تقبله للحقائق في دائرة الأجوبة»[١].

---

١. «پاسخ به پرسشهای مذهبی»، ص ١٥ (بالفارسية).

النموذج السابع:

إنّ سماحة الاستاذ (دام‌ظلّه) لو لم يكن ابن هذا الزمان ولم يكن مطّلعاً على مقتضيات هذا العصر، لم يكن يستقبل كل هذه الأسئلة والشبهات الجديدة لاسيما في كتابه «**المسائل المستحدثة**» الذي يبحث في الأجوبة الفقهية للمسائل الجديدة، وأيضاً يقول في مقدّمة كتابه «**الجميع يريد أن يعلم**» وهو كتاب يبحث في مواضيع ثلاثة «المعراج»، «شقّ‌القمر»، و«العبادة في القطبين»:

«لماذا نسأل كل هذه الأسئلة؟ إنّ الإنسان بذاته محبّ للاستطلاع، والقسم الأعظم من معلوماته، أو جميعها كما يذهب إلى ذلك البعض، مدين لغريزة الاستطلاع هذه، فهو يرغب في الاطلاع على جميع أسرار العالم وإزاحة اللثام عن كل شيء غامض ومبهم في عالم الخلقة، ولا شيء ألذّ لديه من خبر جديد أو كشف حديث يتعلق بهذا العالم الواسع، إنّ الإنسان يتحرك من موقع هذه الغريزة ليتناول كل شيء في عالم الفكر حتى في المسائل الدينية، فهو يريد التعرف بمقدار ما أُوتي من قوّة العقل والفكر، على أسرار الأحكام الدينية وكيفية إدراك العقائد الحقّة وكل ما يتعلق بها من مسائل، ولهذا السبب نحن نتوقع أن نفهم بعقولنا جميع المسائل الإسلامية، سواء في العقائد أو الأحكام والتشريعات وغير ذلك، وكذلك نتوقع تطابق هذه المعلومات الدينية، مع ما يصل إلينا من علوم طبيعية عن مختلف الظواهر الطبيعية في عالم الخلقة، وهذا التوقع ليس غريباً بل إنّ المذهب أو الدين الواقعي هو الذي يوجه فكرنا في خط العثور على الأجوبة الصحيحة في مختلف المسائل العلمية ويعتبر مكملاً للقوانين الحاكمة على الكون والطبيعة، فلو كان الدين يتقاطع مع قوانين الطبيعة فإنّه يحكم على نفسه بالفشل والزيف والخرافة، ولكن هل تعلمون بأنّ كتابنا السماوي «القرآن»

له سهم مؤثر في بعث وتحريك هذه الغريزة لدى جميع أتباعه. وفي الحقيقة كان يمثّل العامل المهم لتقدم المسلمين وتحريكهم باتجاه الكشوفات العلمية؟ لأنّ منهج القرآن يتحرك من موقع الاستدلال والبرهان في جميع المسائل الأُصولية والعقائدية، وهذا المنهج الاستدلالي بإمكانه أن يوقظ حس التعقل في جميع الموارد العلمية المختلفة، مضافاً إلى أنّ القرآن الكريم يطالب المخالفين بالدليل والبرهان ويوبّخهم على اتباعهم بعض العقائد غير المستدلة وغير المنطقية، فآيات القرآن المليئة بمثل هذه المضامين حيث لا مجال لاستعراضها في هذا المختصر، وهذا هو ما نقوله من أنّ القرآن الكريم نفخ الروح في غريزة حبّ الاستطلاع والاستدلال العقلي في نفوس أتباعه»[١].

ويقول سماحته مشيراً إلى ضعف الكثير من الأديان والمذاهب العالمية في مقابل السؤال والإشكال:

«ولكنك إذا نظرت إلى الديانة المسيحية الحالية أو بحثت في أجواء المذاهب والأديان الأُخرى وأردت أن تكون مسيحياً واقعياً ومؤمناً فسوف ترى مع كمال العجب أنّ الحالة هناك مختلفة، وتشعر بأنّ أمامك مجموعة من العقائد الغامضة والمعقّدة التي ينبغي عليك الإيمان والتصديق بها من دون أن يكون لك حق المناقشة والبحث فيها، مثلاً إذا سألتهم عن مسألة التثليث في الوحدة، وبعبارة أُخرى: الواحد في عين الثلاثة والثلاثة في عين الواحد، فكيف يتقبل عقلك هذه الفكرة ويذعن لها من موقع التصديق والإيمان؟ سوف يجيبونك عن هذا السؤال: إنّ هذا الموضوع يجب قبوله والتصديق به في عالم القلب والتعبّد!! ولو سألتهم: هل أنّ عيسى المسيح

١. «همه می‌خواهند بدانند»، ص ٥ ـ ٧ (بالفارسية).

يمثّل ابناً واقعياً لله؟ فسيجيبونك: حتماً. نعم، فلو سألتهم: ما هو المفهوم لهذه العقيدة وأن نؤمن بأنّ شخصاً ابن الله؟ فسيقولون: هذا بدوره من الأسرار الدينية التي يجب عليك قبولها والتعبدّ بها!! ولو سألتهم مرّة أُخرى: لماذا بعث الله ابنه لهذا العالم المليء بالضجيج وأرسله إلى البشرية؟ فسيقولون: من أجل أن يضحي بنفسه فداء لذنوب البشر وبالتالي سينالون المغفرة والصفح من الله تعالى، ولو سألتهم: ما ذنب المسيح حتى يحترق ويصلب بسبب ذنوبنا؟ ثم مدى تأثير تضحية المسيح في نفوس المذنبين وكيف نفهم حركة الإنسان التكاملية من خلال هذه العملية؟ فسيقولون أيضاً: لا ينبغي أن تتوقع فهم جميع هذه الأُمور من موقع العقل وبأدوات الاستدلال العقلي!!

وبالطبع فنحن المسلمون سوف نتعجب كثيراً ونتألم من هذا المنطق الغامض والعجيب للتفكير العقائدي، لأنّ القرآن الكريم علّمنا الاستدلال في جميع المسائل العقائدية، ولكن مع الأسف فانّ المسيحيين في هذا العصر لا يشعرون بالانزعاج من هذا المنطق لأنّهم تمرسوا فيه وتوغل هذا النمط من الجمود الفكري في نفوسهم وتطبعوا عليه، ومن هنا ينبغي علينا التصديق بأنّ الإسلام وهبنا هذه النعمة الكبيرة حيث منحنا حق البحث والمطالعة والتفكر والتدبر ولم يوصد أمامنا طرق الاستدلال والبرهان كما نراه في المذاهب والأديان المليئة بالخرافات والأوهام»[١].

النموذج الثامن:

الشاهد الآخر على معرفة سماحة الاستاذ بمقتضيات الزمان وتطلعه واستشرافه لآفاق المستقبل، ما ذكره في مقدّمة كتابة «**الإسلام في تحقيق قصير**» حيث يقول هناك:

---

١. «همه می‌خواهند بدانند»، ص ٧ ـ ٩ (بالفارسية).

«إذا انطلقنا لدراسة حال المسلمين في عالمنا المعاصر نرى وضعاً مؤسفاً وحالة مؤلمة للغاية، فهذه الأُمة التي كانت في ما سبق تتصدر العالم المتمدن وتحكم حضارة بشرية عالمية تبلغ حدودها من المحيط الأطلسي إلى سد الصين العظيم... ولكنّها اليوم استبدلت بكل تلك العظمة والقدرة والفخر بحالة من الضعف والخور والتبعية والتشتت... فلم يكن ذلك التوفيق العظيم بدون سبب وعلّة، ولا هذا الانحطاط والتسافل والتأخر».

ثم يتعرض سماحته إلى العوامل التي أدّت بالأُمة الإسلامية إلى هذه الحالة المزرية ويقول:

«إنّ من بين العوامل المختلفة التي أدّت بالأُمة الإسلامية إلى هذه الحالة المؤسفة عاملين أكثر تأثيراً من غيرهما: ١ ـ التشتت والنفاق، ٢ ـ عدم الاطلاع على أُمور العصر ومقتضيات الزمان».

وفي بيانه للعامل الثاني يقول سماحته:

«لا يمكن لأي أُمة مهما كانت تعيش القوّة والعظمة أن تحفظ عظمتها وافتخارها إلّا بأن تحيط علماً بروح الزمان ومتطلبات العصر، ويقول إمامنا وزعيم مذهبنا الإمام الصادق عليه السلام في جملة قصيرة وعميقة المعنى في بيانه لهذه الحقيقة الناصعة: «العالم بزمانه لا تهجم عليه الهواجس»، والحقيقة أنّ هذه الجملة مليئة بالمعنى العميق ونحن بدورنا بعيدون عنها، وبديهي أنّ المفهوم من الاطّلاع على روح الزمان لا يعني أننا نأكل الخبز بسعر اليوم أو نعمل على تغيير الحقائق الإسلامية والتعليمات السماوية مع تغيير أوضاع الزمان، بل المقصود أننا ينبغي أن نطّلع على الحوادث التي تجري في العالم المعاصر، ونطّلع على خطط الأعداء ونستخدم الأدوات والوسائل المفيدة في هذا العصر لنشر التعاليم الإسلامية الصحيحة في مختلف أرجاء

المعمورة، ونتحرك على مستوى ابلاغ هذا النداء الروحاني والإلهي للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأئمة الهدى عليهم السلام إلى أسماع البشرية في داخل البلاد الإسلامية وخارجها، فكلّنا قد سمع بأنّ معجزات الأنبياء العظام كانت من النوع الذي ينسجم مع ثقافة عصرهم وعلوم أهل زمانهم، وهذا بذاته بمثابة درس كبير لجميع المسلمين في إرشادهم إلى استخدام الوسائل المؤثرة لتبليغ حقائق الدين الإسلامي إلى العالم، فلو أنّ نبي الإسلام قد أوصل الخطاب الإلهي وآيات القران المجيد التي تعتبر في أعلى مستويات الفصاحة والبلاغة إلى حدّ الاعجاز، فانّ المفهوم من ذلك أننا يجب علينا استخدام أكثر الوسائل تأثيراً ونفوذاً في الأفكار والقلوب، وهذا هو ما نقصده من الاستفادة من أسلحة العصر الحاضر في مجال الثقافة الدينية، نعم إنّ هذا الأمر الإلهي يمثّل فريضة واجبة على جميع المسلمين بأن يستفيدوا من جميع الوسائل الممكنة في زمانهم لتعريف الإسلام إلى البشرية جمعاء»[١].

النموذج الأخير:

جلسات الاستفتاء والذكاء الخارق في تشخيص الموضوعات الفقهيّة:

وفي الختام نرىٰ من اللازم عدم إغفال شاهد آخر على وجود الخصلة المذكورة في شخصية سماحة الاستاذ على مستوى: «**الذكاء الخارق والدقّة المتناهية في تشخيص الموضوعات الفقهية**» في جلسات الاستفتاء:

لا يخفى على من يشترك في جلسات الاستفتاء وجود تنوع كبير في الاسئلة المطروحة والواردة إلى هذا المكتب في مختلف المجالات الفقهية من شرق العالم وغربه، ولابدّ من دراستها وبحثها بعد تشخيص الموضوع الذي تنتمي إليه، فالأمر الضروري جدّاً في هذه

١. «چهرهٔ اسلام در يک بررسی کوتاه»، ص ٣ ـ ٨ (بالفارسية).

الموارد، مضافاً إلى الحاجة إلى قدرة الافتاء وملكة الاستنباط لدى الفقيه وصاحب الفتوى ومعرفته الدقيقة واحاطته التامة بالأُصول والضوابط اللازمة في فن الاجتهاد، أن يتمتع الفقيه بذكاء اجتماعي وفراسة في تشخيص الموضوعات المختلفة والمتنوعة التي ترد عليه من داخل البلد وخارجه، ومن قبل المنظمات والمراكز الحكومية أو من قبل الأطراف والشخصيات الحقيقية، وكل هذه المسائل الفقهية ترد بصورة متواترة إلى مدينة العلم والاجتهاد، مدينة قم، وأحياناً تتضمن مسائل وموضوعات معقدة وربّما توجد هناك سوء نيّة لدى المستفتي بحيث يلزمه أن يعقّد المسألة، ومن جانب آخر فانّ هذا المستفتي لا يجد في نفسه الجرأة على ذكر الحقيقة كاملة في سؤاله من أجل أن يجر النار إلى قرصه وبهدف استمالة الفتوى إلى جانبه.

وهنا تتجلّى قدرة صاحب الفتوى على معالجة هذه المطبات في دائرة الاستفتاء، فلابدّ من ذكاء خاص وفراسة اجتماعية ونفسانية تمكن الشخص من الاحاطة بجميع آفاق المعضلة والوقوف على حيل وألاعيب قد يستغلها بعض الأشخاص لصالحهم وبإمكانها أن توقع المفتي في الخطأ والاشتباه، وبديهي أنّ الخطأ والاشتباه في عالم الفتوى «**وإن كان الفقيه مأجوراً عند الله**» فانّ ذلك من شأنه أن يورث مشاكل كثيرة في إطار سحق الحقوق أو إبطال الحق المشروع.

وهنا لابدّ لأصحاب الفتوى الذين لا يتمتعون بفراسة اجتماعية كافية ويعيشون السذاجة القلبية بسبب عدم معاشرتهم لطبقات الناس وأفراد المجتمع فيتصورون أنّ جميع الأفراد يعيشون الصفاء الروحي والنيّة الطاهرة والشفافة كأنفسهم، لابدّ لمثل هؤلاء الفقهاء من استخدام مشاورين أذكياء وأُمناء ودعوتهم إلى جلسة الاستفتاء لإحراز الموضوع الفقهي وتشخيص تعقيدات المسائل الفقهية في دائرة الحقوق والمعاملات وغيرها والاستفادة من ذكائهم وفراستهم في هذا المجال.

إنّ سماحة الاستاذ يتمتع أولاً: بالذكاء الحاد والفراسة الاجتماعية، وثانياً: إحاطته

بمقتضيات الزمان والمكان وحنكته في الأُمور الاجتماعية بسبب معاشرته الطويلة والممتدة إلىٰ جميع شرائح المجتمع المختلفة، ومن هنا نرى أنّ سماحته عندما يجلس مجلس الاستفتاء ويجيب على المسائل الفقهية يكون أسرع من سائر أعضاء الجلسة في تشخيص العقد الكامنة في هذه المسائل والكشف عن الحيل الظاهرة والباطنة لبعض المستفتين وبالتالي يمكنه استجلاء الغرض والموضوع لهذه المسألة الفقهية.

١١

الجمع بين القلم والبيان، والاصول والفروع

إنّ الكثير من الأشخاص ممن يمتلك قدرة البيان يعدّ من الخطباء الموفقين من الدرجة الأُولى ولكنهم لم يخلّفوا أثراً مهماً في عالم التأليف والكتابة، أو أنّهم لم يستغلوا موهبة القلم والقدرة على الكتابة كما ينبغي، لأنّه لا ملازمة بين قدرة البيان وقدرة الكتابة والتأليف، ويقول أحد الخطباء الموفقين: «إذا أردت أن أكتب شيئاً فينبغي أن أذكره بلساني أولاً ثم أكتبه على القرطاس».

وكذلك هناك كثير من العلماء والفضلاء الذين لم يهتموا بشيء غير الكتابة والتحقيق والتأليف ولكنّهم غير قادرين على بيان مواضيع علمية على مستوى الخطابة بل أحياناً يمتنعون من إدارة جلسة دينية أو الصعود على المنبر والاهتمام بمسألة الوعظ والإرشاد للشباب.

أما سماحة الاستاذ فإنّه يعدّ من القلائل في تاريخ علماء الشيعة حيث جمع بين القلم والبيان ،التدريس والتبليغ، التحقيق والتأليف، العلوم الجديدة والقديمة، وبكلمة: إنّه جمع بين الاضداد تقريباً، من حيث إنّ التضلع والتمرس في البحوث الحوزوية والتعمق في المسائل الفنية والصناعية يمنع الإنسان من الاطلاع على مقتضيات العصر وما تعيشه البشرية من آفاق حضارية وتطورات في العلوم التجريبية، والجمع بين هذه الابعاد المتضادّة ظاهراً يحتاج إلى نبوغ خارق، حافظة قوية، استقامة ومواصلة في العمل، وقابلية ذاتية، والأهم من الجميع يحتاج إلى توفيق غيبي وإلهي كما رأينا في الفصول السابقة، فنرى

أنّ سماحة الاستاذ بحمد الله يتمتع بهذه الحصوصيات الفنية والسمات الروحية.

وما ينبغي ذكره في هذا المجال هو أن الإشارة إلى مظهرين من مظاهر ومعالم حالة الشمولية والجامعية بين القلم والبيان لدى الاستاذ، حيث يقول الاستاذ نفسه في هذا الصدد:

«أنا أعتقد دائماً أنّ رجل الدين يجب عليه أن يتسلح بسيفين: سيف البيان وسيف القلم، والعالم الفاقد لهذين السلاحين، حتى لو كان جبلاً من العلم، فإنّه سيأخذ علمه ومعرفته معه إلى القبر، ولكن لو كان مجهزاً بهذين السلاحين أو بأحدهما على الأقل فإنّه بامكانه أن يخلّف آثاراً محمودة بين الناس».

سلاح القلم!

وبهذا يستعرض سماحة الاستاذ هذه الموهبة الإلهية فيما يتعلق بقدرته على البيان والكتابة والتأليف وكيفية استثمار هذه القابليات والمواهب الإلهية فيما ينفع الإسلام والمسلمين، وقد سبق الكلام عن ذلك في الفصل السابق «**الاستقامة والجدية**»، ثم يتطرق سماحته إلى قصّة تأليف أول كتاب له باسم «**تجلي الحق**» والتشويق الذي حازه من قبل المرحوم آية الله السيد البروجردي رحمه الله على تأليفه هذا الكتاب (وقد تقدم بيان ذلك بالتفصيل في الفصل التاسع).

ثم إنّ سماحته أشار إلى الكتاب الثاني من تأليفاته المهمّة القيمة، أي كتاب «**أشباه الفلاسفة**» وقال:

«عادة يثير الكتاب الناجح لدى البعض دوافع خاصة تحركهم وتدفعهم إلى التقليل من شأن هذا الكتاب من خلال بث الشايعات حوله. وهذا الكتاب قد تقدم به المرحوم الشهيد المطهري إلى هيئة انتخاب (كتاب العام) وبدون

علمي، وفي السنة السابقة لذلك التاريخ تمّ انتخاب كتاب (اصول الفلسفة والمنهج الواقعي) من تأليف العلّامة الطباطبائي على أنّه (كتاب العام)، وفي السنة اللاحقة تمّ انتخاب كتاب (أشباه الفلاسفة) بعد أن قدّمه إليهم المرحوم الشهيد المطهري فإنّه كان يرى أنّه لا ينبغي ترك الساحة واخلاء الميدان للمخالفين ليتوهموا أنّ الحوزة العلمية ليست لها قدرة على الانتاج العلمي وأنّ العلوم كلها موجودة في الجامعات، فالشهيد المطهري كان يعيش هذه الحساسية الشديدة تجاه التيارات الفكرية الأُخرى، ولهذا السبب تقدم بكتابي هذا إلى هيئة التحكيم وتمّ انتخابه بعنوان أنّه كتاب العام».

وفي هذا المجال أيضاً وبالإشارة إلى سائر تأليفاته الكثيرة (أكثر من مائة وعشرة كتب صغيرة وكبيرة) ومع ملاحظة أن بعضها تكرر طبعه ثلاثين مرّة والبعض عشرين مرّة وآخر طبع عشر مرّات وكانت هذه الكتب مورد استقبال الناس الشديد، وأمّا على مستوى «**التفسير الأمثل**» فإنّه استقبل استقبالاً يقلّ نظيره في جميع المحافل الدينية والمكتبات والجامعات والمدارس والبيوت، وليس الأمر ينحصر في دائرة الشيعة بل إنّ الكثير من أهل السنة استقبلوا هذا التفسير بأحسن استقبال وترجم إلى اللغة العربية والاوردية، ويتحدّث سماحة الاستاذ عن تفسيره الآخر باسم «**نفحات القرآن**» ويقول:

«التفسير الآخر يدعى (نفحات القرآن) وقد كتبته بمنهج التفسير الموضوعي، أي ليس على طريقة ترتيب الآيات والسور القرآنية بل بترتيب موضوعات القرآن. ويقع هذا التفسير في عشر مجلدات ويتضمن مسائل عقائدية ومعارف دينية في مجال العقائد من التوحيد إلى المعاد من خلال استنطاق الآيات الكريمة حيث تمّ التحقيق والبحث في جميع الآيات التي تتحدث عن التوحيد، والآيات التي تتحدث عن صفات الله، والآيات التي تتعرض إلى النبوة العامة والنبوة الخاصة وهكذا جميع الآيات التي تشير إلى

المعاد والإمامة والحكومة الإسلامية وأمثال ذلك، وقد سمعت من بعض الفضلاء قولهم عن هذا التفسير: إنّ هذا التفسير يمثل فعلاً أفضل منبع لفهم العقائد الإسلامية».

ثم يشير سماحته إلى كتبه الفقهية والأُصولية ويقول:

«أمّا بالنسبة إلى الكتب الفقهية والأُصولية فهناك دورة في علم الأُصول تمّ تدوينها بواسطة أحد طلابي الذين يحضرون درسي في الأُصول وهو شاب ذكي وجيد الفهم وذو قلم شيّق ويتمتع بالإخلاص والإيمان في عمله، حيث عمل على تدوين وجمع ما ذكرناه في درس الأُصول، وبعد ذلك قرأه عليَّ وأجرىٰ بعض الإصلاحات اللازمة عليه وتمّ طبعه بحمد الله في ثلاثة مجلدات، أمّا في الفقه فلدينا كتاب «أنوار الفقاهة» والمجلد الأول منه يتضمن كتاب البيع، والمجلد الثاني كتاب المكاسب المحرمة، والمجلد الثالث كتاب الخمس والأنفال، والمجلد الرابع كتاب الحدود والتعزيرات، وكذلك لدينا تعليقة على جميع العروة الوثقى، وهذه التعليقة على العروة شرعت بها قبل عشر سنوات وخلافاً للمعتاد سعيت إلى عدم الاكتفاء والقناعة بالتعليقة على كل كلمة أو جملة تعكس الفتوى الفقهية بل سعيت إلى ذكر الدليل الأصلي على هذه الفتوى لتكون مفيدة بالنسبة لي وللآخرين، أي أنّها تمثل دورة فقهية نصف مستدلة تقريباً. وأنا أشكر الله تعالى علىٰ أنّ هذه الزحمات لم تذهب هدراً بل بقيت في متناول الطلّاب الأعزاء لينتفعوا بها.

والتأليف الآخر هو دورة «القواعد الفقهية» التي كانت من بداية طبعها ونشرها تمثل ابداعاً في هذا الفن، حيث بحثت فيها ثلاثون قاعدة فقهية لم تبحث بصورة جيدة، لا في اصول الفقه ولا في أبحاث الفقه، وقد تحملت متاعب كبيرة في جمعها ودراستها قبل أن يخرج كتاب «القواعد الفقهية»

للمرحوم العلّامة البجنوردي، وقد ألفتها في مجلدين وتكرر طبعها عدّة مرات وكانت محل استقبال جيد من قبل الفضلاء والطلّاب الأعزاء، وأحياناً تعرض بشكل كتاب درسي في بعض الحوزات العلمية».

سلاح البيان!

بعد أن استعرض سماحة الاستاذ ما يتعلق بسلاح القلم، شرع ببيان ما يتعلق بسلاح البيان أيضاً حيث قال:

«أنا أعتقد أنّ العالم الذي لا يتسلح بسلاح القلم ويفتقد في نفس الوقت سلاح البيان والخطابة فإنّه لا يمكنه أداء مسؤوليته الرسالية بصورة جيدة، والآن أيضاً أُوصي الطلبة الأعزاء والعلماء المحترمين بهذا الأمر وأنّه من الأفضل ممارسة عملية التبليغ والخطابة لا بلغة واحدة بل بعدّة لغات وعلى أساس هذا النمط من التفكير بدأت منذ سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة بممارسة فن الخطابة والتحدث على المنبر حيث كنت أتوجه للتبليغ في شهر رمضان المبارك أو شهري محرم وصفر. وأول منطقة ذهبت إليها عندما كنت طالباً من طلّاب العلوم الدينية في شيراز عبارة عن قرية تدعى «جوين» على مقربة من شيراز، وهي الآن تعدّ من أحياء شيراز، وبعدها توجّهت للتبليغ في شهر رمضان المبارك إلى مدينة «فسا» وهي أحد المدن التابعة لمحافظة فارس، مع إنني كنت على اطلاع جيد في علوم التفسير والعقائد ولكنني لم أكن أجد في نفسي الموفقية في عالم الخطابة وكنت خجولاً جدّاً وأتصور أنني أفتقد البيان الشيّق والجذّاب، فتوسلت بالأئمّة المعصومين عليهم السلام وطلبت منهم نعمة اللسان الناطق الفصيح لأتمكن من تقديم خدمة للإسلام وللمذهب، واستمرت توسلاتي ودعائي حتى أحسست

تدريجياً أنني أملك قدرة أكثر على ممارسة الخطابة، وبعد ذلك بلغ بي الأمر أن أكون خطيباً مقتدراً وكان الناس يطلبونني لأقرأ عليهم مجالس الوعظ والإرشاد».

ذكرى شيّقة ومفيدة جدّاً:

بعد أن تحدّث سماحة الاستاذ عن تطور القدرة الخطابية لديه بدأ بشرح تفاصيل نشاطاته الهادفة وجهاده المستمر من خلال المنبر في التصدي للتيار الماركسي وبعض الفرق الضالة والمفاسد الأخلاقية المنتشرة في مدينة عبادان وخرمشهر، ثم تتطرق الاستاذ إلى ذكر جلساته المتواصلة قبل انتصار الثورة في مسجد «**ارك**» في طهران وحسينية «**بني فاطمة**» على شكل «أجوبة عن أسئلة المستمعين وحفظ الحديث» وما قام به من مشاريع لجذب الشباب وطلّاب الجامعات إلى صفوف ا لمتدينين والمؤمنين في هذا المجال وأشار سماحته إلى ذكرى شيّقة جدّاً وقال:

«إنّ الكثير من الأشخاص الذين يواجهونني الآن ممّن كانت لديهم أسئلة مختلفة يتذكرون تلك الجلسات الدينية، ولي خواطر وذكريات كثيرة في هذا المجال، وأُريد أن أختم هذا البحث بذكر حادثة لطيفة وهي بمثابة عبرة لي دائماً، فقد كنّا نعقد جلسة في كل صباح يوم الجمعة للشباب في مسجد الإمام الحسين عليه السلام وكنت أتوجه آخر الاسبوع من قم إلى طهران للمشاركة في جلسات ليالي الخميس التي نبحث فيها العقائد والمعارف الإسلامية، وكذلك جلسات صبح الجمعة في مسجد الإمام الحسين عليه السلام في طهران حيث كنت أكتب لهم حديثاً شريفاً في كل اسبوع مع ترجمة بليغة وشرح مختصر ويتمّ طبعه في صفحة واحدة ونشره بين المشاركين الذين كان أكثرهم من الشباب... وفي أحد الأيّام قررنا امتحان المشتركين في حفظ وتفسير أربعين

حديثاً، واشترك عدد كبير من الاخوة والاخوات في هذا الامتحان، والملفت للنظر أنّ الغالبية منهم كانوا قد حفظوا أربعين حديثاً شريفاً بشكل كامل مع الاعراب والترجمة والمآخذ... ثم تقرر اهداء جوائز بواسطة أحد الخيرين على هؤلاء الشباب الفعّالين، وكانت الجوائز عبارة عن ملابس «سترة وسروال وعباءة نسوية» وكذلك زيارة الإمام الرضا عليه السلام في مشهد، والظاهر أنّ هذه الزيارة كانت بالطائرة، وجوائز أُخرى من هذا القبيل، وبعد أن اتّضحت نتيجة الامتحان قلت لذلك المتبنّي المحترم: إنني أطلب موافقتك على تسجيل اسمك بأنّ الشخص الفلاني قد تبرع بهذه الجوائز ولكنه امتنع من ذلك وقال: كلّا لا تكتبوا اسمي، لأنّكم لو كتبتم اسمي هنا فأخشىٰ أن لا يكتب اسمي في مكان آخر أحتاج إليه، وشعرت حينها بالسرور لكل هذا الإخلاص».

الجمع بين الأُصول والفروع:

ومن المعالم الأُخرى لجامعية الاستاذ وشموليته العلمية، جمعه بين الأُصول والفروع «**الاصول الاعتقادية والفروع الفقهية**»، فالاستاذ في الوقت الذي يعتبر فقهياً جامعاً ومجتهداً متمرساً، بالمعنى المصطلح في الحوزة العلمية، ونعلم أنّ البحوث الفقهية في الحوزة ومنهج الدروس الأُصولية والاجتهاد في الحوزة إلىٰ درجة من التعقيد بحيث إنّ الكثير من الفقهاء ينصرفون عن البحث في المسائل العقائدية والأخلاقية والتفسيرية «وهي في الحقيقة أعلى مراتب الفقه» وعملاً يجدون صعوبة بالغة في الدخول في هذا الميدان والتعرض إلى هذه المساحات العملية ولكننا نجد أنّ الاستاذ له اهتمامات كبيرة في هذه البحوث الأساسية الأصيلة ويؤكد دائماً على أهميّة أُصول الدين في مقابل فروع الدين ويقول:

«العجيب أننا في الوقت الذي نسمي هذه البحوث الاعتقادية «اصول

الدين» ونسمي البحوث الفقهية «فروع الدين» نرىٰ البعض يتمسك بـالفروع في دراستهم الحوزوية ولا نـجد أثـراً للـدرس والبـحث فـي «الاصـول»!! فصحيح أنّ المسائل الفرعية لابدّ من بحثها والتحقيق فـيها فـي الحـوزات العلمية، ولكنّ هذا لا يعني الغفلة عن اصول العقائد التي تمثل البنى التحتية للدين...».

وكذلك يقول:

«ما أحسن تشبيه الدين بالشجرة المثمرة التي تمثل «العـقائد» جذورها، والفروع أغصانها وهي «البرامج والتعاليم والأحكام الفقهية»، وأمّا ثمرتها فهي «تربية الإنسان الكامل»، وهذا المعنى يثير في أذهاننا مـا يـطلق عـلى هـذه العلوم بأصول الدين وفروعه»[١].

١. «عقيده يک مسلمان»، الصفحة حرف (الف) (بالفارسية).

١٢

المسؤولية الدينية مع الشعور العقلاني

إنّ الاستاذ (دامظلّه) يعيش دائماً كجندي متحرق وحارس يحس بالمسؤولية الدينية والحمية الحوزوية في حياته حيث يجد في نفسه همّاً وقلقاً من تحريف الدين والابتعاد عن الأصالة الدينية والحوزوية، وهنا تصدى سماحته بقلمه القوي والجذّاب (حيث يرى البعض أنّه أقوى وأشد تأثيراً من بيانه) لمعالجة الانحرافات الفكرية والأخلاقية ومكافحة أشكال الزيغ والجنوح الاجتماعي، فمضافاً إلى تأليفه لأكثر من مائة كتاب علمي وتحقيقي في سبيل الدفاع عن الإسلام والتشيع، نرى أنّ سماحته يتحرك من فرط احساسه بالمسؤولية الدينية والأخلاقية، وعلى هذا الأساس انطلق سماحته من موقع ملْ الفراغات وسد الثغرات من دون تكرار للمكررات أو التأطر بإطار التكلفات والتعبيرات الغامضة والعبارات المبهمة، فكان قلمه السيّال يتجلّى فيه عنصر النفوذ والتأثير الشديد بحيث إنّه يتمكن من بيان أصعب مسألة وأعقد مشكلة فكرية بشكل سهل وميسور يفهمه عامة الناس أو أغلبهم، ولا شك في أنّ مثل هذا القلم يُعدُّ موهبة كبيرة لا يوفق إليها إلّا من كان ذا حظ عظيم.

ويتحدّث أحد أصحاب الاستاذ ورفاقه عن هذه الحالة من التحرك الديني وبعض خصائص الاستاذ الأُخرى ويقول:

«بالنسبة لمرافقتي سماحة الاستاذ في تلك المدّة القصيرة (وإن كانت لم تتجاوز السنة الواحدة) فقد عشت معه أبعاده الروحية وعبادته وجهات نظم

أُموره وتحصيله الدراسي وكذلك رفاقه في تلك الفترة فقد كانوا يتميزون بالفكر الجيد والحرقة الدينية في ظروف صعبة وذلك عندما كان المد الشيوعي يغزو ايران، فقد فكر سماحته مع رفاقه أن يجلس كل واحد منهم في منطقة ليتمكنوا من الدفاع عن الإسلام والاجابة عن شبهات هذا التيار المادي، وقد سمعت في ذلك الوقت أنّ سماحة الاستاذ لم يحل مسألة تجميده من قبل الحوزة كسائر طلّاب العلوم الدينية، بل من خلال ورقة الاجتهاد حيث عاد من النجف مجتهداً»[١].

يجب ملأ الفراغات:

لا شك في أنّ هذا التحرك الديني لا ينفع شيئاً بدون اقترانه بالشعور العقلاني، وإلّا كان كقيادة السيارة التي تفتقد الكوابح والفرامل، فبدلاً من حركتها باتجاه معين فانّها لا تثمر سوى الضرر والخسارة، لقد اقترن التحرك القلبي والغيرة الدينية للاستاذ مع الوعي والتدبير والتعقل حيث كان يخطو بخطوات مدروسة نحو الغاية المنشودة بدون تضييع الوقت والجهود في تكرار المكررات أو الحركة بدون هدف، فكان يملأ الفراغات في الذهنية المسلمة ويجيب عن مشاكل الجيل المعاصر بحنكة ودقّة.

ويتحدّث سماحته في هذا المجال ويقول:

«إذا أردنا تحقيق نجاح في أعمالنا فيجب علينا التوجه إلى نقاط الفراغ والثغرات التي بقيت دون دفاع، فعلينا أن نتحرك على مستوى أداء ما غفل عنه الآخرون، فنشاهد مع الأسف الكثير من تكرار المكررات حيث يأتي البعض ويجمع بعض المواضيع من هذا الكتاب وذلك الكتاب ويجعله بصورة كتاب مستقل، فلا يثمر هذا العمل سوى تضييع عمر الكاتب وتضييع عمر القرّاء واهدار ثروات كثيرة على نفقات الطبع والنشر، فالأفضل أن نقوم بعمل أقل ولكن يسد فراغاً في منظومتنا الفكرية والعقائدية وما يحتاج إليه الناس».

---

١. آية الله المحفوظي.

١٣

حراسة المذهب

عندما ينطلق الإنسان في أجواء مظلمة من التشكيك والالحاد والانكار ليكون «**خضر الطريق**» و«**دليل القافلة**» لرؤية مواضع نفوذ العدو والدفاع عن المذهب مقابل تحديات المذاهب الوضعية والتيارات الفكرية المنحرفة، والاحاطة بالأفكار الالتقاطية المحسوسة وغير المحسوسة، كل ذلك يحتاج إلى يقظة ودراية وموهبة إلهيّة من الشهامة والشجاعة، وقد حاز استاذنا منذ قديم الأيّام بل منذ سنوات المراهقة والشباب على هذه المواهب جميعاً[١].

في محفل البهائيين:

إنّ قصة مناظرة الاستاذ مع المبلغ البهائي في شيراز في سنوات الشباب معروفة عند

---

١. وأساساً فإن وجد افتراق علماء الدين عن العوام المتدينين، أنّ العلماء يسعون لحفظ عقائدهم وانقاذ الجهّال والضالين من الناس، ولكن العوام المتدينين يتحركون في حياتهم من موقع العبادة والارتباط مع الباري تعالى فقط وأحياناً يقدمون بعض الخدمة للمخلوقين.
إنّ العلماء يتحركون على مستوى التصدي لقوى الانحراف وأعداء الدين وانقاذ الناس من الغرق في مستنقع الضلالة والانحراف، ولكن العامي العابد لا يهتم إلّا بانقاذ نفسه ونجاة زورقه من الأمواج المتلاطمة... يقول الشاعر الايراني المعروف سعدي:
جاء صوفي من الخانقاه إلى المدرسة
وكسر العهد مع رفاقه من أهل الطريقة
فقلت له: ما الفرق بين العابد والعالم، حتى اخترت هذا الطريق على ذاك؟
قال: إنّ ذاك يهتم بانقاذ نفسه من الأمواج
وهذا يهتم بانقاذ الغريق.

أهالي شيراز، وكذلك حادثة مناظرته مع المتصوفة في مجلسهم في خانقاه في شيراز وكان الاستاذ شاباً يافعاً، وقد انتهت هذه المناظرة بكتابة «**تجلي الحق**» والذي وقع مورد اعجاب وتشويق سماحة آية الله العظمى السيد البروجردي قدس سره «**وقد تقدم بيانه في الفصل التاسع**» ويروي أحد مرافقيه هذه الحكاية كالتالي:

«إنني أتذكر جيداً أنّ أتباع «الفرقة الضالة» كانو يجتمعون في محفل لهم في شيراز ويدعون الناس إلى ذلك المحفل والمجلس ليتمكنوا من اغواء واضلال الجهّال والبسطاء من الناس، وفي أحد الليالي اشترك الاستاذ ـ وكان شاباً مراهقاً ـ في تلك الجلسة والمحفل وذلك قبل هجرته إلى قم، فأخذ المبلغ البهائي بإلقاء كلمته لإثبات حقانية زعماء الفرقة البهائية وتمسك بإحدى الآيات القرآنية الشريفة وكان الناس يستمعون إليه، وفجأة قام هذا الشاب المراهق من بين الجالسين والحضّار وقال مخاطباً ذلك المبلّغ: إنّ الذي يفسّر آية من القرآن لابدّ أن يعرف القواعد الأدبية للغة العربية وقد قرأ الصرف والنحو، فهل قرأت ذلك، وهل تعرف الصرف والنحو؟ فقال المبلّغ البهائي: نعم قرأت ذلك. فسأله الاستاذ عن قاعدة نحوية من قواعد باب الاشتغال وقال له: كيف نحلّ تنازع العوامل في النحو فيما يعود «لترجيح النصب على الرفع»؟ وبما أنّ المبلّغ البهائي لم يسمع اطلاقاً بهذا الموضوع فقد بقي متحيراً وبان عليه الخجل وضلّ ساكتاً وانهار المجلس»[١].

في مواجهة الماركسيين:

لقد شرع الاستاذ بعد مجيئه إلى الحوزة العلمية في قم باجراء عدّة بحوث ودراسات

١. حجّة الإسلام والمسلمين مؤمن.

متنوعة فيما يتعلق ببيان المعارف الدينية ودفع الشبهات المذهبية، وعلّم جيل الطلّاب الشباب في الحوزات العلمية أن يأخذوا بنظر الاعتبار في تبليغهم الديني عنصر الزمان ويأتوا بالدين ويضعونه في قلب المجتمع المعاصر، وبذلك يمكنهم التصدي للحوادث الواقعة بكامل الجدارة، وقد تقدم سابقاً أنّ سماحته قال:

«لقد كانت لدينا جلسة اسبوعية مع فضلاء الحوزة العلمية من اصدقائنا الذين كنّا نشترك معهم في المباحثة، وكان يحضر هذه الجلسة بعض الشخصيات المهمّة منهم الإمام موسى الصدر وأشخاص آخرون لا أجد مسوغاً لذكر أسمائهم، وكانت البحوث التي تطرح على بساط البحث تتعلق بالشيوعية حيث كانت الشيوعية تتمدد بسرعة في ذلك الزمان إلى ايران والبلاد الإسلامية المجاروة للاتحاد السوفيتي السابق «وخاصة أنّ حكومة الشاه كانت تتحرك على مستوى توهين عرى الإيمان والتدين بين الناس» فكان ذلك سبباً في اشاعة الأفكار الماركسية بواسطة حزب تودة الشيوعي الذي كان يتحرك على مستوى الجامعات خاصة، وكانت لديهم نشريات وصحف كثيرة اهتمت بترجمة كتابات رواد الماركسية وبعضها كان من كتابات الشيوعيين في ايران، وأخيراً وصل الأمر إلى درجة التأزم والتسافل بحيث خرج عن حدود البحوث المنطقية وأخذ يتجلى على شكل توجيه الإهانة إلى المقدّسات الدينية من قبلهم لأنّهم كانوا يعلمون أنّ الإسلام مهما كان ضعيفاً فإنّه يقف سدّاً منيعاً بوجه مطامعهم، وقد امتدت هذه البحوث إلى الحوزات العلمية التي وجدت أنّ وظيفتها التصدي إلى هذا التيار التخيلي، وكان المرحوم العلّامة وتلميذه الشجاع المرحوم العلّامة المطهري من جملة الأشخاص الذين تصدوا إلى هذه المسؤولية حيث كتبا «اصول الفلسفة والمنهج الواقعي» الذي يمثل حصيلة جهد هذين العلمين في هذا المجال.

وقد شرعنا مع أصدقائنا بالتحقيق حول عقائد وأفكار هذه المدرسة وكنّا نبحث في جلستنا الاسبوعية المواضيع المتعلقة بالماركسية من خلال مطالعة كتبهم لكي نكون على اطلاع كامل علىٰ أفكارهم ونظرياتهم ثم نضعها قيد الدراسة والنقد، وقد طلبت من الاخوة الموافقة على أن أكتب بعض المواضيع المتعلقة بالماركسية ثمّ أطرحها في هذه الجلسة لكي يتكامل الموضوع بصورة أفضل، وبالفعل فقد كتبت هذا الكتاب وسمّيته «أشباه الفلاسفة» وذكرت فيه جملة من المواضيع للفلاسفة الماديين وخاصة من أتباع المدرسة الماركسية ونقدتها مستعيناً بالملاحظات التي أوردها الاخوة في تلك الجلسة ثم عملت على صياغتها بأسلوب قصصي لتكون أكثر جذّابية، وتمّ نشر هذا الكتاب وهو الكتاب الثاني من تأليفاتي، وقد استقبله الناس بشوق بالغ بحيث إنّه تتكرر طبعه لثلاثين مرّة تقريباً».

الجمع بين التدين والثقافة:

الجدير بالذكر أنّ ما يبديه الاستاذ من حساسية في مواجة الأفكار المنحرفة وقدرته الفائقة في الاجابة على الشبهات المختلفة وسرعة بديهته في الردّ على الأسئلة وعلامات الاستفهام، قد أثار في الطلّاب الشباب في الحوزة العلمية حركة من الهياج والشوق، وتبدلت جلساته الاسبوعية التي كان يعقدها في ليالي الخميس لغرض دراسة المباحث والمعارف المعاصرة المطروحة على بساط البحث بغيث سماوي على صحراء الفكر الجافة فأروت طلّاب الحوزة العطاشى لمثل هذه الأفكار والمعارف.

إنّ أهميّة هذا الموضوع تتجلى أكثر إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ البحث في هذه المواضيع والامساك بالقلم وكتابة مثل هذه المقولات وكذلك إصدار مجلة، يعدّ في ذلك الوقت (خروجاً على جميع القوالب والأطر الحوزوية) ويعتبر لدى بعض المدرسين في الحوزة

جرماً، ودليلاً على السطحية وعدم التعمق في المسائل العلمية، هؤلاء غفلوا عن أنّ الاستاذ لا يتحرك على مستوى تقييد الدين وحبسه في الابراج العاجية، بل يهتم بإحياء الفكر الديني وينطلق بقوّة للدفاع عن المذهب والدين والاجابة على شبهات الجيل الحاضر وإيجاد الحلول التي تلامس أزمات المجتمع الفكرية والقضاء أخيراً على الثنوية بين «المثقف» و«المتدين».

يقول أحد تلامذة[١] الاستاذ القدامىٰ في مقدمة رسالته الانتقادية[٢] للاستاذ راسماً حالة الاستاذ في الماضي فيما كان ا لاستاذ يعيشه من ثقافة معاصرة وروحية إصلاحية في ذلك الوقت، ويقول:

«... في سنة ١٣٣٥ هـ ش أي قبل (٤٣ سنة) وعندما كان الاستاذ عائداً من حوزة النجف الأشرف ومن جوار مرقد مولى الموالي أميرالمؤمنين الإمام علي عليه السلام، وعندها كان لي تسعة عشر ربيعاً، تشرفت بالمجيء إلى الحوزة العلمية في قم وأقمت إلى جوار فاطمة المعصومة عليها السلام، في بداية تلك الأيّام حيث كنت أسكن في إحدى حجرات مدرسة الحجّتية مع آية الله الحاج الشيخ جعفر السبحاني، فجئت إليَّ لملاقاتي بكل تواضع والحال أنني كنت في ذلك الوقت طالباً مبتدئاً ومجهولاً وكنت أنت في سن الثلاثين من العمر وتعتبر من أساتذة الحوزة العلمية ومن المجتهدين.

إنّ هذه المعرفة أدّت تدريجياً إلى استحكام الرابطة بين الاستاذ وتلميذه واستمرار التعاون الفكري في مجال تأسيس نهضة مباركة ومتكاملة في وسط الحوزة العلمية «لأول مرّة بعد تأسيسها» حيث تمّ التوجه إلى المسائل المعاصرة والاهتمام بروح الزمان، وفي الحقيقة أنّه قد حدث تحوّل كبير في

---

١. المرحوم حجّة الإسلام على حجّتي الكرماني (طاب ثراه).
٢. نشر في جريدة (فتح) (المجمدة من قبل الدولة) في تاريخ ١٣٧٨/١١/٢٦.

«علم الكلام والفكر الإسلامي».

إنني لا نسى تلك الجلسات الجذّابة والشيقة في ليالي الخميس والجمعة والتي خلقت تحوّلاً كبيراً في وسط الجيل الشباب من طلّاب العلوم الدينية، فمضافاً إلى معطيات هذه الجلسات البناءة والنافعة «من قبيل كتاب: خالق العالم، كيف نتعرف على الله، الزعماء العظام والمسؤوليات الأعظم، القرآن والنبي الخاتم، وهي سلسلة في إثبات الصانع، صفات الله، النبوة العامة، والنبوة الخاصة» وهناك عشرات الكتب والرسائل العلمية تمّ تحريرها بواسطتكم وبمساعدة الاخوان المشتركين في تلك الجلسات مع الأخذ بنظر الاعتبار الأجواء الحاكمة على ذلك الزمان وحاجة الناس إلى أفكار ومعارف دينية تسد نقاط الفراغ وتعالج أشكال الخلل والشبهة في الذهنية المسلمة والمجتمع الإسلامي...

وفي عام ١٣٤٠ هـ ش وبعد رحلة المرحوم آية الله العظمى البروجردي قدس سره مرجع الشيعة على الاطلاق كانت مجلتكم «مكتب اسلام» تدخل في عامها الثالث وكان سماحتكم قد اختار ستة أشخاص من المعاونين ليكونوا أعضاءً في الهيئة التحريرية لهذه المجلة المباركة ...

وبعد مضي عشر سنوات من اشرافكم على المجلة وكونكم صاحب الامتياز فيها وكنت أنا عضواً للهيئة التحريرية وكذلك أشغل منصب المدير الداخلي لهذه المجلة، وبعد ذلك عندما شرعتم بإصدار مجلة سنوية تهتم بإنقاذ الجيل الصاعد من شبابنا من قبل مؤسسة «نجاة الشباب» كنت بدوري من معاونيكم وأنصاركم، مضافاً إلى أنني قمت في تلك السنوات بتأليف وترجمة بعض الكتب الدينية وكنت أكتب مقالات في مجلة «مكتب التشيع» التي كان يشرف عليها المرحوم الشهيد محمد جواد باهنر والشيخ هاشمي

رفسنجاني والمرحوم محمد رضا الصالحي الكرماني والسيد محمد باقر مهدوي الكرماني.

والحقيقة أننا منذ أن انتهت مؤسسة «نجاة الشباب» وكان سماحتكم برغم من أشغاله في الليل والنهار وتخصصكم في العلم و(الفقه والأُصول) وبمساعدة سماحة آية الله السيد علي المحقق الداماد الابن المكرم لاستاذكم الجليل (المرحوم آية الله العظمى المحقّق الداماد) حيث قمتم بخلق آثار علمية مهمّة وفقاً لمقتضيات العصر وانسجاماً مع حاجات الشباب من الطلّاب، فلا أنسى أنني كنت لفرط السرور لا يقرّ لي قرار، وأتذكر بوضوح في تلك البرهة الزمنية أنّي كنت قد عقدت كل أملي فيكم وفي نشاطاتكم الدينية والعلمية (العقد الرابع عندما كانت لنا رحلات قصيرة وطويلة مع سماحتكم وكنت معكم وفي خدمتكم ليل نهار، وأتذكر من جملة الأسفار التبليغية في شهر رمضان ١٣٤٢ هـ ش سفري إلىٰ عبادان بمصاحبة الشيخ هاشمي الرفسنجاني (حيث بدأ بإصدار صحيفة سرية ثورية باسم «بعثت» وقد تمّ إغلاقها في تلك الفترة وفي ذلك الزمان).

لابدّ أنّكم تتذكرون أوقات السحر في شهر رمضان المبارك حينما كنّا في منزل «المرحوم الحاج غلام علي الخرّمي» وكانت هناك محاروات مفيدة وبناءة في مجالالثورة الإسلامية وعملية التجديد وضرورة التغيير في أنساق الحوزة العلمية في قم وكذلك النكات اللطيفة والجذّابة للشيخ هاشمي الرفسنجاني وتأثركم الشديد بمناجاة «علي جانم، علي جانم» وغيرها.

في ذلك السفر وقفت بصورة أوضح وأفضل على قابلياتكم وبُعد نظركم في مجال الإصلاحات وعملية التغيير الجذري وواقع التجديد في الحوزة

وقد سمعت منكم مطالب شيّقة ودقيقة كفيلة بتحسين الأوضاع تماماً.

وأيضاً استميحكم عذراً في العودة إلى العقد الرابع واستجلاء بعض أفكاركم الجديدة ومشاريعكم الإصلاحية «التي تعدّ في ذلك اليوم بديعة تماماً وليس لها سابقة في الحوزة العلمية» وأُشير هنا إلى بعض هذه الموارد:

تتذكرون حتماً أننا كنّا نجلس جلسة أُخرى بعد انتهاء الجلسات المذكورة تحت عنوان «ماذا نعرف عن الإسلام؟» وقد كانت قصيرة العمر، وكما قلتم عن أحد أعضاء الجلسة المؤثرين الذي يريد القفز فوق الحبال وكانت الظروف حينذاك غير مواتية، فكانت ثمرة تلك الفترة التي تناهز العامين هي كتابين فقط: «المرأة والانتخابات» و«البلايا الاجتماعية للقرن الحاضر»... وفي هذه الجلسات استطعت أنا والآخرون أن نتعرف أكثر على أفكاركم الجديدة واطروحاتكم البديعة والخلّاقة.

كنت تقول: ليس لدينا سوى العمل على خلق نهضة «رنسانس»، ومن أجل أن لا يختلط المقصود مع نهضة الإصلاح الديني في الغرب قلتَ مضيفاً: إنّ مقصودي هو اجراء تغيير في البنية الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية للأُمة الإسلامية بالاعتماد على القيم والمبادىء والتعاليم الدينية» لا إصلاح الدين، الذي يعني إجراء تغيير في نفس الدين وأُصوله وماهيته ومحتواه.

وهذا ما حدث في أجواء العالم المسيحي في نهضة «رفورماسيون» وحركة «البروتستانتية».

لقد طالعت من خلال كتبكم وتأليفاتكم حالة «الاستغراب» وتبعية بعض شبابنا المثقفين للغرب قبل أن أقرأ كتاب «الاستغراب» للسيد جلال آل أحمد «وذلك في مقالات متعددة في مجلة «مكتب اسلام» ويتذكر سماحتكم أنني

كنت في أحد الجلسات الاسبوعية لعلماء عبادان «في أيّام الجمعة» أتحدّث في محاضرة مطولة تقريباً عن هذا الموضوع وكنت أستشهد بكلماتكم في تلك المقالات وكذلك بكتاب «الاستغراب» القيم للسيد جلال آل أحمد...

إنّ سماحتكم في الوقت الذي تشعرون فيه بالألم والتأسف على تخلف المجتمعات الإسلامية وما أصابها من انحطاط وذبول وتقهقر وعلى الرغم من أنّ هذا الوضع الفعلي مؤيد من قِبل أغلبية المتحجرين الذين يعيشون الماضوية في أجواء الحوزة العلمية، ولكنكم كنتم تشعرون بضرورة إجراء تغيير جذري لحالة التأخر والتخلف الحضاري والثقافي والتصدي لتسلط الأجانب على نمط التفكير لدى المسلمين وقراءتهم المنحرفة والمشوهة عن الإسلام.

لقد قررتم وذكرتم بصراحة وبشجاعة أنّ الأفكار السائدة بين الناس وحتى بين الكثرة من الخواص ملوثة بأنواع الخرافات والنقائص والبدع ومعالم الانحراف عن الصراط القويم وكنتم تعتقدون أننا ينبغي علينا العمل على إزالة بعض التابوات شبه الدينية والخطوط الحمراء المجعولة بعنوان عقائد دينية متداولة في أجواء العرف الاجتماعي قبل إحداث أي ثورة في الاطار الاجتماعي والسياسي، فيجب إصلاح الرؤية الكونية التقليدية «الممتزجة مع الخرافات والجعليات» بشكل سريع وبناء.

وأخيراً قام سماحتكم ولأول مرّة بعد تأسيس الحوزة العلمية في قم بتعريف الشخصيات الكبيرة في عالم الإصلاح الديني مثل «السيد جمال الدين الأفغاني» و«الشيخ محمد عبده» و«الكواكبي» و«كاشف الغطاء» و«السيد شرف الدين» وأمثالهم إلى شبابنا المتوقد في الحوزة العلمية في قم وبالإستلهام من أفكار هؤلاء العظماء في مسألة «إحياء الفكر الإسلامي»

قمت بهذا المشروع الإصلاحي حيث رأيت بعد ثمان سنوات هذا العنوان وهذه الحركة الإصلاحية في تأليفات الاستاذ الشهيد مرتضى مطهري...

ومن أجل أن أضعكم أمام الواقع الملموس أو الأكثر موضوعية ومصداقية فانّي أُذكِّر سماحتكم بالأفكار الإصلاحية التي كنتم تتبنّونها فعندما اعترض بعض رفاقكم في تلك الجلسة على أُسلوب عمل بعض الأعاظم في الحوزة العلمية قلتم له:

«إنّ الانتقاد والاعتراض على الأشخاص لم ينفعنا شيئاً ولن يداوي جرحاً، بل يجب العمل على تغيير المعايير الحاكمة على الحوزة لتحقيق التحوّل المطلوب في واقع الأفراد أنفسهم».

وعلى أيّة حال فانّ الكثير من تأليفات سماحة الاستاذ (دام ظله) شاهد على إمكان تزريق الدين في شرايين المجتمع الإنساني وبالتالي إدغام التصديق الديني والإيمان القلبي مع الفراسة الاجتماعية، وبهذا يساهم «**التحقيق الديني**» في حلّ «**المعضلات الثقافية والاجتماعية**» حتى لدى أشّد المذاهب والأديّان جموداً وتقليداً، وبهذا أثبتت عملاً أفضلية مداد العلماء على دماء الشهداء.

إنّ كتب الاستاذ وتأليفاته من قبيل «**خالق العالم**»، «**كيف نتعرف على الله**»، «**أشباه الفلاسفة**»، «**سلسلة جيل الشباب**» ومجلّة «**مكتب اسلام**» **وغيرها**، تعد شاهد صدق على هذا المدّعى، بحيث يتحدّث سماحته في هذا المجال ويقول:

«نحن مع بعض الاخوة كنّا في المجلة نكتب تحت عنوان «مطبوعات» وكنّا نشرف على المطالب والمواضيع التي تنشر في سائر الصحف والكتب الأُخرى، وخاصة تلك الصحف والكتب التي تتحرك في خط الانحراف والمواجهة مع الدين، فكنّا نتصدى لمثل هذه الكتابات ونسعى إلى إصلاح الخلل في هذا النمط من التفكير، وكانت حركتنا هذه مؤثرة جدّاً في الذهنية

العامة وكانت لنا ذكريات جميلة منها».

مداد العلماء واقعاً أفضل من دماء الشهداء:

ويتحدّث سماحة الاستاذ فيما يتعلق بتأثير القلم الكبير في وعي الأُمة ويقول:

إنّ جملة «مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء» قد عشت مضمونها ومحتواها بجميع وجودي ورأيت كيف أنّ كتاباً واحداً بإمكانه انقاذ الإنسان من الموت المعنوي وحتى الموت المادي ويغيّر كلياً من مصيره، فقد كان لنا صديق في عبادان وقيل أنّه كان في السابق من دعاة الماركسية الفاعلين، فقرأ كتاب «أشباه الفلاسفة»، فكان يقول بعد: «إنني قرأت هذا الكتاب ثلاث مرّات ويجب أن أقرأه سبع مرّات أُخرى ليكون المجموع عشر مرّات، إنّ هذا الكتاب أنقذني وغيّر حياتي بصورة كاملة» وهناك الكثير من الأفراد يذكرون في رسائلهم أنّهم كانوا يرومون الانتحار بسبب ما يعيشونه من عقد فكرية وتشويشات عقائدية فلم يبق أمامهم سوى هذا الحل، ولكننا كنّا نكتب في جوابهم بأنّ الانتحار هو «آخر ما يعمله الإنسان في نهايةالخط ولكن في الوقت متسع، فقبل أن تقدموا على مثل هذا العمل اعملوا بتوصياتنا» ثم نوصيهم ببعض الوصايا ونرشدهم إلى بعض الأُمور وأحياناً يكون الكتاب بمثابة الدواء الشافي والبلسم الراقي لحلّ المشكلة، فنبعثه إليهم وبعد اطلاعهم عليه يتحوّلون روحياً إلى شخصيات إيجابية تماماً، وأساساً فإننا نوصي الاخوة في الكثير من الرسائل أن يرسلوا إلى أصحاب الرسائل كتباً مفيدة، وهذه الكتب تمثل العلاج الناجع لشفائهم من أزماتهم المعنوية والروحانية».

تربية حراس العقيدة:

إنّ حراسة سماحة الاستاذ لحدود العقيدة والدين وصلت إلى غـايةالعـمق والأهـميّة عندما تجاوزت حدود الحراسة الفردية وارتقت إلى مستوى الحراسة الجماعية، وبـتعبير أفضل: «مستوى تربية حراس المذهب»، أي أنّ سماحته تحرك على مستوى تشكيل لجان مختلفة في شتى المواضيع الدينية لتربية القوى الإنسانية والطاقات الشابة والفاعلة لغرض الإجابة عن الشبهات والمعضلات العقائدية والأخلاقية، حيث تحدّث سـماحته فـي مـا يتعلق بهذا المجال وبقوله:

«من جملة الدروس التي شرعنا بها في الحوزة العلمية في قم هو درس العقائد والكلام الجديد، ومقصودي من الكلام الجديد هو ما نراه في العصر الحاضر من تيارات ومذاهب فكرية وعقائدية مـختلفة، فـهناك مـذاهب لم تكن موجودة في السابق أو كـانت ضـعيفة جـدّاً ومـن جـملتها المـذاهب الالحادية والمادية، وبعبارة أُخرى: هؤلاء الذين لا يقبلون أي دين ومذهب وحتى ينكرون وجود عـالم مـا وراء الطـبيعة مـضافاً إلى وجـود مـذاهب مصطنعة ومدارس فكرية مجعولة حيث نعلم أنّ الكثير منها تمثل ثمرة وجود الاستعمار في عالمنا الإسلامي من أجل حفظ مـنافعه اللامشـروعة، ومـع الالتفات إلى أنّ الإنسان يعيش في أعـماق نـفسه المـيل الفـطري للـدين والالتزام الديني من جهة، ومن جهة أُخرى فانّ الأديان السماوية الحقة تقف ضد منافع المستكبرين، فهؤلاء يتحركون وراء إيجاد مذهب ومدرسة فكرية بإمكانها إشباع هذه الغريزة الفطرية في الإنسان إشباعاً كـاذباً وفـي نـفس الوقت تلتقي مع منافع المستكبرين، ومن جهة أُخرى لابدّ من الانـتباه إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ المجتمعات البشرية تـرتبط فـيما بـينها فـي العـصر الحاضر بأكثر من رابطة قوية، ومن شأن وجود دين صحيح في منطقة مـن مناطق العالم أن يسري إلى المناطق الأُخرى وينفذ إلى مـجتمعات بشـرية

أُخرى، ومن مجموع هذه الأُمور نرى أنّ الحوزة العلمية لا يمكنها أن تقف مكتوفة الأيدي أمام تحركات هؤلاء المغرضين، بل يجب طرح هذه الأفكار والمذاهب على بساط البحث والمناقشة وتحديد موقف الإسلام منها بشكل مستدل ومنطقي.

ولهذا السبب قمت بتشكيل جلستين: إحداهما تختص بدرس العقائد حيث يتمّ استعراض الكلام الجديد والقديم فيها، وشرعنا بتدريس أول مسائل علم الكلام، وبما أنّ هذا الموضوع يعتبر جديداً في الحوزة فإنّه وقع مورد استقبال كبير بين الطلّاب الأعزاء، وبالطبع فمن اللازم أن أقول أنّ هذا الدرس كان يتمّ فقط في ليالي الخميس واستمر لأكثر من ثلاثين جلسة حيث تمّ فيها بيان مواضيع مهمّة من العقائد والتيارات الفكرية والمذاهب الفلسفية الأُخرى وتمّ تحقيقها ودراستها بصورة منطقية تماماً، وهذه البحوث استمرت لأكثر من ثلاثين سنة وأدّت إلى حصيلة علمية خصبة استطعت أن أجمعها على شكل كتاب، وبما أنّ هذه البحوث قد طرحت أمام الطلّاب والفضلاء في الحوزة العلمية وكان الدرس يتضمن أسئلة وأجوبة فلهذا تعمقت هذه الدروس أكثر، ومن جملة الكتب التي أثمرت عنها تلك الجلسات هو كتاب «خالق العالم» و«كيف نتعرف على الله» و«زعماء العالم» و«القرآن والنبي الخاتم» و«المعاد والحياة بعد الموت» و«الإمام المهدي والثورة العالمية» وكتب أُخرى أيضاً، والكثير من الطلّاب والفضلاء في الحوزة العلمية عندما يأتون إليَّ يتحدّثون معي عن تلك الجلسات أو كما يقولون: يتذكرون الاستفادة العلمية التي حصلوا عليها من تلك الجلسات والدروس.

الجلسة الأُخرى كانت عبارة عن مجلس خاص يشترك فيه ثلاثون شخصاً تقريباً من الشباب الفضلاء الأذكياء، وقد عملت على تقسيم هذه الجماعة إلى

ثمان مجاميع، كل مجموعة تتشكل من ثلاثة إلى أربعة أشخاص يتكفلون بمطالعة أحد المذاهب والأديان السائدة في المجتمعات البشرية، فبعض يبحث في الفكر المادي ويحقق في المذاهب والتيارات المادية، وبعض آخر يبحث في المذهب الوهابي، وهكذا بالنسبة إلى اليهود والنصارى أو الفرق الصوفية أو مذاهب أهل السنة أو البوذائية، ولكل مجموعة كتب معينة ومصادر علمية يرجعون إليها في مقام التعرف على ذلك المذهب، وكل مجموعة أيضاً تعقد جلسة خاصة ويتداولون فيما بينهم المواضيع والمعارف التي حصلوا عليها ثم يكتبونها في كراس أو رسالة علمية، وأخيراً يشتركون في جلسة مشتركة في ليالي الجمعة ويطرحون مسائلهم في حضوري وتقرأ كل مجموعة ماكتبته على هذه الجمعية المشتركة ويتمّ مناقشتها ونقدها، وهذا العمل بحمد الله أثمر كثيراً واستقبله عامة المثقفين بصورة جيدة وكانت حصيلة تلك الجلسات كتب متعددة من هؤلاء الاخوة المشتركين في هذه الجلسات حيث تمّ طبعها ونشرها.

لقد أدّت هاتان الجلستان إلى إيجاد تغييرات كبيرة في مناهج الحوزة العلمية وخاصة بالنسبة إلى جيل الطلبة الشباب في المسائل الكلامية والاعتقادية وفتحت أمامهم أبواب بحوث جديدة في دائرة العقائد الإسلامية حيث دخلت الحوزة أجواء جديدة من الأفكار والفلسفات الأُخرى.

وأنا لا أدّعي أبداً أنّ هذه النتائج والمعطيات هي حصيلة جهودي فقط بل إنّ الكثير من الفضلاء والعلماء ساهموا في خلق هذا الجو العلمي وأنا بدروي ساهمت معهم، وبحمد الله كانت معطيات هذه الجلسات مثمرة وجيدة للغاية».

ربّما يكون الكتاب مسلماً أيضاً:

ولا بأس أن نشير هنا إلى مساحة أُخرى من مساحات فكر الاستاذ الجوال وحراسته للمذهب واشرافه على مجريات الأُمور في أجوائنا الثقافية والدينية «ويعكس هذا المعنى، الطبع السيّال والسلامة الفكرية والذهنية لسماحة الاستاذ وقدرته على تنقية أجوائنا الثقافية وتبديلها نحو الأحسن» وهي عبارة عن الاشراف على الكتب المفيدة التي تتضمن أحياناً بعض موارد الانحراف وتمتزج بمفاهيم لا أخلاقية وغير منسجمة مع منظومة المفاهيم والقيم الإسلامية، ولابدّ من تطهيرها وتهذيبها، والأفضل أن نستمع في ذلك إلى الاستاذ نفسه:

«كما أنّ البشر يصير مسلماً وموحّداً فالكتاب كذلك أحياناً يكون مسلماً موحّداً، أي أنّ هناك بعض الكتب الجيدة والنافعة وتتضمن مواضيع نافعة ولكنّها أحياناً تتضمن بعض المنزلقات الفكرية والالحادية أو مضادة للأخلاق الإسلامية، فمن اللازم تهذيب مثل هذه الكتب وتطهيرها عن الشوائب لتكون مؤمنة وموحّدة ومفيدة، ومثال ذلك: كتاب لمؤلفه الامريكي «ديل كارنجي» هذا الكتاب مفيد جدّاً للأشخاص الذين يعيشون تعقيدات فكرية وأزمات روحية فيقوم بحلّ هذه العُقد ويورثهم السكينة والطمأنينة.

ولكن مع الأسف يتضمن بعض موارد الانحراف أحياناً، وأساساً فانّ هذا الكتاب يعكس ثقافة الأمريكيين وليس له تأثير إيجابي في أجوائنا الإسلامية، وقد قدمت الكتاب لأحد الاخوة وعرضت عليه طريقة تهذيبه وتطهيره من الشوائب والنقاط السلبية مع الاحتفاظ بجميع الجوانب الإيجابية والأُمور المثمرة، وبعد أن كتبت له مقدمة طويلة نسبياً قمت بنشره تحت عنوان «طريق التغلب على القلق واليأس» وكانت لهذا الكتاب أصداء جيدة ومؤثرة في واقعنا الاجتماعي وأنقذ الكثير من الناس من دوامة الأزمات الروحية والفكرية، ويعد هذا الكتاب من جملة كتبنا النافعة في

شفاء النفوس ومعالجة التعقيدات الروحية لدى الأفراد، فعندما يواجه هؤلاء الأفراد هذه الحالات والأزمات النفسية فانّهم يكتبون إلينا بذلك ونقوم بدورنا بإرسال نسخة مجانية من هذا الكتاب إليهم ونوصيهم بقراءته أكثر من مرّة من أوله إلى آخره بدقّة والعمل بتوصياته، والغالب أنّه مثمر وذو نتائج إيجابية في حياة الإنسان».

ضرورة يقظة الفئات السياسية:

وعلى أيّة حال فانّ الاستاذ (دام ظلّه) يمثّل الحارس اليقظ للإسلام في مقابل خطط الأعداء ويقرأ بعض المسائل والأُمور التي نجدها حية وفاعلة بعد مضي سنوات عديدة من انتصار الثورة الإسلامية ويقولون:

«إنّ الأشخاص الذين يستمعون إلى أخبار الاذاعات الأجنبية التي تبث أخبارها باللغات الأجنبية يقولون: إنّ هذه الاذاعات قد تركت الحديث عن تجربتهم المرّة في اجهاض الثورة الإسلامية في ايران، وجمعوا قواهم حول محور إيجاد الفرقة وخلق فئتين: معتدلين وإفراطيين، وهم يتحركون لإشعال نار الفتنة بين الفئات والتيارات السياسية، ولا يبعد أن يكون ذلك قسماً من مخطط شامل وواسع تجاه الإسلام والثورة الإسلامية.

إنّ هذه الحقائق المرّة تبعث فينا اليقظة والانتباه إلى ضرورة رفع مستوى الحذر من مخطط الأعداء، ولنعلم أننا قد حضرنا إلى الميدان بجميع وجودنا وتراثنا وقيمنا ومبادئنا، (فلا سمح الله) إذا أصابتنا هزيمة فاننا سنفقد كل شيء، ويجب علينا الارتفاع بمستوياتنا الثقافية في نطاق القضايا السياسية والحكومة الإسلامية، ونبتعد عن كل شيء يؤدّي بنا إلى الفرقة ونتحمل كل

ألم ومشقّة في هذا السبيل»[١].

السيد «آرمسترانگ»:

لقد كان سماحة الاستاذ متديناً غيوراً بحيث إنّه لم يكن يسكت حتى عن الطعن الخفيف وكلمات الاستهزاء من قبل الأعداء، وكتب قبل أربعين سنة يقول:

«قبل فترة صعد السيد «آرمسترانگ» و«رفاقه» وسافروا حول العالم وأبلغوا الشعوب في جميع البلدان ومنها شعبنا في ايران رسالة المحبّة لرئيس أمريكا، واستثمروا هذا التطور العلمي والفتح التكنولوجي بأكثر ما يمكن من الاستخدام السياسي في جميع أرجاء العالم، ونرى في هذه الرسالة الحكيمة لهؤلاء نكات دقيقة وظريفة تعكس مدى الطفولة الفطرية التي يعيشها هؤلاء حيث قالوا: عندما حلّقنا إلى أجواء السماء فاننا استلهمنا هذا الطيران في آفاق السماء من قصّة «بساط سليمان» التي يتحدّث بها أهل الشرق، وفي الواقع يحق لنا أن نعجب كثيراً من هؤلاء.. أولاً: إنّ بساط سليمان قبل أن يكون حكاية من تراث الشرق فهذه الحكاية موجودة في تراث الغرب أيضاً، فما هذه الحيلة والمكر؟ ثانياً: ما هي العلاقة بين بساط سليمان وطيران «مركبة آپولو» إلى القمر؟ ثالثاً: إذا كنتم صادقين فيما تقولون فلماذا لا تتحدثون بدل هذه الكلمات المضحكة عن استفادتكم من العلوم والمعارف التي انتقلت إليكم من آسيا من بلاد الإسلام؟ إنّ قائمة العلوم التي يدين بها الغرب إلى الشرق كما يقول المؤرخ الشهير «ويل‌ديورانت»: «إنّ الإسلام كان يمثّل الحضارة الإنسانية السامية خلال خمسة قرون (من القرن الثاني إلى القرن السادس الهجري) من حيث القوة العسكرية، النظم، سعت البلاد، الأخلاق الحسنة، الرقي في المعيشة، القوانين

١. «طرح حكومت اسلامى»، ص ٧ (بالفارسية).

العادلة الإسلامية، حسن السلوك مع أتباع الأديان الأُخرى، الآداب والتحقيقات العلمية في مجال الطب والفلسفة والعلوم الأُخرى» وكما يقول المستشرق المؤرخ المعروف «گوستاولوبون»: «... إنّ النفوذ الفكري للمسلمين فتح أبواب المعرفة في مختلف العلوم والفنون والفلسفة أمام الاوربيين الذين كانوا يعيشون الجهل بهذه المعارف، فكان المسلمون إلى ستمائة سنة بمثابة الاستاذ والمعلم لنا نحن الاوربيين» لماذا لم تذكروا هذه الحقائق؟!...»[١].

العصر الجديد يستدعي عرضاً جديداً للدين:

إنّ سماحة الاستاذ ببصره الثاقب ونظرته الفاحصة في أُمور الدين لم يغفل عن دور الدين البنّاء في حياة البشر، حيث كان يتحدّث قبل خمس وعشرين سنة عن «دور الدين في حياة الناس، الدين يمثّل دعامة أُصول الأخلاق، دور الدين في التصدي للتحديات الصعبة في حياة البشر، الدين أداة للتصدي إلى الفراغ الآيديولوجي، الدين وسيلة لتقدم العلوم والمعارف، الدين أهم وسيلة لمكافحة التمييز العنصري والطائفي» وكان سماحته يعتقد اعتقاداً راسخاً[٢] بمقولة: إنّ الإسلام دين حضاري وتقدمي وبإمكانه الإستجابة لجميع ما تحتاجه البشرية المعاصرة[٣]، وأخيراً فانّ الاستاذ كان يعيش ثورة فكرية وروحاً إصلاحية وفكراً جديداً يقترن مع الابداع والابتكار في عرض القضايا الدينية في أجوائنا الثقافية المتغيرة، ويعتقد:

«إنّ تصادم الأفكار في عصرنا الحاضر، عصر ثورة الارتباطات والمعلومات الهائلة، أمر حتمي وغير قابل للاجتناب، إنّ صراع العقائد

---

١. «اسرار عقب‌ماندگی شرق»، ص ٥ ـ ٣ (بالفارسية).
٢. راجع كتاب «آنچه بايد از اسلام بدانيم»، ص ٩ (بالفارسية).
٣. راجع كتاب «پاسخ به پرسشهای مذهبی» (بالفارسية).

والحضارات في عصرنا أوسع وأعمق بكثير من الحروب العسكرية، ووجود أدوات الإعلام المتطورة والأجهزة الدقيقة في مجال نشر الثقافات قد زاد في مساحة هذا السجال والصراع الثقافي بحيث إنّ نصف سكان المعمورة «ملياري شخص تقريباً» يتمكنون من مشاهدة مباراة لكرة القدم مثلاً بهذه الأجهزه المتطورة فوراً وفي وقت واحد، أو يتمّ طبع مجلة أو صحيفة بعدّة ملايين من النسخ وتوزع في خمس قارات في العالم، ومن ذلك ندرك جيداً أهميّة صراع وتصادم العقائد من خلال الاستفادة من هذه الأجهزة المتطورة، ولإدراك أهميّة هذا الموضوع يكفي أن نعلم أنّنا إذا أردنا أن نعقد جلسة في كل يوم يبلغ عدد الحضار فيها ألف نفر فانّ توفير ذلك العدد الغفير من المستمعين سوف يستغرق ستة آلاف سنة، أي يستغرق جميع التاريخ البشري المرقوم، أو إذا أردنا طبع كتاب منذ بداية التاريخ البشري إلى الآن في كل سنة مرّة بمقدار مائة ألف نسخة، فستكون بمجموعها بمقدار نسخ أحد الصحف اليومية في بلادنا في الوقت الحاضر»[١].

الفكر الشاب وحلّ مشاكل الشباب:

في هذا الزمن الملىء بالضجيج والعجيج يعيش الشاب المسلم كالغريق المتشبث بخشبة في وسط أمواج المحيط المتلاطمة، والبعض ينظر إلى هذا الاضطراب والحيرة بمنظار متشائم ويعتقد أنّ ذلك من علائم الظهور، ولهذا يعتزل الساحة ويجلس في زاوية ويتصور أنّ هداية هؤلاء الشباب المرتدين والمنحرفين غير ممكنة، ولكن سماحة الاستاذ يرى جيل الشباب المعاصر بنظرة أُخرى، ويرى أنّ التشويشات الفكرية والشبهات الدينية لدى هؤلاء الشباب لا تعني بحالٍ الكفر والارتداد، ومن هنا تحرك سماحته لتأليف سلسلة

١. «انگيزه پيدايش مذاهب»، ص ٤ و ٥ (بالفارسية).

كتب في إطار عنوان «جيل الشباب»، وهي عبارة عن «**أسئلة وأجوبة دينية**» و«**ماذا نعرف عن الإسلام**» و«**معطيات الدين**» و«**أسرار تخلّف الشرق**» و«**الإسلام في دراسة مختصرة**» و«**الحياة في أجواء الأخلاق**» وغيرها، وكان يعتقد بأنّ المشكلة الأساسية التي تواجهنا هو نوع الإرتباط ونمط التصدي لهذه الشريحة من الناس «لا نفس هذه الشريحة» فينبغي الاهتمام بنحو الخطاب والحوار مع هذا الجيل، ولذلك نجد أنّ الاستاذ تحرك في كتابه «**المشكلات الجنسية للشباب**» على مستوى حلّ مشكلاتهم الجنسية ولم يكن يرى أننا نعيش أزمة مغلقة معهم وأنّ الطريق موصد أمامنا لحلّ مشاكلهم من موقع التفاهم والحوار، ويقول:

«يغط الآباء والأُمّهات في سبات عميق، ولا يبالى الشباب بالحوادث ذات الصلة بمصيرهم، وربّما يفكّر الأعم الأغلب بالهروب من مشاكلهم العضال بنسيانها أو التعامل معها باسلوب التريّث والتأنّي على حد قول الساسة، ويذهب آلاف الشباب الأبرياء ضحية هذا الإهمال؛ الأمر الذي يقود إلى تلوّث المجتمع وفساده وما يُثير الدهشة والذهول هو هذا الكم الهائل من الإجتماعات والندوات والمؤتمرات التي يعقدها عُلماء العالم سنوياً بغية دراسة المعادن والفلزات في باطن الأرض وأعماق البحار، وطبيعة الحيوانات الكائنة في مختلف المحيطات وحركة الرياح والهواء في طبقات الأرض، دون أن يتعرّضوا لمشاكل الشباب الذين يمثّلون الشريحة الفاعلة في المجتمع، وان أسعدهم الحظ بالتحدّث عنها فإنّما يتناولونها بصورة سطحية مقتضبة.

فما العمل يا تُرى مع هذه الأزمة؟

يشهد عالمنا المعاصر غياب سيادة العقل والمنطق والحقائق والواقعيات، والدوافع الشخصية والعاطفية وسائر العناصر القشرية هي التي تعين مسار

الأحداث والقضايا المهمّة، وإلّا فليس من الصواب أن تهجر مثل هذه الأزمة الى هذه الدرجة. والجدير بالذكر هو أنّ الإهمال الذي مارسه العُلماء والمفكّرون حيال هذه الأزمة ليس من شأنه الحؤول دون نهوض الشباب والآباء والأُمهّات بمسؤوليتهم التأريخية المُلقاة على عاتقهم، فقد يعذر البعض في عدم التفاته الى هذه القضية ولكن ما بال المعنيين؟ حقاً ليست هنالك مشكلة من بين هذا الكم الهائل من المشاكل التي يواجهها الشباب ترقى أهميتها لخطور المشكلة الجنسية، ومما يؤسف له أنّ هذه المشكلة آخذة في الازدياد والاضطراد تبعاً لتطوّر المكننة وآلات الحياة إلى جانب ازدياد مدّة الدراسة والدورات الفنية وتسلل وسائل التجمل والزينة إلى أوساط الأُسر والعوائل، بحيث انفصمت عرى الثقة بين الفتيان والفتيات.

لقد تعرّضنا صراحة في أبحاث هذا الكتاب إلى هذه المشاكل، كما أوردنا الحلول الناجحة بهذا الخصوص، وقد أثبتنا سهولة القضية رغم تصور البعض بأنّ المرض قد استفحل وقد سبق السيف العذل»[١].

على أيّة حال فلا شك في أنّ مسألة حل مشاكل الشباب (هذا الجيل الخلّاق والبنّاء) يحتاج إلى فكر فعّال وخلّاق أيضاً، ويقول الاستاذ في مقدّمة كتابه: «**أُسلوب الزوجية في الأُسرة الموفقة**»:

«إنّ مسألة تشكيل الأُسرة وقضية الزواج بالنسبة للشباب تعدّ في هذا الزمان من أعقد القضايا الاجتماعية الحادّة، ونادراً ما نجد في أُسرة فيها بنت أو ولد شاب لا يشكو من هذا الموضوع، إنّ هذه المسألة المهمّة والبسيطة فى نفس الوقت قد غرقت في دوامة من المشاكل المعقدة والظروف الصعبة وأضحت بشكل مارد موحش للشباب، فالكثير من البنات بقين عوانس في

١. المشاكل الجنسية للشباب، ص ٥ ـ ٧.

البيوت ينتظرن الزواج ولا يواجهن أيّة مشكلة أساسية في طريق الزواج ولكن هناك موانع غير قابلة للنفوذ والعبور تقف سدّاً مانعاً أمام مثل هذا الزواج، ومن جهة أُخرى فهناك الكثير من الأبناء في سن الشباب والممتلئين بالنشاط والحيوية ويحدوهم الأمل بتشكيل أُسرة إلّا أنّهم يقفون في أول الطريق وفي مواجهة الأعراف والتقاليد الاجتماعية القبيحة والعادات الخاطئة التي توصد عليهم الباب وتمنعهم من هذا الأمر الحيوي وتصدهم عن الوصول إلى أهدافهم المنشودة في حركة الحياة... والمؤسف أكثر أننا نرى أنّ الأُسس الموضوعة لبناء صرح الأُسرة المسلمة قد وضعت خطأً، فمن هنا أصبح بناء الأُسرة يقف على قواعد مهزوزة ومعوجة، ولهذا يعيش أفراد الأُسرة الاضطرابات والهموم دائماً، في حين أننا نعلم أنّ المجتمع البشري عبارة عن مجموعة من هذه الأُسر والعوائل الصغيرة التي تمثل كل واحدة منها لبنة في صرح هذا البناء العظيم... ولهذا السبب لابدّ من العمل على تقوية الأُسس والبنى التحية للأُسرة لغرض الوصول إلى مجتمع كامل يقوم على أساس الوشائج الإنسانية والعلاقات المتينة بين الأفراد»[١].

صحيفة جيل الشباب:

وكذلك يتحدّث الاستاذ فيما يتعلق بسعيه من أجل رفع مشاكل الشباب ويقول:

«لقد أصدرنا مجلة أُخرى غير مجلة «مكتب اسلام» باسم «نجاة جيل الشباب» وهي أيضاً بدون ترخيص رسمي وصارت بعد ذلك على شكل مجموعة كتب متنوعة وشاملة، والقسم الأعظم من مواضيع هذه المجلة كان بقلمي والقسم الآخر بقلم الاخوة العاملين معي، هذه المجلة كما يظهر من

١. «شيوه همسرى در خانواده نمونه»، ص ١٦ ـ ١٧ (بالفارسية).

اسمها، تهدف إلى استعراض قضايا الشباب وحل مشاكلهم وانقاذهم من مستنقعات المفاسد الأخلاقية التي كانت منتشرة في ذلك الزمان، وهذه المجلة تتقاطع مع المنهج السائد لدى الجهاز الحاكم في زمان الشاه، بحيث أنّهم كانوا يشعرون بحساسية فائقة من كلمة «نجاة جيل الشباب» ويقولون: النجاة من أي شيء؟ وما هو الخطر الذي يهدد الشباب في هذا المجتمع بحيث تريدون انقاذهم منه؟ وأُضيف أيضاً أنّهم كانوا يهدفون إلى إضلال الشباب وإيقاعهم في خط الباطل والانحراف والفساد لأنّهم كانوا يعلمون أنّ الثورة الإسلامية تقوم على أكتاف هؤلاء الشباب، فلو أنّ الشباب سلكوا خط الفساد والانحراف الأخلاقي فإنّهم (الجهاز الحاكم) سيحقّقون هدفهم وينالون مرادهم، وعلى هذا الأساس كانوا يشعرون بالخوف من اقدام البعض على انقاذ جيل الشباب، وعلى أيّة حال فانّ الناس استقبلوا هذه المجلة استقبالاً كبيراً لا سيما الشباب، وكنت أشعر بالسرور لذلك، حيث كانت تصلني رسائل كثيرة من قبل الشباب كنت أشعر بالأمل من جهة، ومن جهة أُخرى كانت تحكي عمق الفاجعة التي أصابت شبابنا في ذلك الزمان، وأحد النشاطات المهمّة هو اهتمامنا بالإجابة عن أسئلة الشباب، ولابدّ من القول إنني طيلة هذه المدّة وبسبب اهتمامي الكثير بهذه المسائل أصبحت تدريجياً متخصصاً في قضايا الشباب وعارفاً بما يعيشونه من أفكار وحالات روحية، وأقول أيضاً إنّ هذه المعرفة والتجربة في هذا المجال مؤثرة كثيراً في إصدار الفتاوى المتعلقة بالشباب في هذا الزمان، وأسعى إلىٰ إصدار فتاوى تساهم في حلّ مشاكل جيل الشباب وما يعيشونه من تعقيدات اجتماعية من خلال الاستعانة بالأدلة الشرعية، وأشكر الله تعالى علىٰ أنّ اهتمامي بقضايا الشباب قد فتح لي نافذة على التعرف على هذه

الشريحة الفعّالة والحساسة في المجتمع وأُساهم بدوري من موقع الإفتاء وبملاحظة الأدلة الشرعية في حلّ ما يواجهونه من أزمات وعُقد في حياتهم».

الرؤيا الصادقة للمرحوم التربتي:

في ختام هذا الفصل نشير إلى الرؤيا الصادقة التي نقلها بعض الفضلاء[١] مباشرة عن الواعظ المعروف المرحوم التربتي رحمه الله يقول:

«لقد ذكر المرحوم التربتي هذه الحقيقة على المنبر، وقال: رأيت في عالم الرؤيا نهراً يصبّ ماؤه بسرعة في مستنقع ملوث وآسن، والعجيب أنّ هذا النهر كان يحمل قلوب كثير من الناس وهي متجهة نحو المستنقع ورأيت مجموعة من فضلاء الحوزة المعروفين يأتي أحدهم بعد الآخر ويأخذ بسرعة هذه القلوب ويغسلها ويخرجها من النهر لكيلا تقع في المستنقع، ولكنني لم أعرف من هؤلاء الأشخاص سوى رجل واحد وهو مكارم الشيرازي».

وكان المرحوم التربتي في تلك الفترة يتحدّث بهذة الرؤيا بعنوان أنّها رؤيا صادقة حيث يدور كلامه في ذلك اليوم حول محور القلب والآفات التي تسبب تلوثه وانحرافه ومسائل من هذا القبيل.

---

١. حجةالإسلام والمسلمين حسين الطوسي (دام عزّه).

١٤

التحرر الفكري، والاعتماد على النفس، الشجاعة وعلو الهمة

بالرغم من أنّ وضع تقرير من تقريرات الاساتذة كمحور لدروس البحث الخارج في الأُصول يعدّ أمراً شائعاً، والكثير من أساتذة الدراسات العليا «البحث الخارج» في الحوزة العلمية يقررون في دروسهم تقريرات أساتذتهم أو يجعلونها محوراً لبحوثهم، ولكن في نفس الوقت نرى سماحة الاستاذ ينطلق في درسه للأُصول بشكل مستقل وحرّ حيث يبحث عن أهم الآراء الموجودة في المسألة بعد استعراضها، وذلك يعني بوضوح أنّ تفكير الاستاذ لا يميل إلى أي جهة معينة.

إنّ هذا المقدار من الشهامة والحرية الفكرية والاعتماد على النفس يعتبر مثالاً بالنسبة للطالب الذي يدرس الدراسات العليا حيث يخرج من إطار الدراسة وفق متن معين (كما هو الحال في مرحلة السطوح) وبذلك يمنحه الجرأة والاعتماد على النفس والنظر في جميع الآراء والأقوال في مسألة معينة ونقدها، وهذه الحالة يتميز بها سماحة الاستاذ أيضاً في درس تفسير نهج البلاغة حيث يتعامل في بحثه هذا مع شروح وتعليقات متنوعة ويتحرك في هذا التفسير من موقع الاعتماد على النفس والتحليل الدقيق.

نور الشهامة وعلو الهمة:

ما تقدّم آنفاً يتعلق بأمر التحقيق والتدريس في دائرة البحوث التخصصية للحوزة

العلمية، وينطلق سماحة الاستاذ كذلك في دائرة البحوث الاجتماعية والتصدي السياسي من موقع الاعتماد على النفس ونور الشهامة وعلو الهمة التي يتمتع بها سماحته، حيث يقول في هذا المجال:

«في احدى المرّات التي أخذوني فيها إلى مقر «السافاك» بسبب مجلة (مكتب اسلام)، بدأ رئيس شرطة السافاك، الذي كان رجلاً همجياً ومتوحشاً، بالصراخ والتهديد، وأنّك بأي حق تقوم بإصدار مجلة بدون ترخيص رسمي في هذا البلد ولذلك فانّي سأُعاقبك بشدّة، ولكنني أجبته ببرود: نحن تقدمنا بطلب ترخيص رسمي للمجلة، ونحن الآن على وشك الانتهاء منه، وفجأة رأيت هذا الرجل الخشن مع كمال العجب تغيّرت سحنته وبدأ يتحدّث من باب آخر بكل محبّة وصميمية (وفي الواقع كان هذا حيلة ومصيدة) فقال: «أنا سوف أُعطيك امتياز المجلة، فلماذا لا يسمح هؤلاء الأغبياء بإصدار مجلة دينية ومَن يمنع من ذلك؟ كلّا فانني سأقوم بإصدار هذا الترخيص وعليك أن لا تقنع بإصدار هذه المجلة باللغة الفارسية بل إصدار مجلة عربية أيضاً ونحن سوف نساعدك في ذلك» فرأيت أنّه بصدد وضع مصيدة لي ويتصور أننا سوف نمدّ يدنا لطلب المساعدة منه، وتنتهي المسألة إلى هذا الحدّ ولكنه غفل عن يقظتنا وأننا لا نقع في هذا الفخ... فقلت: إنّ آية الله العظمى السيد البروجردي هو المتكفّل لحماية ودعم هذه المجلة ويبذل كل مساعدة لازمة، ونحن أساساً لسنا بحاجة إلى مساعدة مالية، والمطلوب منكم فقط أن لا تمانعونا من ذلك ولا تقفون في طريقنا، فعندما رأى أنّ المجلة مؤيدة من مكان آخر أمسك عن كلامه وختم الجلسة».

القادة المجانين أو المجانين القادة:

والحكاية الأُخرى، التي تدلّ ـ مضافاً إلى الشهامة والحرية ـ على روحية التصدى للظلم وملكة الاستقامة والغيرة الدينية وعدم الاستسلام لدى سماحة الاستاذ هي كما يلي:

«وكذلك أتذكر جيداً أنني كنت أكتب مقالات شديدة اللحن في مجلة (مكتب اسلام)، وأتذكر بعض عناوين هذه المقالات، وفي احدى هذه المقالات كتبت بحثاً مفصلاً تحت عنوان «القادة المجانين أو المجانين القادة» وطرحت تحليلاً سياسياً قاسياً في هذا المجال، وهكذا في مقالة أُخرى بحثت مسألة احتفالات تحرير المرأة تحت عنوان «حصيلة ٢٧ سنة من التحرر» حيث استعرضت النتائج الوخيمة المترتبة على تحرر المرأة في عصر البهلوي، وعلى أيّة حال فإنّه تمّ اغلاق المجلة ثم سمحوا بانتشارها، ثم تحركوا من موقع الضغط على المجلة وأنكم يجب عليكم تقديم مواضيع المجلة قبل نشرها بأربعة وعشرين ساعة لكي نرى ما فيها من مواضيع. قلنا لهم لا يمكن ذلك، ونحن مستعدون لتوقيف المجلة بدل ذلك. فقالوا نكتفي بأربع ساعات فقط. فقلنا لا يمكن ذلك. ولم نستسلم لهم وبحمد الله استمرت المجلة بالصدور بكامل الاستقلال والعظمة والافتخار. إنّ الضغوط التي كان يمارسها آية الله العظمى السيد البروجردي وأساتذة الحوزة منعتهم من إطفاء نور هذه المجلة الذي كان يشرق في أجواء تلك الأيّام المظلمة وقد أدمنا بحمد الله هذه المسيرة».

بركات أُخرى للاعتماد على النفس:

وعلى أيّة حال إنّ هذه الحالة من الاعتماد على النفس عندما تقترن بالاحساس بالمسؤولية الدينية والاعتقاد بالأصالة الحوزوية بإمكانها أن تفضي إلى بركات كثيرة:

أولاً: بركات للاستاذ نفسه، ثانياً: بركات لمذهب الشيعة، ثالثاً: بركات للحوزةالعلمية.

أمّا ما يتعلق بسماحة الاستاذ نفسه فإنّه كان منذ عنفوان شبابه يتمتع بهذه الشجاعة وكان يتلو القرآن ويبحث في آياته الكريمة عن ضالته بدافع من الأُنس مع القرآن، ويتحدّث سماحته في هذا الصدد في مقدّمة كتابه: «**القرآن وخاتم الأنبياء**» ويقول:

«إنني بدوري مثل بقية الأفراد انطلقت في حركتي الفكرية منذ مرحلة البلوغ من موقع قطع الظوابط مع التقاليد السالفة للدخول إلى مرحلة الاستقلال الفكري، وكنت متلهفاً كثيراً إلى معرفة تفاصيل وتعاليم هذا الدين الذي يسمى «الإسلام» كما أخذناه من تعاليم الوالدين والمجتمع، وتحكيم العقل فيها وعرضها على ميزان العقل، هذا النمط من التفكير كان يمثل ضالتي وهدفي المنشود، وبعد كثير من التحقيق والدراسة لم أجد طريقاً للتعرف على هذا الدين أفضل وأحسن من الرجوع إلى الأصل والمنبع الحي لتعاليم الإسلام وهو القرآن الكريم»[١].

أمّا ما يتعلق بالمذهب الشيعي فانّ سماحته كان يمتلك الجرأة العالية في تأليف الكتب التي تتصدى للانحرافات الاجتماعية والأخلاقية منذ بداية شبابه حيث بدأ بتأليف كتابه «**تجلي الحق**» وإلى تفسير القرآن الكريم وشرح نهج البلاغة في الأعوام اللاحقة.

الإصلاح على مستوى الحوزة:

أمّا ما يتعلق بالحوزة العلمية فقد بدأ سماحته بعملية إجراء اصلاحات مع رفاقه وأصحابه منذ شبابه أيضاً، حيث يتحدّث لنا سماحته عن هذه الحكاية بعد بيانه نقاط القوة في الحوزة العلمية:

«بالرغم من وجود كل هذه الامتيازات ونقاط القوة في الحوزة العلمية، ولكن مع الأسف هناك بعض النواقص ونقاط الضعف فيها حيث كنت أراها

١. «قرآن و آخرين پيامبر»، ص ٨ ـ ٩ (بالفارسية).

وأعيشها منذ البداية، ومنها مسألة الامتحانات حيث لم يكن هناك امتحان للطلّاب مطلقاً وكنّا نأمل إيجاد امتحانات للدروس الحوزوية وبذلك يتمّ التعرف على الطلّاب الجيدين والمتميزين، ويتمّ تقوية الدوافع لدى الطلّاب وتفعيل ميدان المنافسةالإيجابية بينهم، وكذلك كنّا نأمل أن يكون هنا قانون ومقررات لمسألة لباس رجل الدين، فهذا اللباس المقدّس لا ينبغي أن يستغل من أي شخص أو يتمّ ارتداؤه بدون شروط. فلو رأينا ما يخالف هذا القانون فينبغي على مديرية الحوزة والمراجع تعقيب هذا الأمر وعدم المسامحة فيه.

وكنّا نأمل بإصلاح الكتب الدراسية في الحوزة وإدخال بعض الدروس الإسلامية المهمّة كالعقائد وتفسير القرآن الكريم والبحوث المتعلقة بالحديث في مناهج الحوزة وتفعيلها.

وكنّا نأمل فيما يخص المبلّغين أن يتّم ارسال أشخاص متمرسين وأصحاب تجربة إلى التبليغ للإسلام ويرسل للتبليغ إلىٰ خارج البلاد من يتقن اللغات الأجنبية.

وكنّا نأمل أن تحلّ مشاكل الطلّاب على مستوى المسكن والجهات الأُخرى، وفي المجموع كنّا نأمل وضع برنامج كامل يأخذ بنظر الاعتبار الجهات المختلفة لطلّاب الحوزة العلمية.

ومنذ أن كنت طالباً شاباً في الحوزة كنت أتذاكر هذا الأمر مع أصدقائي دائماً، وأتذكر جيداً حدوث واقعة مؤسفة في الحوزة أدّت إلى تحريك الأفكار باتجاه الاقدام على بعض الإصلاحات، وكان ذلك في زمان آية الله العظمى البروجردي حيث جلسنا مع الأصدقاء سوية، وقد استشهد بعض الأصدقاء ممن كان في تلك الجلسة فيما بعد كالمرحوم آية الله الشهيد

البهشتي وبعض الاخوة الذين تولّوا مناصب مختلفة في الحكومة الإسلامية سواء من طلّاب الحوزة أو غيرها، فجلسنا وتحدّثنا عن هذه المسألة واتفقنا أخيراً على ثلاثة اُمور نطلبها من آية اللهالعظمى البروجردي:

١ ـ مسألة تشكيل ملف خاص لكل طالب من طلّاب الحوزة يتضمن سوابقه ولواحقه وبرامجه الدراسية والتعليمية للتعرّف عليه من جهات مختلفة.

٢ ـ أن يتمّ تكريس البحوث والدراسات الأخلاقية في الحوزة بشكل أكبر، حتى لا يستغل بعض الأشخاص هذا اللباس المقدّس لتوجيه ضربة إلى الحوزة ورجال الدين وتكون هناك مقررات خاصة لارتداء هذا اللباس.

٣ ـ أن تشكل هيئة التهذيب والتزكية، فإذا قام أحد الأشخاص عالماً أو جاهلاً بالتحرك على خلاف شؤون الروحانية فيتمّ استدعاؤه وإرشاده، وإذا لم يقع هذا الأمر مؤثراً يتمّ طرده من الحوزة والمؤسسة الدينية.

وقدكتبنا هذه الاُمور مع مقدّمة شيّقة وقمنا بامضائها وبعد ذلك قلنا: إنّ من الأفضل أن نعرضها على بعض الفضلاء في الحوزة العلمية من الدرجة الثانية لقراءتها وابداء نظراتهم حولها حتى إذا استشارهم آية الله العظمى السيد البروجردي رحمه الله فانّهم سيكونون على علم مسبق بما تتضمنه هذه اللائحة، وتمّ ذلك فعلاً وانطلقنا على هيئة مجموعة لزيارة بعض الفضلاء والأساتذة في ذلك الزمان مثل الإمام الراحل رحمه الله والمرحوم آية الله العظمى الكلبايكاني رحمه الله وطرحنا هذا الموضوع أمامهم وطلبنا منهم تأييد هذه الاُمور بمحضر آية الله العظمى السيد البروجردي، ثم قدمنا الرسالة الأصلية إلى السيد البروجردي، ولكننا لم نقف بعد ذلك على النتيجة حيث ذهب البعض إليه وألقى في ذهنه مطالب مشوشة عن هذه الحركة الإصلاحية، وبالجملة

أظهروا له أنّ هذه الحركة المخلصة من قبل بعض الشباب والفضلاء المتحركين حركة مشكوكة وذكروا له أنّ من جملة الأشخاص الذين يقفون وراء هذه اللائحة هو الشيخ مكارم الشيرازي، فلم تمض مدّة إلّا وأرسل إليَّ آية الله العظمى البروجردي يستدعيني إليه، فلما ذهبت إليه قال: «أنا أعتقد أنّ الوضع في الحوزة العلمية جيد ولا توجد مشكلة فيما يتعلق بهذه الأُمور، فالطلّاب مستمرون في دراساتهم بشوق»، ومضمون كلامه أننا إذا أردنا إيجاد بعض الإصلاحات في برامجها فانّ الفساد في هذا العمل أكثر من نفعه، وبهذا أُطفئت هذه الجذوة بسبب سعاية بعض المغرضين، ولكنني كنت أبحث دائماً في هذه القضايا وأقول إنّ الحوزة العلمية في النهاية ستستجيب لهذه الحركة الاصلاحية وكنّا على يقين بانّ مرور الزمان والظروف الاجتماعية ستمد إلينا يد العون وسيأتي اليوم الذي تكون فيه هذه الأُمور من البديهيات والمسلّمات في أجواء الحوزة وفي ذلك الوقت يجب النهوض لإصلاح الخلل وتغيير البرامج والمساعدة في تطوير الحوزة».

وبعد أن ينقل سماحة الاستاذ هذه الواقعة، يشير إلى الظروف والمتغيّرات التي حدثت بمرور الزمان وجملة من الموفقيات والاصلاحيات التي سادت أجواء الحوزة حيث تقدم ذكرها سابقاً تحت عنوان «**النظم في جميع الأُمور**».

سرعة الانتقال في البحوث العلمية:

وفي ختام هذا الفصل نشير إلى ظواهر في حياة الاستاذ، وهي «**الاعتماد على النفس**» «**الارادة القوية**» و«**حدّة الذهن**» و«**سرعة الانتقال**» في مجال التأليف والتحقيق:

في البداية «**سرعة البداهة وحدّه الذكاء في البحوث العلمية**»:

لا شك أنّ الكثير من الموضوعات العلمية أصابها التورم والتضخم بسبب تضارب أفكار

العلماء لقرون متمادية وما نتج من عمق ودقّة في أجواء التحقيق في هذه القضايا، وبعكس ذلك هناك مواضيع كثيرة أيضاً تولدت في الآونة الأخيرة وبسبب كونها مستحدثة ولأسباب أُخرى بقيت بعيدة عن إعمال الفكر لدى الفقيه والاصولي، فهي مسائل لن يـمسها العـقل الفقهي بشيء في عملية الاجتهاد، ويصاب العالم المحقق عندما يرد في هذين المـجالين بالحيرة، فمن جهة يرى تضخماً خارقاً للعادة في بعض المسائل والبحوث يـؤدّي بـه إلى الغرق في دوامة الأقوال والآراء والأدلة المتناقضة ولا يجد طريقاً للخلاص من كل هـذه التعقيدات الفكرية أو الخروج بالنتيجة المطلوبة، ومن جهة أُخرى فـانّ المسـائل الخـام والبكر التي لم تبحث في سوق الفقه والاصول تواجه نقصاً شديداً في المواد الأولية فـي عملية البحث والاستدلال. فيجد الباحث نفسه أمام هذه المسائل مقيّد اليدين ولا طريق له إلى التوغل في أعماق هذه القضايا والبحث في فروعها وأغصانها، وهذه الملاحظة ليست خافية على كل من له اطلاع في عالم التحقيق والتأليف.

وهنا نواجه موهبة الاستاذ في هذا الشأن فانّ سرعة البديهة والشهامة والاعتماد على النفس لدى سماحته تجعله لا يتردد أو يصاب بالخشية من تضخم البحث وتعدد الآراء فيه، ولا جدّة المسألة وحداثتها تمنعانه من حركة ذهنه وتوغله فيها.

إنّ الظاهرة الأُولى فيما يخص البحوث المعقدة وجدها ثلة مـن طـلّابه والنـخبة مـن تلاميذه الذين يحضرون بحوثه الاصولية والفقهية في تقريراته في كتابين «**انوار الفـقاهة**» و«**أنوار الاصول**» المطبوعة، والخصوصية الثانية بالإمكان العثور عليها في كتابه «**المسائل المستحدثة**» وأيضاً «**القواعد الفقهية**» الذي أشرنا إليه سابقاً وأنّ المجلد الأول منه طبع قبل «**القواعد الفقهية**» للمرحوم المحقّق البجنوردي رحمه الله.

القدرة على المناورة الفكرية في جلسات التأليف:

من المسلم أنّ ذهن الإنسان الفرّار من جهة، وكذلك البحوث الجانبية التي تطرح فـي

مناسبات مختلفة من جهة أُخرى، يمثلان عاملين أساسيين لتعويق عملية التحقيق والتأليف واهدار الفرص وعدم الاستفادة الصحيحة من الطاقات في دائرة التأليف أو التحقيق.

أمّا العوامل التي يمكنها التغلب على هذين العاملين أو التقليل من تأثيرهما على الأقل فهي:

أولاً: الإرادة الفولاذية والعزم على الاستقامة التي يحصل عليها الإنسان من خلال الممارسة والتمرن الطويل والاعتماد على بعض القابليات الروحية والمواهب النفسانية، فالإرادة التي بواسطتها يتمكن المؤلف أو المحقّق من السيطرة على أفكاره وتصوراته الذهنية وكذلك تمنع من تدخل بعض الأصدقاء في الجلسة وطرح المواضيع غير الضرورية والمتلفة للوقت أو إيراد قضايا جانبية وضبط هذه الجلسة بجدية وبدون مسامحة وتساهل.

ثانياً: تعين أفضل الأوقات للتأليف والتحقيق، الوقت الذي يكون فيه ذهن الإنسان نشيطاً وقواه النفسانية مهيئة للعمل وبدون أن تشعر بالتعب، ومع الالتفات إلى التأثير المتقابل للقوى الجسمية والروحية، فالإنسان بإمكانه السيطرة على نفسه وإرادته.

الأشخاص الذين يرتبطون بالاستاذ (دام ظلّه) برابطة قريبة يؤيدون هذه الحقيقة، وهي تمتع الأستاذ بهايتن الخصلتين بصورة جيدة:

الإرادة الفولاذية:

أمّا الخصلة الأُولى، أي الإرادة الفولاذية لسماحته، فالواقع أنّ الأستاذ بمثابة (الجرّافة) الذي يحطم كل الموانع التي يجدها أمامه في دائرة العمل والتحقيق وحتى الموانع غير المتوقعة أحياناً حيث يمرّ عليها بكل شهامة وشجاعة وبرودة أعصاب، ولا يخفى على أي شخص هذه الحقيقة حتى أنّ البعض يرون في الاستاذ تجسيداً للعزم والإرادة، أمّا كيف حصل على هذه الإرادة القوية؟ فهو بحث آخر لابدّ من تفويض الجواب عنه إلى أهله.

أفضل وقت للتفكّر والتحقيق، زمان بين الطلوعين:

أمّا الخصلة الثانية، فالاستاذ يرى منذ سالف الزمان، أي منذ سنوات تأليف التفسير الأمثل القيم وإلى هذا الوقت الذي يشتغل فيه الاستاذ بتأليف التفسير الموضوعي «نفحات القرآن» والتفسير الترتيبي لـ «نهج البلاغة» أنّ أفضل ساعات لهذا العمل هي أول ساعات الصباح الباكر (السابعة صباحاً) وذلك في عملية «**التأليف الجمعي**» وأمّا ساعات التحقيق والمطالعة الشخصية فإنّه جعل ساعة «بين الطلوعين» لهذا الغرض باعتبارها أفضل الساعات.

عندما قرأت لأول مرّة مقالة في أحد الموضوعات السياسية في صحيفة الاطلاعات ورأيت أنّ الاستاذ استطاع بمهارة فائقة كتابة عشر ملاحظات في عمود الصحيفة ومع نظم جيد وترتيب منطقي وقلم جذّاب وسلس «بحيث يستغرق كتابة هذه المقالة للأشخاص العاديين عدّة ساعات من الفكر والتأمل قطعاً» فسألت الاستاذ متعجباً: متى كتبتم هذه المقالة، وكم استغرقت كتابتها من وقت؟ فأجاب: «**كتبتها عند وقت السحر أو بين الطلوعين، فانني أُخصص هذا الوقت وهذه الساعة لكتابة المواضيع التي تحتاج إلى خلّاقية وابداع ونفس هادئة وذهن فارغ من التشويش**».

وعندما سألته: هل تشعر في تلك الساعة وبسبب غلبة النوم بالكسل؟

فأجاب: «**لقد اعتدت على الاستيقاظ بين الطلوعين وحتى لو أردت النوم لا أتمكن من ذلك**».

وممّا يثبت وجود هاتين الخصلتين في روحية الاستاذ أننا لا نرى الكثير من العبارات في كلمات الاستاذ من قبيل: «**اليوم السابق**» أو «**يبقى إلى الجلسة اللاحقة**» أو «**لقد وعدت فلاناً**» أو «**ليس لي رغبة في هذا اليوم**»، ونرى في كلمات الاستاذ امتيازاً خاصاً في إدارة الجلسة، وبالنتيجة يشعر الاستاذ نفسه وكذلك رفاقه أنّهم في هذا اليوم أفضل من السابق وأنّ العمل قد تقدم خطوة إلى الأمام بالنسبة إلى اليوم السابق وأنّهم اقتربوا من الغاية المطلوبة من التأليف والتحقيق في المواضيع المطروحة.

١٥

التأييدات الغيبية

لا شك أنّ أحد أهم عوامل الموفقية لطالب العلوم الدينية «بل أهم عامل» أن ينال الدعم والتأييد من عالم الغيب وتنزل على قلبه الطمأنينة والسكينة ويحصل على النجاة من غابة الإفكار المختلفة والآراء السليمة والسقيمة من خلال الامداد الغيبي كما تقول الآية الشريفة: ﴿وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [١]، وقد ورد في أحاديث كثيرة أنّ الله تعالى: «**يحول بين المؤمن ومعصيته أن تقوده إلى النار**» [٢] ويرى الحق حقّاً والباطل باطلاً: «**يحول بينه وبين أن يعلم أنّ الباطل حقّ**» [٣] وكذلك ورد: «**لا يستيقن القلب أنّ الحقّ باطل أبداً ولا يستيقن القلب أنّ الباطل حقّ أبداً**» [٤].

كما أنّه لا شك في أنّ الإنسان يحتاج لنيل هذه الامدادات الغيبية إلى الخروج من بوتقة الاختبار والابتلاء بنجاح وموفقية، ولا يحصل الإنسان على هذه الامدادات الغيبية من دون قابلية ذاتية أو اكتسابية تهيىء له الأرضية اللازمة لتقبل هذا التوفيق الإلهي، ولذلك فمن المناسب الإشارة إلى بعض الابتلاءات والامتحانات التي تصيب الإنسان ليكون مستعداً لنيل التوفيق الإلهي قبل بيان بعض الحوادث التي تعكس التأييدات الغيبية لسماحة الاستاذ.

---

١. سورة الانفال، الآية ٢٤.
٢. تفسير الصافي، ج ٢، ص ٢٨٩.
٣. المصدر السابق.
٤. المصدر السابق.

الحرمان الشديد:

إنّ أحد الابتلاءات التي يواجهها الإنسان في حركة الحياة هو الابتلاء بالفقر والمحرومية، ويتحدّث الاستاذ في هذا المجال ويقول:

«في بداية دخولي إلى قم كنت في ضائقة مادية شديدة في حياتي، وأنا أكشف هذه القضية لاخواني الطلّاب لكي يشكر الطلّاب الشباب حالهم الفعلي ويتعاملون مع واقعهم المعيشي من موقع الرضى والشكر: عندما هلّ شهر رمضان واتفق أنّ الفصل كان فصل الصيف وكنت أنا ورفيقي في الغرفه صائمين ولكن ربّما لم يكن لدينا لوقت الافطار حتى قرص واحد من الخبز، فقال لي رفيقي: أنا ذاهب للعمل لعلي أجد قوتاً يمنعنا من الموت، ولكنه لم يعثر على عمل، ولعله باع بعض كتبه الدرسية ليوفر لنا بعض الخبز، لقد كان ذلك امتحاناً إلهياً فبالرغم من طول مدّة الحرمان الذي عشناه ولكن بحمد الله انتهى بموفقية ورزقنا الله الفسحة واليسر بعد ذلك.

ونظير هذا الحرمان الشديد أيضاً ما كنت أعيشه عندما كنت في النجف الأشرف، فكنت آخذ الخبز دَيْناً من الخباز إلى أن شعرت بالخجل الشديد منه، وكنت في بعض الأيّام أحتاج إلى الحمام ولكنني لم أكن أملك النقود الكافية لدفعها إلى الحمامي، فاضطررت أن أدفع إلى الحمامي ساعتي الزهيدة الثمن كوديعة عنده إلى أن أحصل على المال، ولعله فهم حالتي فلم يقبل بالساعة وقال: أعطني المبلغ فيما بعد. ولكن من الواضح أنّ مثل هذه الحوادث والامتحانات لمن يسير في خط الطاعة والإيمان والعبودية لله تعالى تمثل ألطافاً إلهية خفية بحيث تلفت نظر الإنسان من جهة إلى الذات المقدّسة، ومن جهة أُخرى تقوي فيه روح المقاومة والصبر والاستقامة، إنّ مثل هذه الأُمور عبارة عن بوتقة اختبار لتخليص روح الإنسان من الشوائب،

وأخيراً انفتحت الأبواب وزالت الموانع وتيسرت الحالة المالية، ولكن مع ذلك كنّا نعيش جميعاً حياة بسيطة وخالية من التعقيدات والتشريفات التي نجدها في حياتنا المعاصرة في هذا الزمان».

مشكلة الوسواس:

الابتلاء الآخر مشكلة الوسواس التي يعبّر عنها سماحة الاستاذ أنّه ابتلي بها بشكل عجيب في مسائل الطهارة والنجاسة واتسعت الدائرة تدريجياً وامتدت إلى اصول العقائد والمسائل التاريخية والثوابت التاريخية أيضاً، بحيث أنّها كانت تشكل ضغوطاً كبيرة على الروح والأعصاب (وقد تقدم تفصيل الكلام فيها في فصل المداومة والإستقامة مع الإشارة إلى أنواع الوسواس وآثاره وبركاته في حياة الاستاذ) ويتحدّث سماحته عن ذلك بقوله:

«إنّ الألم والتعب الناشىء من ذلك الوسواس وإن كان في غاية الشدّة والصعوبة وقد أوقعني في دوامة من الازمة الروحية، ولكنّه كان يقترن ببركات كثيرة، حيث اضطرني إلى مطالعة كتب العظماء والعلماء في المسائل الاعتقادية والكلامية المختلفة وأن أتدبر كثيراً فيها وفي الآيات القرآنية والروايات الشريفة، فكانت هذه المطالعات بمثابة المواد الأولية والبنى التحية للنضج الفكري والعلمي فيما بعد حيث قمت بتأليف كتب متعددة في أُصول الدين في الاوقات اللاحقة...».

بركات المشاكل!

ومن المناسب أن نشير في هذا الفصل إلى التوفيقات المعنوية للابتلاء بمثل هذه الصعوبات والمشاكل التي ابتلى بها سماحة الاستاذ، ومن الأفضل كذلك أن نستمع إليه وهو يقول في هذا الشأن:

«في المدّة التي كنّا فيها في النجف استمر الوسواس في ما يتعلق بالمعارف والعقائد والأعمال ولكنّه خفّ تدريجياً حيث استمرت مطالعاتي في أبحاث مختلفة لاسيّما في بحوث الولاية والاستفادة من الكتاب القيم: «الغدير» واستمر دعائي وتوسلي لتطهير قلبي من الوسواس حتى حصلت على هدوء نسبي في وجودي، ثم توصلت بعد ذلك إلى هذه النتيجة وهي أنّ وجود نوع من الوسواس يعدّ جزء من طبيعة الاستدلالات البرهانية والنظرية وحتى أن أقوى أنواع الاستدلال في المسائل الاعتبارية والنظرية لا يمكنه ازاحة قسم من الوسواس، وإنّما طريق معالجة هذا المرض ينحصر في الوصول إلى «مقام الشهود» أي مشاهدة الحقيقة بعين القلب وإزالة الحجب النفسانية وبالتالي إزاحة ظلمة الوساوس واشراق نور اليقين على القلب.

وهذا المعنى هو ما ورد في قصّة إبراهيم الخليل عليه السلام في مسألة وصوله إلى مرتبة التوحيد الخالص كما يحدّثنا القرآن الكريم عن ذلك: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾[1] أو قصّة إبراهيم عليه السلام والطيور الأربعة التي حصل من خلالها على اليقين والاطمئنان بالمعاد كما يقول القرآن الكريم: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾[2] ونحن بدورنا إذا وصلنا إلى تلك المرتبة التي يشرق فيها نور اليقين والاطمئنان على قلوبنا مهما كان ذلك النور المقدّس ضئيلاً فإننا سنحصل على اليقين وبالتالي لا يجتمع مع الوسوسة والشك، فمن الممكن أن نثبت قضية معينة بألف دليل، مثلاً قضية أنّ الآن وقت النهار، ولكن يمكن للوسوسة أن تجد لها مكاناً وتنفذ إلى مقدّمات البرهان الصغرى والكبرى، ولكن إذا تحركنا وقمنا بإزاحة الستار وفتحنا النافذة

١. سورة الانعام، الآية ٧٥.
٢. سورة البقرة، الآية ٢٦٠.

ورأينا قرص الشمس ظاهراً للعيان في وسط السماء ورأينا أشعة الشمس تدخل إلى الغرفة فلا يبقى مجال للوسوسة».

متى أحسست بامتلاك موهبة القلم؟

ومن جملة التأييدات الغيبية والمواهب الإلهية التي قد تكون من نتائج ومعطيات الابتلاءات والصعوبات التي يواجهها الإنسان في حياته هي «**موهبة القلم**» حيث يتحدّث سماحة الاستاذ عن ذلك أيضاً بقوله:

«بعد مضي عدّة سنوات من دخولي الحوزة شعرت بانني أمتلك موهبة القلم، وأول كتاب صدر من تأليفي هو «تجلي الحق» وقصّة هذا الكتاب هي أنني كنت اسافر إلى شيراز أيّام العطلة في الحوزة، وفي أحد أيّام الصيف رأيت حركة مثيرة من بعض فرق الصوفية وشاهدت فعّالياتهم ونشاطاتهم الوقحة «غاية الأمر غير ظاهرة للعيان» وطعنهم بمقدّسات الإسلام وتحاملهم على الدين بدلائل غير منطقية وكلمات معسولة، فما كان مني إلّا أن قررت الإجابة عن كلمات هؤلاء وأكتب ما يرد على تخرصاتهم، وهناك شعرت بأنني مكلّف بالدفاع عن مقدّسات الإسلام مهما كان دفاعي قليلاً، فأخذت بمطالعة كتب ومقالات عديدة في هذا الشأن وأمسكت القلم وكتبت «تجلي الحق» وطبعته في ذلك الوقت، ولكنّ نشر هذا الكتاب اقترن بصعوبات كثيرة لأنّ كل كاتب يتورط في مثل هذه المشاكل في كتابه الأول وتستغرق معرفة الناس له ولكتابه وقتاً طويلاً ثم يقبل الناس على كتبه وتأليفاته لاحقاً».

نمو الأقلام:

أمّا العامل الأساس في تقوية هذه الموهبة وترشيدها، فيتمثل في وجود الباعث

النفساني، كما يقول الاستاذ، وهو الاحساس بضرورة الدفاع عن الدين والمقدّسات، يقول الاستاذ في هذا الصدد:

«إنّ التأليف والكتابة بحاجة إلى باعث نفسي حاله حال سائر الأُمور الأُخرى، فكلما كان الباعث أقوى تحرك الإنسان في خط الابداع والابتكار بصورة أقوى وأشد، إنّ أفضل قصائد الشعراء ومؤلفات الكتّاب تتعلق بزمان كانوا يعيشون فيه الأمواج العظيمة من العواطف الجياشة والدوافع النفسية القوية في وجودهم الداخلي، ولهذا السبب فالكتب التي ألفتها في حال وجود دوافع قوية كانت بحمد الله أفضل من الكتب الأُخرى، وأحد هذه الكتب «أشباه الفلاسفة» حيث كانت تحدوني على كتابته دوافع قوية للتصدي إلى التيار الماركسي، وأمّا الآثار والمؤلفات الأُخرى فهي عبارة عن حصيلة جلسات كثيرة لمدّة ثلاثين عاماً في بحوث العقائد والمذاهب، وكنت معها أيضاً أمتلك دوافع قوية لتأليفها».

الخلاص من عملية الاغتيال!

وأحد موارد التأييدات الإلهيّة والامدادات الغيبية التي نالها سماحة الاستاذ هي نجاته من أخطار المؤامرات التي كانت تستهدف حياته، ونشير في هذا المجال إلى ثلاث حوادث خطيرة:

الحادثة الأُولى:

المؤامرة التي استهدفت حياة الاستاذ في اصفهان حيث يتحدّث لنا سماحته عنها:

«الحادثة الأُولى كانت في بداية الثورة الإسلامية حيث تمّ تشكيل شورى عُليا للقضاء، هدفها الاشراف على وضع المحاكم الشرعية في مختلف

المناطق في ايران، وفي المدّة القصيرة التي كنت فيها عضواً في تلك الشورى «وكان مركزها في قم ولم تنقل بعد إلى طهران» ومع الإلتفات إلى وجود أفراد مندسين في المحاكم في ذلك الوقت كان من جملتهم الافراطيون الذين كان الإمام الراحل قدس سره يشعر بالامتعاض منهم وكانت لتحركاتهم أصداء وانعكاسات سلبية في واقع المجتمع الإسلامي، فتحدّثنا في جلسة الشورى هذه وتقرر بعث أشخاص من أعضاء هذه الشورى إلى نقاط مختلفة في البلاد للاشراف على اُمور المحاكم وضبطها.

وقد عزمت بدوري على التوجه إلى اصفهان مع بعض الاخوة وممارسة عملية الاشراف على أمر المحاكم هناك، وكانت اصفهان في ذلك الوقت تعيش أجواء مضطربة لوجود تيارات مشكوكة في صفوف المسؤولين والمتصدين لاُمور الثورة الإسلامية منها مسألة قتل المرحوم «شمس آبادي» التي حدثت قبل الثورة، وكذلك قتل المرحوم المهندس البحريني التي حدثت بعد الثورة ومسائل اُخرى من هذا القبيل، فكانت الأجواء ملتهبة ولعل الذهاب إلى هذا البركان كان مخالفاً للعقل حسب الظاهر، ولكنني لم أتعامل في حياتي مع هذه الملاحظات وكنت أقول إنّ الإنسان إذا تحرك في عمله من أجل الله، فانّ الله تعالى هو الحافظ له، وبذلك توجهنا إلى هناك ورأينا الاوضاع عجيبة جدّاً، فانّ تلك المنظمات التي اكتشفت أخيراً ونالت جزاءها العادل كانت تلاحقنا منذ البداية كالظلّ حتى لا نقوم بأي عمل نافع، ومن أجل جلب الرأي العام للناس جعلنا مسجد «سيد» الذي يعد من أكبر وأهم مساجد اصفهان، مقرّاً لنا وأعلنّا للناس وجود محاضرة في هذا المسجد في كل ليلة، واجتمع خلق كثير في هذا المسجد واستطعنا إجهاض التحركات المشبوهة للجهة الاُخرى المناوئة، ثم توجهنا إلى السجون والمحاكم في

اصفهان ورأينا أوضاعاً عجيبة، ففي بعض الأماكن لمسنا النفوذ الكبير لتلك الجهة المناوئة وكانت قد حدثت مسائل وأُمور عجيبة، وقد اتصل بنا شخص لا أُحب أن أذكر اسمه، وقال إنّ مسؤوليتي أن أقوم باغتيالكم جميعاً (وهو الشخص الذي كان يتعقبنا كالظل) وقال: إنني تحدثت مع والدي بهذا الشأن وإنني مأمور باغتيال الشيخ مكارم وجماعته، فقال لي والدي: لا أظن أنّ الشخص الذي يقتل مكارم سيكون من أهل النجاة يوم القيامة. وهذا الكلام أثر في نفسي ومنعني من تنفيذ ما أُمرت به».

وقد قمنا بالاعلان لجميع الناس بتقديم شكاواهم إلى مسجد «سيد» فاجتمعت لدينا مجموعة كبيرة جدّاً من شكاوى الناس هناك.

ومن جملة الأعمال الخبيثة التي قام بها أفراد الجهة المناوئة لإفشال مساعينا وإجهاض حركتنا هناك ومن أجل منع فضح مؤامرتهم هو أنّهم قاموا بإطلاق سراح من رجال السافاك من السجن وأتذكر أنّ اسمه «مصيبي»، ثم أعلنوا للناس من خلال الاذاعة المحلية التي كانت في حوزتهم وتحت اختيارهم أنّ الشيخ مكارم مع جماعة جاؤوا من قم واطلقوا سراح هذا السافاكي في حين أننا لم نكن نعلم بهذه المسألة اطلاقاً، وأساساً لم نقم بإطلاق سراح أي شخص من السجن، وذهبوا أيضاً إلى طلّاب الجامعة وأخذوا يبثّون الشايعات والأكاذيب هناك، ولهذا تقرر قيام البعض بتظاهرات في المدينة ضدنا وبالفعل خرجت التظاهرة، ولكنني اتصلت فوراً بالاذاعة والتلفزيون وقلنا لهم إننا نحمل مهمّة ومسؤولية وعليكم أن تذيعوا خبرنا وكلامنا حالاً، فوجدوا أنفسهم مضطرين للاذعان وجاؤوا إلينا وأجروا معنا مقابلة تلفزيونية وأذاعوها هناك فكان أن هدأت الأجواء نسبياً.

وكان المرحوم آية الله الخادمي وجماعة كثيرة من علماء اصفهان

يتحركون على مستوى دعمنا وتأييدنا في مقابل تلك الجهة المناوئة.

والأعجب من ذلك أنّ جماعة جاؤوا من اصفهان إلى قم وخرجوا بتظاهرة في قم ضدنا، ولكن هذه الأُمور انكشفت تدريجياً واتضح للناس عمق المؤامرة الخطيرة التي كانت تبيتها هذه الجماعة الخبيثة، وقد ساعد انكشاف أمر هذه الجماعة علىٰ تحجيم أمرهم وضبط حركاتهم وسكناتهم، وقد فهم بعض طلّاب الجامعة أنّهم وقعوا ضحية تبليغات هذه الجهة المسمومة، فجاؤوا بعد ذلك إلينا معتذرين بأنّهم لم يكونوا يعلمون بواقع الحال.

وعلى أيّة حال بقينا في اصفهان عشرة أيّام جمعنا شكاوى الناس وجئنا بها معنا لمعالجة المشاكل هناك، وبالطبع فانّ مدّة عضويتي في تلك الشورى القضائية كانت محدودة، وبما أنّ الشورى انتقلت إلى طهران فقد بقيت في مدينة قم أُتابع اُموري الاُخرى بعيداً عن هذه الأجواء».

الحادثة الثانية:

أمّا الحادثة الثانية التي وقعت في مدينة قم وكان من المقرر اغتيال سماحته فيها، فلنستمع إلى سماحة الاستاذ ليحدّثنا عن هذه الواقعة:

«عندما انتهى الدرس عدت إلى منزلي فأحسست بوجود شاب يعقبني كظلّي ويسير ورائي وعندما وصلت إلى الباب، إلتفت إليّ وقال: ألم تعلم أنني أتعقبك باستمرار؟ فانني أحمل مهمّة في هذا الشأن، وهي أنني كنت جالساً في حديقة من حدائق طهران العامة، فجاءني أحد الأشخاص في سيارة «فولكس» زرقاء اللون فقال لي: اُعطيك مبلغاً كبيراً (وأتصور أنّه كان خمسة آلاف تومان، حيث كان ذلك الوقت مبلغاً كبيراً) لتذهب إلى قم وتقوم باغتيال شيخ مكارم وتعود إليَّ، وأعطاني قسماً من ذلك المبلغ وقال: عندما

تنتهي من عملك وتعود أدفع إليك بقية المبلغ «ولا أتذكر أنّه قد استلم السلاح من ذلك الشخص أو أنّه كان يمتلكه». فجئت إلى هنا وتوجهت في البداية إلى حرم السيدة المعصومة عليها السلام، وفجأة أحسست بانقلاب روحي وشعرت في قلبي بالندم على ما أنا مقدم عليه وفكرت في هل أنّ الله يرضى بهذا العمل أم لا؟ فقررت أخيراً أن آتي إليك وأُخبرك عن هذه المؤامرة لتكون على حذر أكثر، قال ذلك وودعني منصرفاً، ففكرت أنّه لا يمكن للإنسان النجاة من الحوادث الخفيّة بدون ألطاف إلهيّة خفيّة».

الحادثة الثالثة:

أمّا الحادثة الثالثة فقد وقعت في منزل الاستاذ حيث يتحدّث عنها سماحته ويقول:

«كنّا نعيش في بداية الثورة أوضاعاً متأزمة وصعبة، وقد أُوصينا بعدم التحرك في المدينة إلّا بمعية حارس ومحافظ وسلاح، بل أُوصينا بضرورة وجود محافظ مسلح في داخل البيت في غرفة خاصة حتى إذا حدثت مسألة ومشكلة فبإمكاننا أن ندافع عن أنفسنا، فكان الحرس يأتون إلينا ونستقبلهم في بيوتنا، وفي أحد الأيّام وكان الوقت ظهراً وكان الحارس نائماً في الغرفة ا لمجاورة وكنت أمتلك بدوري مسدساً في غلافه فأخرجته من جيبي وأردت وضعه على رف ولكنّه انزلق وخرج من الغلاف وسقط على الأرض ورغم كونه موصداً إلّا أنّ رصاصة انطلقت منه فجأة ولعلّها مرّت على مقربة من أُذني وأصابت الجدار ثم انطلقت إلى السقف وعادت إلى الأرض، وبما أن الرصاصة انطلقت في جو مغلق فقد كان لها دويّ كالقنبلة واهتز البيت فرأيت أنني ما زلت سالماً وشكرت الله على ذلك، واللطيف أنّ محافظنا ظلّ نائماً في الغرفة المجاورة بالرغم من صوت الرصاصة، وقد فهمت حينذاك

أنّ المحافظ الحقيقي هو الله تعالى، وهذا لا يعني أنني أُوصي بعدم استخدام الوسائل الظاهرية وترك الاستعانة بالأُمور المادية، ولكن أقول ينبغي في الدرجة الأُولى أن نفوض أمرنا إلى الله تعالى ونتوكل عليه».

صلاة الاستسقاء:

ومن التأييدات والامدادات الغيبية التي تتجلى باشراق في حياة الاستاذ (دام ظلّه) هو ما حدث في واقعة صلاة الاستسقاء التي وقعت في سنة القحط الشديد (١٣٧٥ هـ ش) وقد ذكرت في كتاب «**تحقيق حول صلاة الاستسقاء**»[١] بهذه الصورة:

حلّت سنة (١٣٧٥ هـ ش) في ايران مهد التشيع أتباع الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وحملت معها القحط الشديد والجفاف القاسي الذي قلّ نظيره في السابق، فكان الناس يشكون من قساوة هذه السنة ولا سيّما في أوساط المزارعين ورعاة الغنم الذين يعتمدون اعتماداً كاملاً على الأمطار، فكان القحط والجفاف حديث المجالس والمحافل، وفي الجهة المقابلة كان الحديث في خطب صلاة الجمعة، الصحف والمجلات، المنابر وجلسات الوعظ والإرشاد يدور حول صلاة الاستسقاء وضرورة الاقدام عليها، لتلافي الافرازات السلبية الحادة لهذا الوضع المتأزم، ولكن لا أحد يقدم على هذا الأمر، وكأنّهم ينتظرون اقدام الآخرين على ذلك، وفي هذا الخضم وهذه الأجواء المأساوية رأى المرجع الكبير والفقيه المتمرس الشيخ مكارم الشيرازي الذي يعيش المسؤولية والرسالية أنّ عليه أداء هذه الوظيفة الشرعية والإلهية، فبعد أن درس أمر الفاجعة وقرأ الأخبار المتعلقة بافرازات وآثار القحط في مختلف المناطق في ايران بلد الإمام صاحب الزمان عليه السلام عزم على اتخاذ الموقف تجاه هذه المعضلة ودعا إلى إقامة صلاة الاستسقاء واحياء هذه السنّة الإلهيّة.

والجدير بالذكر أنّ سماحته كان يستقبل الحوادث والاخطار التي تهدد الأُمة الإسلامية

---

١. لمؤلفه حجة الإسلام والمسلمين عليان نژادي.

باتخاذ مثل هذه المواقف الحاسمة ويتصدى للاخطار والتحديات المفروضة على الإسلام والمسلمين طيلة سنوات عمره الشريف والمبارك، إنّ هذا الرجل العظيم أبدىٰ شجاعة فائقة لا يتخللها مفهوم الخطر إلى إرادته القوية وعزمه النافذ، فقد أصدر أول مجلة من قِبل الحوزة العلمية في سنوات الظلام والظلم الشاهنشاهي في أجواء تسيب الشباب وهجوم الأفكار المنحرفة من الغرب، وبذلك استطاع الوقوف أمام هذا الهجوم الثقافي الذي يحارب الدين باسم الخرافة والرجعية وأمثال ذلك من الاتهامات الزائفة، فكان اصدار هذه المجلة يمثل عملاً شجاعاً وخطيراً لا يتسنى لأيّ شخص غيره، نعم عندما نتصفح أوراق مجلة «مكتب اسلام» ونقرأ ما فيها من مواضيع ومعارف ونتصور الظروف العصيبة التي طبعت فيها المجلة فحين ذلك نصدّق بأنّ إصدار مثل هذه المجلة في تلك الظروف يعتبر عملاً شجاعاً جدّاً، وستقول: إنّ هذا الشخص الذي أقدم على مثل هذا العمل كان سيواجه أنواع التهم والضغوط الاجتماعية والسياسية وسيل الاهانات، كل ذلك كان سماحته يقف منها موقف الشجاع الذي يتحرك في خط الوعي والمسؤولية والرسالة.

هذا الرجل العظيم والشخصية الكبيرة لم يكتف بإصدار مجلة «مكتب اسلام» فحسب، بل تحرك على مستوى نشر الفكر الإسلامي الأصيل ومحاربة البدع والأفكار الضالة والتيارات الماركسية والغربية من خلال كتابة عشرات الكتب والمقالات المتنوعة في مجالات العقائد والاجتماع ومشاكل الشباب وغير ذلك من المسائل الفكرية والقضايا المعرفية الأُخرى التي تمثل ثوابت رائعة ومشرقة في فعّالية هذا الرجل.

وعلى أيّة حال في عام (١٣٧٥ هـ.ش) انطلق هذا الرجل الكبير مرّة أُخرى إلى الميدان وكسر حاجز الصمت والتردد لدى الآخرين، وأعلن بشكل رسمي في درسه للبحث الخارج في الفقه أنّه عازم على أداء صلاة الاستسقاء وبذلك أنعش الأمل في قلوب الناس الحيارى.

الاعلان عن صلاة الاستسقاء:

كان ذلك اليوم هو يوم الثلاثاء ١٤ اسفند ١٣٧٥ هـ ش المصادف ٢٨ من شوال المكرم ١٤٤٧ هـ ق عندما أعلن سماحة أية الله العظمى مكارم الشيرازي (مدّظلّه) في درس الخارج للفقه أنّه عازم على إقامة صلاة الاستسقاء.

قال سماحته في هذا الصدد:

«بسم اللّه الرّحمن الرّحيم وبه نستعين وصلّى اللّه على سيّدنا محمّد وآله الطّاهرين لا سيّما بقية اللّه المنتظر أرواحنا فداه ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.»

في تفسير سورة نوح ذيل الآية الشريفة:

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾ [١].

وردت رواية تقرر هذا المعنى، وهو أنّ الربيع بن صبيح قال:

«كنت عند الحسن بن علي عليهما السلام فجاء رجل وشكا له من الجدب والقحط فقال له الحسن: «استغفر الله»، فجاءه آخر وشكا له من الفقر فقال: «استغفر الله»، فجاء ثالث وقال له: ادع أن يرزقني الله ولداً، فقال الحسن عليه السلام: «استغفر الله»، يقول الربيع بن صبيح: فتعجبت وقلت له: ما من أحد يأتيك ويشكو إليك أمره ويطلب النعمة إلّا أمرته بالاستغفار إلى الله..

فقال عليه السلام: إنّ ما قلته لم يكن من نفسي، وإنّما استفدت ذلك من كلام الله الذي يحكيه عن لسان نبيّه نوح عليه السلام، ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ اِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ * وَيَجْعَلْ لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ أَنْهَاراً﴾ [٢]» [٣].

هناك الكثير من أمثال هذه البلايا والمشاكل التي تواجه الناس بسبب

---

١. سورة نوح، الآية ١٠.
٢. سورة نوح، الآية ١٠ إلى ١٤.
٣. منهج الصّادقين، ج ١٠، ص ١٩ و ٢٠.

الذنوب والمعاصي التي تقع هنا وهناك في العلن والخفاء، وهذه السنة في تاريخ ايران سنة عجيبة من حيث شدّة القحط والجفاف، فالجفاف شمل معظم المناطق في هذا البلد، وينقل أحد الاخوة أنّه رأى فلاحاً يجهش بالبكاء ويقول: إنّ زرعنا يحتاج إلى الماء وهو الآن يكاد أن يفنى ويموت، وفي بعض المناطق تباع الحيوانات من الغنم والبقر بأسعار زهيدة وبأقل من قيمتها الحقيقية.

لقد أخبرونا بالهاتف من محافظة فارس التي تعتبر الرصيد الأول والمخزن الأكبر للحنطة والشعير في ايران، بأنّ ميزان هطول المطر هذا العام بمقدار عشر السنة الماضية، أي أنّ مقدار المطر في السنة الماضية كان (٥٠٠) مليمتر، وفي هذه السنة (٥٠) مليمتر، وبالأمس اتصلوا بي من طهران تلفونياً وقالوا لي: إننا نتّجه صوب فاجعة إنسانية، فلماذا لا يتدارك العلماء ومراجع الدين هذا الأمر بإقامة صلاة الاستسقاء؟

عندما تشرفنا في النصف من شعبان (عام ١٤١٧ هـ ق) إلى مكّة المكرمة كان الناس هناك يعيشون الجفاف أيضاً وقد أقاموا صلاة الاستسقاء في بلادهم ونزل المطر فعلاً، وفي السنة الماضية قام المسيحيون بأداء مراسم دعاء المطر والله تعالى رحمهم أيضاً. فلماذا تركنا هذه السنّة الدينية في مطاوي النسيان؟ أنا أعتقد أنّه لا بأس بأن نقوم بإحياء هذه السنة مرّة أُخرى وان شاء الله نخرج إلى صلاة الاستسقاء معكم وكل من يصله الخبر.

والآن اريد أن أتحدث ببعض الأُمور التي تتعلق بهذه المسألة:

أولاً: إنّ استحباب صلاة الاستسقاء حكم إجماعي لدى الفقهاء[١]، لقد ذكر

---

١. بمعنى أنّ الفرق الإسلامية جميعاً اتفقوا على هذا الحكم وقبلوا به، وسيأتي شرح هذه المسألة بصورة مفصّلة في البحوث المقبلة.

في كتاب «جواهر الكلام» في المجلد (١٢) بشكل مفصل عن هذا الموضوع، وقد ورد في المجلد الخامس من «وسائل الشيعة» روايات متواترة أو قريبة من التواتر في هذا المجال أيضاً، ويتفق علماء أهل السنة على هذه المسألة، باستثناء «أبي حنيفة» حيث خالف في ذلك ولكنّه قال بالدعاء فقط لا الصلاة، وأمّا سائر أهل السنة فيعتقدون بهذه المسألة.

إنّ هذه السنّة الدينية في معرض النسيان، إنّ صلاة الاستسقاء مثل صلاة عيد الفطر والأضحى، حيث يكبّر فيها المصلي خمس تكبيرات وأربع تكبيرات، وفي الواقع فانّ الركعة الأُولى مع تكبيرة الاحرام وتكبيرة الركوع تبلغ سبع تكبيرات في الركعة الثانية «مع تكبيرة الركوع» فيها خمس تكبيرات، ويتمّ في قنوت الصلاة الدعاء لطلب نزول المطر.

وبعد الصلاة يقوم المصلي بالتكبير والذكر الوارد في هذا الشأن:

مائة تكبيرة مقابل القبلة، ومائة مرّة «سبحان الله» إلى جهة اليمين، ومائة مرّة «لا إله إلّا الله» إلى جهة الشمال وبعد الانتهاء من التكبير والذكر يقوم إمام الجماعة بالتوجه إلى المصلين ويقول مائة مرّة «الحمد الله» ثم يأتي بخطبة الصلاة ثم يتوبون إلى الله جميعاً ويدعونه بتضرع.

هذه باختصار مراسيم صلاة الاستسقاء، وهي صلاة في غاية الروحانية والتأثير.

وأحد شروط هذه الصلاة أن يصوم الناس ثلاثة أيّام، وطبعاً فانّ هذا الشرط ليس شرطاً في صحة الصلاة، بمعنى أنّه يمكن الإتيان بهذه الصلاة بدون الصوم وتقع الصلاة صحيحة، فالصوم من شروط كمال هذه الصلاة وأنا بدوري أقترح عليكم أيّها الأعزاء أن تصوموا غداً وبعد غد ويوم الجمعة إذا أمكنكم ذلك، ولحسن الحظ أنّ أحد المستحبات أن يكون اليوم

الثالث للصوم هو يوم الجمعة.

وقد رأينا أنّ أفضل مكان لإقامة صلاة الاستسقاء هو المكان الذي يقع إلى جانب مسجد جمكران لأنّ هذه الصلاة يجب أن تقام في فضاء فسيح تحت السماء، فهناك نصلي إلى جانب الإمام صاحب الزمان عليه السلام، في يوم الجمعة الساعة التاسعة صباحاً حيث نجتمع هناك ومعنا كل من وصله هذا الخبر ورغب في الحضور والصلاة.

ويستحب في هذه الصلاة أن يأتي إليها الناس حفاة، وعلى الأقل أن يقوم المشتركون في هذه الصلاة عند نزولهم من السيارات بالمشي حفاة.

والمستحب أيضاً أن يأتي الاخوة ببعض أطفالهم الصغار، فانّ الله تعالى إذا لم يرحم الكبار لذنوبهم فإنّه ينزل رحمته على الصغار وتعمّ رحمته بسبب الكبار أيضاً.

ولعل بعض الاخوة يقول: «إذا صلينا ولم ينزل المطر فماذا نصنع؟.

نقول في مقام الجواب: «نحن نتحرك من موقع أداء تكليفنا والله تعالى هو الذي يُدبّر الأُمور بكرمه، فقد أوصانا بأنّ نصلي له في مثل هذه الحالات ونحن نقوم بوظيفتنا.

وعلى هذا الأساس فاني أُوصي السادة الحضور بالصوم في هذه الأيّام الثلاثة، وأمّا من لم يحالفه الصوم فليخبر الآخرين ويشتركوا جميعاً في هذه الصلاة، وأنا لا أُريد إصدار اعلان عام بهذه المناسبة فيتحول هذا العمل المعنوي والروحاني ويتخذ شكل تظاهرة، فقلت في نفسي: لعل تأثيرها سيكون أقل، ولكن مجرّد اشتراككم في هذه الصلاة وإخباركم الآخرين يكفي، إذن فوقت إقامة صلاة الاستسقاء هو يوم الجمعة الساعة التاسعة صباحاً ليمكنكم أيضاً المشاركة في صلاة الجمعة ولا تواجهون مشكلة في

ذلك، ولا بأس أن يقوم البعض باخبار شركة الباصات لايصال الاخوة إلى هناك، وكلما كان عدد المشاركين أكثر كان أفضل. المهم روح الصفاء والخلوص في قلوب المصلين، وأهم من ذلك احياء هذه السنّة المتروكة، فلا ينبغي نسيان هذه السنّة، وقد أقام الناس في العربية السعودية صلاة الاستسقاء في جميع أرجاء تلك المملكة فلا ينبغي بدورنا أن ننسى هذه السنة الدينية، فعليكم أن تسعوا للمشاركة في هذه الصلاة إن شاء الله، وإن شاء الله تكون قلوب المشاركين مستعدة لإقامة هذه الصلاة والدعاء.

إنّي أُوصي أن تقوموا في هذه الأيّام الثلاثة بالاستغفار كثيراً والتوبة إلى الله وضبط ألسنتكم وأعمالكم وسلوكياتكم، وعليكم السعي لأن تخلقوا تحوّلاً في نفوسكم في هذه الأيّام الثلاثة، لعل الله يرحمنا وينزل علينا من بركاته السماوية والاّ فنحن نعيش حالة الحصار الاقتصادي وربّما تتفاقم المشكلات الاجتماعية والاقتصادية أكثر، ومن المعلوم أنّ الجفاف إذا استمر أكثر من هذا فإننا سنواجه أزمة كبيرة وبلاءاً مبرماً، ونستلهم في هذه الفرصة من قوله تعالى:

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً﴾.

بهذه المناسبة نطلب من الله تعالى ونسأله أن: «ارسل السماء علينا مدراراً» وذلك بالاستغفار والتوبة إلى الله تعالى ولا سيّما إلى جانب مسجد جمكران بيت الإمام صاحب الزمان «عجل الله تعالى فرجه الشريف» لنحضى ببركات وجوده أكثر.

وبالنسبة إلى المسائل المتعلقة بصلاة الاستسقاء فهنا نرى من الضروري بحث أدلة هذه المسألة بحثاً اجتهادياً والرجوع إلى المنابع الشرعية فيجب على الفقيه أن يحيط بجميع هذه المسائل، والآن نرى الفرصة مناسبة لبحث

هذا الموضوع، فعليكم أيّها الاخوة أن تضعوا هذه المسألة في برنامجكم الدراسي لكي يمكننا إن شاء الله التعرف على هذه السنّة الحميدة والعمل على إحيائها.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

شيوع الخبر بين الناس:

وانتشر خبر صلاة الاستسقاء بإمامة سماحة آية الله العظمى مكارم الشيرازي (مدّظلّه)، بين الناس في مدينة قم.

فأخذ المؤمنون يعدون أنفسهم لهذه الصلاة بالاستغفار والتوبة والصيام، وكان الحديث عن صلاة الاستسقاء أهم موضوع يشغل المحافل والمجالس، حيث يتطرق الناس في حديثهم إلى أبعاد هذه الصلاة المختلفة ومعطياتها التاريخية وما يعيش فيه الناس من اضطراب وآمال نتيجة إقامة هذه الصلاة، فالاضطراب بسبب احتمال عدم نزول المطر بعد إقامة هذه الصلاة، والأمل بفضل الله وكرمه في استجابة دعاء المؤمنين والخلاص من القحط والجفاف.

وعلى أيّة حال حلّ يوم الجمعة وأخذ الناس يتوافدون مجاميع، آحاداً وزرافات متجهين إلى مسجد جمكران، وكان هؤلاء المؤمنون الصائمون ينزلون من السيارات والباصات على مقربة من المسجد ويمشون حفاة وفي حالة الاستغفار والتوبة متجهين إلى محل إقامة الصلاة وكانت لحظات الاضطراب والأمل تزداد شيئاً فشيئاً باقتراب موعد الصلاة.

ثم إنّ سماحة مكارم الشيرازي (مدّ ظلّه) جاء مع مجموعة من أعضاء مكتبه إلى مسجد جمكران المقدّس وصلّى فيه صلاة صاحب الزمان (عجل الله فرجه الشريف) وبهذا الزاد المعنوي تحرك باتجاه محل صلاة الاستسقاء.

وكان سماحته يمشي حافياً وهو يسبح الله ويستغفره في حركته إلى محل إقامة الصلاة حتى وصل إلى مكان وقوف إمام الجماعة وكان الناس يتوافدون إلى ذلك المحل باستمرار وارتفعت أصوات الضجيج وبكاء الأطفال وأصوات الحيوانات في أطراف ذلك المحل.

وبدأت مراسم صلاة الاستسقاء المهيبة بتلاوة آيات من سورة «الضحى» ثم تحدّث المرجع الكبير مكارم الشيرازي قبل إقامة الصلاة متناولاً عدّة أُمور:

الخطبة قبل الصلاة:

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم وبه نستعين وصلّى اللّه على سيّدنا محمّد وآله الطّاهرين لاسيّما بقيّة اللّه المنتظر أرواحنا فداه ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

إنّ كيفية صلاة الاستسقاء كالتالي:

تتكون صلاة الاستسقاء من ركعتين كصلاة عيد الأضحى والفطر، وفي الركعة الأُولى خمسة قنوتات وفي الركعة الثانية أربعة قنوتات وقبل كل قنوت تكبيرة، وبعد التكبيرة الأخيرة نركع، وأمّا دعاء القنوت فيختلف عن دعاء القنوت لصلاة عيد الفطر والأضحى.

وبعد اتمام القنوت يجب على من يلبسون عباءة أن يقلبوا عباءتهم على ظهرها حيث يقول المرحوم صاحب الجواهر في المجلد ١٢ الصفحة ١٤٦ من كتابه في بيان الحكمة من هذا العمل:

«وحكمة هذا العمل هي أنّ الله تعالى يبدّل الجفاف بالمطر، ويحوّل أيّام القحط إلى أيّام نعمة ورخاء، وقلب العباءة إشارة إلىٰ تغيير مسيرة الجفاف إلى نزول المطر المبارك إن شاء الله».

ونقف بعد انتهاء الصلاة مستقبلين القبلة ونكبّر الله تعالى سوية وبصوت

عال مائة تكبيرة «الله أكبر» ثم نلتفت إلى الجهة اليمنى ونذكر الله مائة مرّة ونقول «سبحان الله»، ثم نتوجه إلى جهة الشمال ونقول مائة مرّة بصوت عال «لا إله إلّا الله»، ثم إنّ إمام الجماعة يتوجه إلى الناس مستدبراً القبلة ونقول سوية وبصوت عال «الحمد لله» مائة مرّة، وبعد الإتيان بهذه المراسيم يقف إمام الجماعة خطيباً، وتتعلق خطبة إمام الجماعة في الغالب بمسألة التوبة والإنابة والاستغفار وطلب الصفح والعفو عن الذنوب ونسأل الله تعالى من رحمته الواسعة ونزول المطر، وضمناً أوصانا أحد الاخوة المداحين بأن يقرأ في أثناء الخطبة كلمات وأشعار في المناجاة والتوسل لترطيب القلوب، ولا ينبغي أن نغفل أننا الآن بجوار بيت الله وفي جوار بيت صاحب الزمان (أرواحنا فداه) وأعتقد أنّ لصلاة الاستسقاء أثر تربوي كبير ومثمر لجميع الناس، حيث يكتسب الإنسان بهذه الصلاة نورانية وروحانية خاصة ويتطهر من الذنوب، وتتضمن هذه الصلاة عنصر الاستغفار وطلب الرحمة الإلهية، هذه الصلاة تبعث على تقوية وشائج العلاقة بين الإنسان وربّه حيث يلقي الإنسان بمشكلاته أمام بيت الله، في هذه الصلاة يعيش الناس حالة الاستغفار من الذنوب ويسألون الله حلّ مشاكلهم، إذن فهذه الصلاة تحتوي على نتائج ومعطيات تربوية جيدة من جهة، ومن جهة أُخرى فانّ إقامة هذه الصلاة يمثل احياءً لسنّة إسلامية، وأضيف هنا أمراً آخرَ وهو أنّ صلاة الاستسقاء مورد قبول جميع المسلمين سواء من أهل السنة أو الشيعة سوى جماعة قليلة من علماء أهل السنة حيث لا يقبلون بها، وما عدا هؤلاء فانّ جميع علماء الإسلام متّفقون عليها، وقد أورد المؤرخون أنّ مراسيم الاستسقاء بصورة صلاة أو على شكل دعاء كان منذ زمان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

وبعد أن انتهى سماحة الفقيه الكبير من كلامه شرع الناس بترتيب صفوف الصلاة وقام

أحد المصلّين برفع صوته بالتكبير والاستغفار والصلوات واشتغل المصلّون بالذكر والاستغفار بقلب منكسر وروح مفعمة بالأمل بفضل الله ورحمته.

شروع صلاة الاستسقاء:

كلما يتقدم الوقت وترتفع ساعات النهار فانّ جموع غفيرة من المصلّين تزداد شيئاً فشيئاً فهناك النساء والرجال، الكبار والصغار، الشيوخ والشبان، المشايخ وغير المشايخ، الشخصيات العلمية والدينية والأشخاص العاديين كلهم جاءوا وحضروا إلى هذا المكان متوجّهين بقلوبهم إلى الله تعالى ومتضرعين إليه ومادين أيديهم إلى السماء، فالجميع على استعداد تام لحضور هذه المائدة الإلهية، وتسمع أصوات بكاء الأطفال الذين تم عزلهم عن أُمهاتهم وأصوات الأغنام والماعز، وفي هذا الحال أخذ الناس بالبكاء والاستغاثة والضجيج، فالأجواء المعنوية حاكمة على ذلك المكان.

كان العدد غفيراً جدّاً لقد تهيأوا، فما أن قال الإمام تكبيرة الإحرام ورفع يديه إلى أُذنيه علامة على دفع وطرد ما سوى الله إلى خلفه وبدأت الصلاة، بدأ المصلّون الذين عاشوا هذا العشق والتوبة والاستغفار وصيام ثلاثة أيّام، بصلاة الاستسقاء في حال البكاء والدموع.

وبعد أن قرأ الإمام سورة الحمد وسورة الكوثر رفع يديه للقنوت خمس مرات في الركعة الأُولى وقرأ في قنوته هذا الدعاء:

«اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، كَما صَلَّيْتَ عَلىٰ اِبْراهيمِ وَآلِ اِبْراهيمَ، اِنَّكَ حَميدٌ مَجيدٌ. وَصَلِّ عَلىٰ جَميعِ الأَنْبِياءِ وَالْمُرْسَلينَ، وَالْمَلائِكَةِ الْمُقَرَّبينَ، وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحينَ، اللَّهُمَّ نَزِّلْ عَلَيْنا غَيْثاً مُبارَكاً، إِنَّكَ أَنْتَ الوَلِيُّ الْحَميدُ، وَبِالْاِجابَةِ جَديرٌ، وَأَنْتَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ».

وهكذا الحال في الركعة الثانية في أربع قنوتات وبعدها انتهت الصلاة، وبعد الفراغ من الصلاة، في حين أنّ بعض المصلّين كانوا قد قلبوا عباءاتهم على باطنها مستقبلين القبلة بالتكبير مائة مرّة، وكان تكبيرهم بحالة خاصة من الصفاء والمعنوية ممّا أضفىٰ على تلك

الأجواء روعةً وبهاءً عظيماً، وبعد الانتهاء من التكبير اتجه المصلّون إلى جهة اليمين بحيث كانت أكتافهم الشمال صوب القبلة، وسبحوا الله تعالى بجميع وجودهم وقالوا: «**سبحان الله**» مائة مرّة، وكأنّ ذكر الله تجلى حين ذلك بمعنىً جديد ومضمون عميق وكأنّه لأول مرّة يسمع الناس بمثل هذا التسبيح، فالذكر وقول «**سبحان اللّه**» لم يختلف في جميع الحالات، ولكنّ هذا الذكر يقال الآن بلسان آخر، لسان الشخص التائب والمنيب إلى الله تعالى طالباً منه المغفرة والصفح ولا سيّما إذا اقترن ذلك مع البكاء والعويل وفي حالات التوبة والانابة، كل ذلك من شأنه إضفاء طابع الصفاء والخلوص على هذا الذكر.

«**سبحان اللّه**» تعني أنّ الله تعالى منزّه عن كل نقص وشائبة، وإنّ ذنوبنا وخطايانا هي التي أدّت إلى وقوعنا في هذا البلاء وسقوطنا في بحر الامتحان وإلّا فأنت منزّه عن كل نقص وأسمى من كل شيء

وبعد الانتهاء من هذا الذكر المهيج بلسان المصلّين والصائمين والعاشقين الذين يعيشون في حالة من انكسار القلب توجه الجميع إلى جهة الشمال بحيث كانت أكتافهم اليمين هذه المرّة صوب القبلة وللمرّة الثالثة ارتفعت أصواتهم «**لا إلـهَ إلّا الله**»، مائة مرّة، بمعنى أنّه لا معبود سوى الله تعالى فأنت معبودنا وإلهنا وأنت القادر علىٰ إحيائنا واماتتنا، تعزّ من تشاء وتذل من تشاء، وتمنح البركة من تشاء وترزق من تشاء وترسل المطر إلى حيث تشاء فكل شيء بيدك وبمشيئتك وكل ما لدينا هو منك فقط.

إلهنا! لا نجاة لنا إلّا بك فأنت المنقذ لنا والمصلح لأُمورنا وبكرمك نعيش ونحيى، وبهذا الذكر نعترف لك بأن لا موجود يستحق العبودية سواك.

وعندما اتّجه المصلّون العشّاق صوب القبلة وفي حين توجه الإمام إلى المصلّين وللمرّة الرابعة اشتغل الجمع الغفير بذكر الله تعالى، وهذه المرّة كأنّ المصلّين يرومون تقديم الشكر والثناء لله تعالى على توفيقهم للتوبة والإنابة وأنّ رحمته الواسعة شملتهم في هذا المكان ومنحتهم فرصة أُخرى ليقدموا فروض الولاء والطاعة والعبودية إلى ساحة كرمه وجلالته

ويستغفرون من ذنوبهم ويسألونه العفو والصفح عن خطيئاتهم، بـذلك ارتـفعت أصـوات الجمع «الحمد لله» مائة مرّة.

لقد ملأ الحمد والشكر لله ولما تفضل به من كرم وعفو وجود جميع المصلّين الذين كانوا يشكرون الله تعالى بقلوب مليئة بالعشق والحبّ الخالص ونفوس منكسرة ومذعنة ومعترفة بالخطيئة والذنب.

وبعد الانتهاء من الاذكار الأربعة هذه جلس المصلّون ليستمعوا إلى الإمام وهو يخطب خطبة صلاة الاستسقاء، فقال:

خطبة صلاة الاستسقاء:

بسم الله الرّحمن الرّحيم الحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين لاسيّما بقية الله المنتظر أرواحنا فداه.

إنّ إحدى السنن الإسلامية المهمّة إقامة صلاة الاستسقاء عـند الجـفاف والقحط، وكما تقدمت الإشارة إليه أنّ هذه الصلاة مستحبة بـاتفاق عـلماء الشيعة جميعاً، والمشهور لدى علماء السنّة الاستحباب أيضاً.

ويمكن القول بشكل عام أنّ صلاة الاستسقاء كـانت تـقام فـي أزمـنة متفاوتة، ففي زمان النبي الأكرم خاتم الأنبياء محمدﷺ، جاءت جماعة إليه وقالوا: «إنّ الناس يعيشون في ضيق ومشقة ودوابنا تكاد أن تهلك من قلّة الماء».

فقال النبيﷺ: تعالوا معي، فتحرّك الجميع وخرجوا من المدينة وصلّى النبي ودعا الله تعالى فنزل مطر كثير، ثم قال: لو كان أبو طالب حياً الآن لفرح من ذلك.

وقال الناس: «ماذا تعني يارسول الله؟».

فقال أميرالمؤمنين عليعليه السلام: «لعلك تريد شعر أبي طالب هذا»:

وأبـيض يسـتسق الغـمام بـوجهه ربـيع اليـتامىٰ عـصمة للأرامـل
يـلوذ بـه الهُـلَّاك مـن آل هـاشم فـهم عـنده في نـعمة وفـواضـل

قال النبي الأكرمصلى الله عليه وآله: «نعم، لهذا أردت»[١].

وللمرحوم صاحب الجواهر في هذا المورد كلاماً شيّقاً جدّاً حيث يقول:

«والذي ينبغي للناس إذا ظهرت مخائل الجدب والغلاء أن يـفزعوا إلى الله تعالى، ويلحّوا في الدعاء ليلاً ونهاراً سرّاً وجهاراً عن صدر نقي وقلب تقي وإخبات وإخـلاص خـوفاً وطـمعاً، فـانّ ذلك يـحرك سـحاب الجـود، والمناجاة سبب النجاة، وبالاخلاص يكون الخلاص».

ويضيف صاحب الجواهر إلى ذلك بقوله:

«وينبغي أن يكون الدعاء بعد التوبة والاقلاع عن المعصية ورد المظالم واخراج الحقوق والتواصل والتراحم والمواساة والتصدق، فـانّ ذلك أنـجح فى المطلب وأسرع إلى إجابة الربّ عزّ شأنه.

ويقول أيضاً: ومن أعظم الأسباب في ذلك، التوبة والاسـتغفار، فـإنّهما الماحيتان للذنب الذي هو السبب الأقوى في ظهور الغلاء والجدب»[٢].

وقد ورد عن أميرالمؤمنين عليعليه السلام أنّه قال في خطبة له:

«إنَّ الله تَعٰالىٰ يَبْتَلي عِبٰادَهُ عِنْدَ ظُهُورِ الْاَعْمٰالِ السَّيِّئَةِ بِنَقْصِ الثَّمَرٰاتِ وَحَبْسِ الْبَرَكٰاتِ وَإِغْلاقِ خَزٰائِنِ الْخَيْرٰاتِ لِيَتُوبَ تٰائِبٌ وَيَقلَعَ مُقْلِعٌ وَيَتَذَكَّر مُتَذَكِّرٌ وَيَزْدَجِرَ مُزْدَجِرٌ وَقَدْ جَعَلَ الله تَعٰالىٰ الْاِسْتِغْفٰارَ سَبَباً لِدُرُورِ الرِّزْقِ وَرَحْمَةِ الْخَلْقِ...»[٣].

أيّها الأخوة والاخوات الأعزاء الذين اجتمعتم فـي هـذه الصـحراء وإلى

١ـ طالعوا شرح هذه الرواية في كتاب بحار الأنوار، ج ٩١، ص ٣٣١، ح ١٧.
٢ ـ جواهر الكلام، ج ١٢، ص ١٣٠ وفيما بعد. ٣ـ بحار الأنوار، ج ٩١، ص ٣٣٦، ح ٢٠.

جوار بيت الله وإلى جوار بيت صاحب الزمان الإمام المهدي (عجّل اللّه تعالى فرجه الشّريف) وربّما يكون هذا الجفاف بنفسه رحمة إلهية للناس.

ربّما كان هذا الجفاف ذريعة لتتوجهوا جميعاً للتوبة والاستغفار ووسيلة إلى أن تتحركوا جميعاً من موقع تطهير قلوبكم من الذنوب والخطايا.

إلهنا! لقد دعوتنا إليك وجئت بنا إلى هذا المكان..

إلهنا! إنّ مجموعات كبيرة من هذا الجمع الغفير صائمين، فاذا كنت أنا مذنباً، فانّ من بين هذا الجمع قلوب طاهرة ونفوس منيبة إليك وتعيش الولاء والعشق لك...

إلهي! في هذا المكان أطفال أبرياء ذو نفوس طاهرة ونقية، فاذا كنّا نحن الكبار مذنبين لا نستحق الرحمة فترحم على هؤلاء الأطفال... [١].

ربّنا! إنّنا جئنا إلى هذا المكان لنجدد معك العهد ونطلب من ساحة رحمتك وكرمك رفع البلايا والزلازل والجفاف وشرّ الأعداء عنّا وعن جميع المسلمين (آمين الحضّار).

إلهنا! إنّنا جئنا باب بيتك لنعلن توبتنا، فأول شروط قبول الدعاء هو التوبة، ولنقل جميعاً عدّة مرات «إلهي العفو»، ثم أطلب من الأخ المداح أن يتقدّم بذكر عدّة جملات للتوسل والدعاء وندعو جميعاً من صميم القلب.

لنضع أمام أعيننا جميعاً الذنوب التي ارتكبناها والخطايا التي احتطبناها على ظهورنا، ونتوجّه بعد هذه الصلاة وفي هذه الصحراء وفي هذا المكان المقدّس بقلوب مفعمة بالعشق والفضيلة ونقول: «إلهي العفو».

وبعد أن انتهى سماحته من كلامه هذا توجّه الحاضرون باخلاص وبقلوب متحرقة

١ـ عندما وصل كلام سماحته إلى هذا المكان تأثر الجمع بشدّة وارتفعت أصوات البكاء من كل صوب وحدب.

وعيون باكية وكرروا جملات الدعاء المذكور عدّة مرّات بتأثر بالغ وصوت عال، ثم إنّ أحد المدّاحين أخذ بقراءة جملات ومقاطع الدعاء والتوسل.

وعاش جميع المصلّين أجواء عجيبة من التوجّه والالتفات إلى أهل البيت الطاهرين عليهم السلام وتوسلوا بباب الحوائج إلى الله علي الأصغر الطفل الرضيع ابن الإمام الحسين عليه السلام وتذكروا المأساة والظلم الذي ارتكبه الأعداء بحق هذا المظلوم الصغير عليه السلام وانقلبت حالة الحاضرين وسيطرت على تلك الأجواء روحانية عجيبة.

وبعد ذكر المصيبة رفع خطيب الصلاة يديه إلى السماء وقرأ هذا الدعاء:

«اللّهُمَّ إِنّا نَسْأَلُكَ وَنَدْعُوكَ بِاسْمِكَ الْعَظيمِ الأَعْظَمِ، الأَعَزِّ الأَجَلِّ الأَكْرَمِ، يا اللّهُ يا اللّهُ يا اللّهُ، يا جَوادُ، يا كريمُ، يا جَوادُ يا كَريمُ، يا غَفّارُ، يا غَفّارُ، يا غَفّارُ، يَا مَنّانُ، يا مَنّانُ، يا مَنّانُ، يا مَنّانُ، يا ذَالْجُودِ وَالاِحْسانِ، يا حَميدُ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ (آمين الحضّار)، يا عالٍ بِحَقِّ عَلِيٍّ (آمين الحضّار)، وَيا فاطِرُ بِحَقِّ فاطِمَة (آمين الحضّار)، وَيا مُحْسِنُ بِحَقِّ الْحَسَنِ (آمين الحضّار) وَيا قَديمَ الاِحْسانِ بِحَقِّ الْحُسَيْنِ (آمين الحضّار) اللّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنا (أربعة مرّات)، اللّهُمَّ اسْتُرْ عُيُوبَنا (ثلاثة مرّات) وَانْشُرْ عَلَيْنا رَحْمَتَكَ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَلِيُّ الْحَميدُ، اللّهُمَّ نَزِّلْ عَلَيْنا غَيْثاً مُبارَكاً».

إلهنا! ندعوك بذلك الدعاء المعروف، فمن دعاك به استجبت دعاؤه، ونقول:

«اللّهُمَّ، اِنّا نَسْئَلُكَ بِفَاطِمَةَ وَأَبيها وَبَعْلِها وبَنيها[1]، أَنْ تُصَلِّيَ عَلىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمّدٍ وَأَنْ تُرسِلَ عَلَيْنَا السَّماءَ مِدْراراً وَأَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا غَيْثاً مُبارَكاً. اِنَّكَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ وَعَجِّلْ في فَرَجِ وَلِيِّنا صاحِبِ الْعَصْرِ وَالزَّمانِ».

١ـ وفي هذه اللحظة أخذ الناس بالبكاء مرّة أُخرى وكانت أصوات البكاء تسمع من كل جانب.

بعد الانتهاء من الصلاة أخذت جموع الناس بالتفرّق والعودة إلى مدينة قم المقدّسة بينما بقيت جماعة أُخرى في ذلك المحل للاستفادة أكثر من ذلك الجو المعنوي والروحاني الساحر وتوجّهوا إلى مسجد جمكران لأداء صلاة الإمام صاحب الزمان (عجّل اللّه تعالى فرجه الشّريف) والاشتغال بالذكر والدعاء والتوبة والاستغفار وطلب نزول المطر.

أمّا ما بقي من صلاة الاستسقاء هذه فهي القلوب التي تعيش حالة الاضطراب لجميع الناس الذين عادوا إلى بيوتهم في انتظار استجابة الدعاء، وبقيت عيونهم القلقة تنظر إلى السماء بين اللحظة والأُخرى يحدوها الأمل برحمة الله تعالى.

ومرّت لحظات الانتظار الصعبة كأنّها أعوام متمادية ولكن تحقّق الوعد أخيراً، ففي أول ليلة السبت ومساء ذلك اليوم الذي أُقيمت فيه صلاة الاستسقاء ظهر الرعد والبرق في السماء وارتسمت على ملامح المؤمنين معالم الفرح السرور وانبعث الأمل في قلوب الناس برحمة الله.

أجل، فالسماء أعلنت عن انتهاء ساعات الانتظار والقلق والاضطراب، حيث ظهرت الغيوم برحمة الله تعالى وهطلت الأمطار الغزيرة على رؤوس الناس وأنعشت بذلك قلوبهم الظمأىٰ وأروت الأرض اليابسة فاهتزت لها الأرض والنباتات طرباً وفرحاً بهذه الرحمة الإلهيّة الكبيرة، ولم يقتصر نزول المطر على مدينة قم بل شمل الكثير من المدن الأُخرى وبذلك استجاب الله تعالى دعاء المصلّين وشملهم برحمته وكرمه.

إلهنا! نحمدك ونشكرك على كل هذا اللطف والكرم والفضل ونسألك أن تدخلنا دائماً في ساحة رحمتك ورضوانك.

١٦

التوّجه الدائم والذكر المستمر

إنّ كثرة المشاغل وتنوّع الأعمال والنشاطات اليومية تعتبر آفة لدوام الذكر واستمرار حضور القلب، فلو لم يتحرك الإنسان منذ السحر بشدّ أدوات العزم على السير في خط الإيمان والانفتاح على الله ولم يعقد جوانحه على الالتزام بخط العبودية والمسؤولية: «**اشدُدْ على العزيمة جوانحي**»[١] ولم يعمل على تبديل جميع أوقاته وأفعاله وسلوكياته رغم كثرتها وتنوعها إلى «وِرد واحد» ولم يتجه في حركاته وسكناته إلى جهة واحدة «**اسئلك... حتّى تكون أعمالي وأورادي كلّها ورداً واحداً**»[٢] فانّ المشاغل اليومية للإنسان من شأنها اسدال ستار النسيان والغفلة على واقع الروح أمام بصيرة القلب فيحرم السالك بذلك من أجواء الحضور: «**وحالي في خدمتك سرمداً**»[٣] بل إنّ القلوب الطاهرة أيضاً تتأثر وتتلوث ويصيبها نوع من الظلمة والدرن بسبب الأعمال والمشاغل اليومية بحيث إنّ صاحب أطهر قلب في البشرية وهو الرسول الأكرم يقول: «**إنّه ليُران على قلبي...**»[٤].

وبديهي أنّ الإنسان السالك ينبغي عليه من أجل نجاة روحه من هذه الظلمة وشوائب المشاغل الدنيوية وتحصيل «الوحدة» و«الاستقامة» و«وحدة الورد، ودوام التوجه والحضور»، أن يتحرك على مستوى الوقاية من جهة والعلاج من جهة أُخرى، أمّا الوقاية فتكون باجتناب الحضور في مجالس العاطلين والاشتراك معهم في محافل اللهو والابتعاد عن الأفعال والأقوال المهملة واللغوية، بل يتحرك على مستوى ضبط حالاته وملكاته

---

١. دعاء كميل.
٢. المصدر السابق.
٣. المصدر السابق.
٤. بحار الأنوار، ج ٢٥، ص ٢٠٤.

النفسية، والسير في خط التوجه والإيمان دائماً والاهتمام بمحاسبة النفس على كل صغيرة وكبيرة والعمل على دوام الذكر والاستعاذة بالله من الاهواء والوساوس الشيطانية، ويراقب حالته لئلا تجمح به مطية الهوى في منزلقات الخطيئة والانحراف وتسول له نفسه اتباع الظواهر البراقة بشكل خادع لينحرف في مسيرته المعنوية الصاعدة.

وأمّا علاج هذه الحالة فأن يداوم المرء على الاستغفار كما ورد في الحديث الشريف عن رسول الله أنّه قال بعد الحديث المذكور آنفاً: «**وإنّيّ لأستغفر بالنّهار سبعين مرّة**»[١] فيطلب السالك من الله تعالى: «**مُدْرِكَ كلِّ فوت**»[٢] العفو والمغفرة سبعين مرّة وأكثر ويسعى لجبران وتدارك ما فاته من الأعمال الصالحة.

إنّ الأشخاص الذين عاشوا مع سماحة الاستاذ وأنسوا به ولاسيّما في أسفاره، وإلتفتوا إلى التوجه الدائم لسماحة الاستاذ وحالة الحضور الدائم واهتمامه بالوقت وعدم اهماله للعمر وقضائه في جلسات غير مثمرة، وعدم تسامحه في قضاء الوقت في الأُمور العبثية وغير الهادفة.

اجتناب الجلسات غير المثمرة:

بالرغم من أنّ سماحة الاستاذ يتمتع بحافظة قوية وذوق جميل يمنحه القدرة على أن يكون مجلسه في السفر والحضر مقترن بأنواع اللطائف والظرائف المفرحة وبالتالي يثير مجلسه السرور والنشاط في قلوب الجالسين فلا يشعرون بالتعب والضجر في حالات السفر وما يتضمنه من أتعاب ومشاكل، إلّا أنّ الاستاذ في نفس الوقت يتجنب الحركات والأعمال الافراطية وغير الهادفة من جهة، ويهتم بعنصر الانضباط في جميع الأعمال من

---

١. بحار الأنوار، ج ٢٥، ص ٢٠٤.

٢. بحار الانوار، ج ٩١، ص ٣٣١، ح ٤، ترتبط هذه الجملة بدعاء موسى بن جعفر عليه السلام في السجن، حيث نقله كتاب «مهج الدعوات»، بسند صحيح عن عبد الله بن مالك الخزاعي ضمن قصّة لطيفة جدّاً، ونقلها المرحوم العلّامة المجلسي بتفصيلها من هذا الكتاب إلى كتاب بحار الانوار.

جهة أُخرى، ممّا يسبب أحياناً بعث حالة الانزعاج والكدورة لبعض الاخوة والأصدقاء، لأنّ اهتمامه بالأمر ومحدودية الوقت، وكثرة مشاريعه الفكرية والتحقيقية واهتمامه من جهة أُخرى بالتأليف من أجل خدمة الدين والنهوض بالمجتمع الإنساني، يؤدّي إلى أن لا يقبل الاشتراك في جلسات اعتباطية أو دعوات للضيافة إلّا بعد تعين وقت البداية والنهاية لهذه الجلسات والدعوات، مثلاً يقول: «**إنّ الوقت الذي تستغرقه الضيافة من البداية والنهاية مع جميع المقدّمات وتناول الطعام ينبغي أن لا يستغرق أكثر من ساعة واحدة**».

وقد تجلّى هذا الاهتمام بالوقت وتجنب اهدار الوقت والزمان في البحوث العلمية غير المثمرة أيضاً، ولذلك فانّ سماحته يذكر في كتابه القيم «**القواعد الفقهية**» فيما يتعلق بالبحوث غير الهادفة وغير المثمرة لدى الأُصوليين والفقهاء (بعد بيان امتيازات الفقه الشيعي وافتخار علماء الشيعة فيما يتعلق بتدوين علوم أهل البيت الطاهرين عليهم السلام وما حظي به الفقه والأُصول وعلم الحديث والرجال لدى الشيعة من العمق والسعة) ويقول:

«**لكن مع الاسف أنّ هذا التوفيق العلمي الكبير اقترن بنقائص مهمّة نشأت من عنصر الافراط أو التفريط، لأنّنا نرى وجود مسائل كثيرة لاسيّما في علم الاصول قد اختلطت مع مسائل مفيدة أُخرى ولا يترتب عليها أي ثمرة معقولة ومعتبرة، والعجيب أننا نرى زيادة هذه المسائل غير المثمرة في كل يوم بحجّة كشف الحقائق واتساع مساحة هذا العلم، وبهذه الزيادة يمكننا أن نتوقع لهذا العلم مستقبلاً غامضاً ومظلماً**».

ثم يستعرض الاستاذ موارد عديدة من هذه المسائل الخاوية في علم الأُصول، ويشير إلى أنّ البعض تمسك لاظهار ثمرة عملية لمثل هذه المسائل بمسألة النذر وأنّ المكلّف قد ينذر أمراً معيناً يرتبط ببعض مسائل العلوم المختلفة، ولكنّ أي عاقل لا يجد في نفسه ضرورة طرح جميع هذه المسائل في علم الأُصول، ويشير الاستاذ أيضاً إلى عنصر الخلط في عملية الاستدلال على المسائل الأُصولية والفقهية بين الأُمور الحقيقية والأُمور الاعتبارية ويقول:

«فصارت هذه الأُمور وأمثالها تفني مدّة طويلة من أحسن أيّام شباب طلّاب العلم وشيئاً كثيراً من نشاطهم العلمي وقواهم الفكرية وتمنعهم عمّا هو أهم وأنفع، فاصبحت هذه المشكلة بلاءً للعلم وأهله، ولهذا وغيره صارت أبحاثنا الفقهية اليوم تدور غالباً حول أبواب العبادات وشيء طفيف من المعاملات وبقيت سائر المباحث القيمة متروكة ومهجورة إلّا عند الأوحد من العلماء الأعلام.

ومن العجب أنّ كثيراً من الباحثين مع علمهم بجميع هذه الأُمور إذا اشتغلوا في البحث لا يملكون أنفسهم عن متابعة الباقين، نسأل الله تعالى ونبتهل إليه سبحانه أن يبعث أقواماً ذوي عزائم راسخة يقومون بأعباء هذا الأمر ويهذّبون علوم الدين وينفون عنها هذه الزوائد، ويهدون طلّاب العلم إلى سواء السبيل، ولست أنسى أنّ بعض الاساتذة الكرام يرى أنّ التعرف على مثل هذه المسائل لا يخلو عن شبهة شرعية، ولعل ذلك بملاحظة ما نرى من أنّ الإسلام اليوم في أشدّ الحاجة إلى العلماء الذابّين عن حوزته بعلومهم النافعة، فصرف الوقت في غيرها يمنع عن هذه المهمّة»[١].

والملتفت للنظر أنّ بعض أصدقاء[٢] الاستاذ وأصحابه يؤيدون حالة الاستاذ هذه في اجتنابه الجلسات غير الهادفة التي لا تنفع شيئاً ويرون أنّ ذلك يعود إلى سنوات مبكرة من حياة الاستاذ ويقولون:

«لقد كان الاستاذ في أيّام التحصيل يمضي الوقت إمّا في التعلّم أو التعليم أو بالمطالعة أو الكتابة وكان يستفيد من وقته وعمره بأفضل صورة، فلا يشترك أبداً في مجالس اللهو والمزاح وأمثال ذلك، بل كان يتحرك بجدية في تحصيل العلم والاستفادة من طاقاته وأوقاته في سبيل خدمة العلم والدين وايصاله إلى الآخرين».

---

١. القواعد الفقهيّة، ج ١، ص ١٢ ـ ١٦.

٢. آية الله المحفوظي.

لطافة الروح والعلاقة بالشعر:

على أيّة حال، إنّ التوجه الدائم والذكر المستمر والمراقبة الروحية لدى الاستاذ ظهرت في أفعاله وحالاته بأشكال مختلفة، ومن ذلك ما يتمتع بـه الاسـتاذ مـن لطـافة روحـية وحالات عرفانية وعلاقة شديدة بالشعر والشعراء لا سيّما ما تمثله أشعار «**حافظ**» وبعض الشعراءالمعاصرين كأشعار «**شهريار**» من معانٍ سامية وأجواء معنوية عالية (حيث نسـمع منه أبيات كثيرة في جلساته العلمية وغير العلمية) ويتحدث الاستاذ نفسه في هذا المجال ويقول:

«إنني أشعر بعلاقة شديدة بالشعر والأدب، ولذلك فانّ قـراءة الأشـعار والقصائد في دواوين الشعر تمثل ترفيهاً لنفسي لرفع التعب والارهاق مـن العمل، وعادةً أقوم قبل مطالعة كتاب وقبل الاستراحة وخاصة بـعد الظـهر باختيار ديوان حافظ من بين قدماء الشعراء، ومـن الشـعراء الجـدد ديـوان شهريار، وكلا الديوانين أضعهما إلى جانب سريري، فأقـرأ مـقداراً مـنهما وأشعر بالسكينة والراحة النفسية ثم يمتلكني النـوم. أرى أنّ حـافظ يـعد أقوى شاعر في فرع الغزل، وبغض النظر عن بـعض الصـفحات والعـبارات الوقحة فانّ في أشعاره عبارات يمكن أن تُفسَّر بتفسيرات عرفانية، ولكنني أنظر إلى قدرة حافظ وخلاقيته في الشعر وجمال بيانه العـظيم فـي عـالم التشبيه وما يتضمنه من مـلاحظات ظـريفة ودقـيقة، وبـالطبع أنّ قـصائده العرفانية قوية جدّاً، بحيث إنّ الإنسان إذا كرر قراءتها عشر مرّات فـانّها لا تفقد صفاءها وروحانيتها.

أمّا شهريار فيعد من بـين الشـعراء المـعاصرين شـاعراً مـقتدراً جـدّاً، ويتحرك في ظل أجواء حافظ ويعترف بنفسه بأنّ استاذه الحقيقي هو حافظ، ولكن الانصاف أنّه جاء بتجديد كثير على المستوى الأدبي والشعري، فعندما

نقرأ شعر شهريار نشعر بمزيد من اللطافة ولذّة الشاعرية ويشعر الإنسان معها بزوال الملل والكسل عن مرآة الروح.

وشهريار بالطبع كانت لحياته مراحل مختلفة وانعكس ذلك على أشعاره، فأحياناً نقرأ في أشعاره وقصائده أبياتاً متسافلة ومنحطة من الناحيةالدينية، والواقع أنّ مثل هذه القصائد كانت نتيجة ضغط المحيط الاجتماعي والثقافي، ولكن علىٰ أيّة حال كانت عاقبته إلى خير ورحل من الدنيا بعاقبة حسنة وخلّف وراءه قصائد وأشعاراً جيدة، وأجد في نفسي ارتباطاً وثيقاً بأشعاره».

١٧

خلوص النية[١]

١. إنّ ما يمنح جميع أعمال الإنسان وأقواله وسلوكياته روحاً وصفاءً هو عنصر النيّة والباعث النفساني لذلك العمل، فالنيّة تصبغ جميع الأعمال بصبغة خاصة وتضعها باتجاه معين وتختم بظلالها على جميع أفعال الإنسان. إنّ الدوافع المادية والبواعث الإلهيّة لها تأثير مختلف على أعمال الشخص وبالتالي فالنتائج مختلفة ومتفاوتة أيضاً حيث تكون معطيات كل من هذه الدوافع وتجليات هذه البواعث مختلفة.

فالأشخاص الذين يتحركون بدوافع غير إلهيّة فانّهم يستخدمون جميع الوسائل والأدوات المشروعة وغير المشروعة للوصول إلى أهدافهم وأغراضهم، بل قد يتمسكون في مسيرهم هذا بالمقدّسات أيضاً ويضعون على أعمالهم مسحة القداسة، ولكنّهم في نهاية الأمر يرومون نيل مصالح دنيوية ويهدفون لتحصيل مطامع مادية حيث يستولي على وجودهم حبّ الدنيا.

وفي ذلك يقول الإمام الصادق عليه السلام: «اذا رأيتم العالم محبّاً للدنيا فاتهموه على دينكم فان كلّ محبّ لشيء يحوط ما أحبّ». (اصول الكافي، ج ١، ص ٤٦).

ومن هنا ندرك أهميّة وضرورة تصفية النيّة من بداية الأمر لطلّاب العلوم الدينية وأتباع مدرسة الإمام الصادق عليه السلام، فلابدّ أن يضع رجل الدين نصب عينيه رضا الله تعالى وأن يكون الباعث له على سلوكه في هذا المسير هو مرضاة الله وترويج شريعة النبي محمد صلى الله عليه وآله، والتبليغ للقرآن الكريم ومذهب أهل البيت عليهم السلام، وفي غير هذه الصورة فانّ ما يناله من العلم ليس لا ينفعه شيئاً فحسب، بل كلما ازداد علماً ازداد ضلالاً وانحرافاً عن الحق.

إنّ طالب العلوم الدينية لو انطلق في تحصيله العلمي من موقع حبّ الشهرة والمقام والرياء، وأراد التكسب بالقرآن والسنة وتحصيل المال والدنيا بهذه العلوم لا طلب الآخرة، فانّ الضرر الذي يترتب على ذلك أكثر بكثير من نفعه، وستكون خيانته للدين أكثر من خدمته له، ومثل هذا الشخص ليس له حظ من الثواب الإلهي وستذهب أتعابه وأعماله هباءً منثوراً ولا تكون مقبولة عند الله تعالى.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «من أراد الحديث لمنفعة الدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب ومن أراد به خير الآخرة أعطاه الله خير الدنيا والآخرة».

إنّ النيّة الصافية والبواعث الخالصة لله تعالى تمنح البركة لأعمال المسلم وتؤثر في زيادة سعيه ونفوذ كلمته وتطيل بقاءه ودوامه.

إنّ تحصيل النيّة الخالصة وتطهير القلب من الدوافع الدنيوية والنوازع النفسانية غير الإلهيّة يعدّ من أكبر النعم الإلهيّة على العبد الصالح.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «ما أنعم الله عزّ وجلّ علىٰ عبدٍ أجلَّ من أن لا يكون في قلبه مع الله عزّ وجلّ غيره».

إنّ خلوص النيّة من الخصال التي تقدّم الكلام عنها في البحوث السابقة تحت عنوان «**الاستقامة والجدّية**»، وقد وردت هذه الخصلة في القرآن الكريم على أساس أنّها أحد ركني التقدم والتكامل في جميع الأُمور وأداة مهمّة للعبور من الازمات والمآزق والوصول إلى «**السُبُل**» الإلهيّة: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾ [1].

تتحدث هذه الآية الشريفة عن عنصرين من عناصر الحركة في خط الإيمان والتكامل المعنوي وهما: (**جاهدوا**) واخلاص النيّة (**فينا**...) وبهذين الركنين الأساسيين يتمكن الإنسان من تحصيل الامدادات الغيبية والهداية المعنوية في مسيرته نحو الكمال الإنساني، وقد تحدّثنا عن عنصر الإستقامة والجدّية للاستاذ في الفصول السابقة، وفي هذا الفصل نتحدّث عن مقام اخلاص النيّة لسماحته في ميدان التحصيل العلمي والتدريس والتأليف منذ بداية ورود الاستاذ إلى هذا الميدان، ومن جملة النقاط [2] التي يركز عليها أصحابه هي: هذه الحقيقة، ويقولون:

أ (بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٢٤٩).

إنّ الوصول إلى هذا المقام الرفيع يحتاج إلى سعي مستمر وجهد بليغ.

«قيل إنّ تلامذة المرحوم السيّد بحرالعلوم رأوه يوماً مستبشراً ومتبسماً ولما سألوه عن سبب ذلك قال: إنني بعد مجاهدة نفسي مدّة خمس وعشرين سنة، لمّا نظرت إلى نفسي الآن رأيت أنّ أعمالي غير مقترنة بالرياء واستطعت أن أُزيل هذه الحالة الذميمة من نفسي». (سيماى فرزانگان، ص ١٢٢).

إنّ كبار العلماء والفقهاء وأصحاب السلوك في ميدان العلم والعمل يعيشون القلق النفسي دائماً في دائرة اخلاص العمل، ومع كثرة نشاطاتهم وفعّالياتهم الدينية والاجتماعية يشعرون دائماً بالخوف من تلوث هذه الأعمال بنيّات أُخرى وبالتالي يخشون عدم قبولها عند الله تعالى، ينقل الشهيد المطهري عن السيد البروجردي (رضوان اللّه تعالى عليه) أنّه قُبيل وفاته بعدّة أيّام ذكر بعض أصحابه الذي كان يخدمه في حياته: لقد رأيته مغموماً جداً، وقال لي: إنّ عمري يكاد ينتهي ولحدّ الآن لم أتمكن من أن أتدارك نفسي وأبعث بعمل صالح إلى آخرتي، فقال أحد الأشخاص وكان حاضراً في تلك الجلسة: أيّها السيد الجليل كيف تقول هذا الكلام، فنحن المساكين يجب أن نتكلم بهذا الكلام، وأنت بحمد الله قد قدّمت كل هذه المؤلّفات والأعمال الخيرة، واستطعت تربية هذا العدد الغفير من الطلّاب، وكتبت هذه الكتب، وقمت ببناء المسجد الأعظم، وبناء مدارس دينية... فعندما تكلّم هذا الشخص بذلك إلتفت إليه السيد وقال له: إنّ الحديث الشريف يقول: «أخلص العمل فانّ الناقد بصير بصير»، فماذا تقول بعد ذلك؟ فهل تظن أنّ الوضع في ذلك العالم يشابه ما نراه ويراه الناس في هذا العالم (إنّ الله خبير بما تعملون) (اقتباس من كتاب التعليم والتربية في الإسلام، ص ٣٧٢).

١. سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

٢. آية اللّه ذاكر الشيرازي.

«في نظري أنّ الأُمور التي ساعدت سماحته على الرقـي والسـير فـي مدارج الكمال المعنوي والعلمي ونيل الامداد الغيبي والمعونة الإلهيّة بـل أهم النقاط في حياته، هو اخلاصه المعنوي وارتباطه الوثيق بالله تعالى».

رمز النجاح والموفّقيّة:

والملفت للنظر أنّ سماحة الاستاذ نفسه يتحدّث عن مسألة «**اخلاص النيّة**» بعنوان أنّها تجربة أساسية في حياته بحيث يقرأ قوله تعالى: ﴿وَ الَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ ويضعها نصب عينيه ليستمد منها ما يعينه في مسيرته الخصوصية والاجتماعية ويستوحي من مضمونها ما يرسم له معالم الطريق، ويقول:

«إنّ أحد الأُمور التي كانت بالنسبة لحـياتي الخـصوصية والاجـتماعية مصدر إلهام، هذه العبارة القصيرة من الآيات القرآنية حيث تقول: «و الذيـن جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا»[1]، فـتقرر هـذه الآيـة الشـريفة أنّ رمـز النـجاح والموفقيّة في حركة الحـياة يكـمن فـي أمـرين: الجـهاد والسـعي الدائب (جاهدوا) واخلاص النيّة (... فينا)، وأشعر بالرغبة دائماً في تجسيد هذه الآية في مقام العمل والممارسة فلا يحالفني التعب من السعي وبذل الجهد، وفي نفس الوقت أسعى لتكون نيّتي خالصة، لأنني أعتقد أنّ الهداية الإلهية تقوم على هذا الأساس، وأرى أنّ هذا المضمون يـمثل تـجربتي الأسـاسية فـي حياتي، وكذلك أعتقد أنّ مقولة أميرالمؤمنين عليه السلام أيـضاً مـصدر إلهـام فـي حركة حياتي حيث أعيشها بجميع وجودي، وهي قوله عليه السلام: «كلّ شيء من الدنيا سماعه أعظم من عيانه»[2] فمسألة «الشهرة» تعتبر احدى المسائل التي سماعها

١. سورة العنكبوت، الآية ٦٩.
٢. ينقل المرحوم العلّامة المجلسي في بحار الأنوار، ج ٨، ص ١٩١ من كتاب عدة الداعي:

من بعيد أعظم من عيانها، فعندما نقترب منها لا نرى فيها سوى مجموعة صغيرة من التعقيدات الذاتية، «المرجعية» لها رنين وأُبهة من بعيد، ولكنّها من حيث كونها مقاماً دنيوياً يحصل عليها الإنسان ليست كذلك حيث يراها هذا الإنسان بعد الابتلاء بها أنّها تمثّل دوامة من المشاكل والتعقيدات، إنّ العناوين الدنيوية براقّة من بعيد ولكنّها ليست كذلك عندما نقترب منها، بخلاف الآخرة والمسائل المعنوية التي تكون رؤيتها عياناً أعظم وأهم كثيراً من سماعها».

على أيّة حال فانّ البركات المعنوية لاخلاص النيّة وتجلّياتها المختلفة في حياة الإنسان والخصوصية الاجتماعية والسياسية لا تكاد تخفى على أي شخص.

ملكة الحلم والتسلط على النفس:

وأحد تجليّات هذه الحالة المعنوية تتمثل في ملكة «الحلم» ومداراة الناس والسيطرة على الأعصاب والنفس وحالة التواضع في تعامل الإنسان مع مختلف أفراد المجتمع «من الطبقات الدنيا إلى الطبقات العليا»، هذه الملكة الحميدة لسماحة الاستاذ يتحدّث عنها أصحابه في ذكرياتهم عن حالاته في الأزمنة البعيدة والقريبة فيقول أحدهم:

«لا أتذكر أنني رأيت سماحة الاستاذ منذ أن كنّا سوية تمتلكه حالة الغضب والحِدّة في تعامله مع الآخرين، بل كان تعامله يتسم بالصفاء والود والمحبّة دائماً، وأتذكر أنني كنت حاضراً في صباح أحد الأيّام حيث جاء إليه أحد الطلّاب يسأله بعض المسائل المشكلة في درس الكفاية، فكان سماحته

أقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لو أنّ ثوباً من ثياب أهل الجنّة ألقي على أهل الدنيا لم تحتمله أبصارهم ولماتوا من شهوة النظر إليه. وقد ورد عنهم عليهم السلام: كل شيء من الدنيا سماعه أعظم من عيانه وكلّ شيء من الآخرة عيانه أعظم من سماعه. وفي الوحي القديم: أعددت لعبادي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر بقلب بشر».

يخرج من غرفته ويجلس في باحة المـدرسة ويـبدأ بـالإجابة عـن أسـئلة الطلّاب وحلّ مشكلاتهم العلمية بالترتيب، لأنّه يتمتع بفكر ثاقب ودقيق لا يحتاج معه لحلّ المسائل هذه إلىٰ مراجعة مسـبقة للكـتاب، فكـان حـاضر الذهن في إجابته عن أسئلة الطلّاب... ولا أتذكر أنني رأيته يوماً وبسـبب تأخر الطلّاب عن الحضور، أو تأخر أو تقدم وقت تناول طعام الغداء تمتلكه حالة الغضب والانفعال»[١].

ويقول آخر:

«لقد كان تعامله مع الآخرين يتسم بالمودة وخاصة مع طلّابه وأصحابه، فقد كان يمتلك حالة السكينة والهدوء النفسي، ولا أنسى أنني كنت نائماً في احدى الليالي فجاء أحد الطلّاب وطرق الباب، وأيقظه من نومه وسأله عن مسألة في كتابه الدراسي، فشعرت بالامتعاض واعترضت عـليه عـلى هـذا العمل فقال لي الاستاذ: إنّ هذا طالب ولديه إشكـال عـلمي، ومـن واجـبنا إرشاده ومساعدته، وكان المرحوم آية الله المحقّق الداماد في أثناء الدرس عندما يكثر الطالب من الإشكال فإنّه يلمزه أحياناً مُعرِّضاً بـه، وفـي أحـد الأيّام أخذ أحد الطلّاب يكثر من السـؤال والإشكـال فـي بـحث المـحقق الداماد، فما كان من المرحوم المحقق وطبق عـادته إلّا وتـحدّث بكـلمات أحسّ فيها ذلك الطالب بأنّه يُعرِّض به، فتألم من استاذه وجاء إليّ وقال: لقد شعرت بالإهانة من كلام الاستاذ حيث أزال حرمتي واحترامي أمام الطلّاب، فتحدّثت مع المحقق الداماد بذلك فقال لي: قل له أن يكون مثل (مكـارم) فانني كلما تعرضت إليه بكلام جارح أو بكلام يتضمن استهزاءً فإنّه يـتقبّله بسعة صدر وبشاشة في الوجـه ولا يشـعر بـالامتعاض فـي نـفسه، فـهذه

١. آية اللّه المحفوظي.

شهادةمن المحقق الداماد على حسن خلق الاستاذ»[١].

ويتحدّث سماحة الاستاذ بدوره ويقول:

«من الأُمور التي نواجهها في حياتنا الاجتماعية (وخاصة في الظروف الحالية) كثرة حوائج الناس وتوقعاتهم من رجل الدين، ولست أشعر بذلك لوحدي بل إنّ كل من يستلم مقاماً معيناً فانّ سيل التوقعات وطلبات المحتاجين وأحياناً غير المحتاجين تتجه إليه، وهذه التوقعات من السعة بحيث أننا لا نتمكن من الاستجابة لها بالإمكانات المتواضعة التي لدينا، فهنا لابدّ من العمل بالحديث النبوي المعروف: «إنّكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم»[٢] فالكثير من الأحيان نتوجّه للمراجع والسائل ونقول له: «أرجو المعذرة فإنني لا أستطيع حل مشكلتك للسبب الفلاني وأنا أشعر بالخجل لذلك»، وأسعى لكسب ودّه ورضاه بأمثال هذه الكلمات، وأتذكر نصيحة من المرحوم آية الله كلبايكانى في هذا الصدد حيث قال: «لا تحرموا المراجعين من قضاء حاجاتهم ولو بمقدار قليل» فأنا أسعى للعمل بهذه النصيحة في حياتي وأعمل على تجسيدها في الواقع والممارسة وقد رأيت ثمارها وثمار العمل بها أيضاً».

الالتزام بالاصول واجتناب الافراط والتفريط:

من تجليات الأخلاص لدى سماحة الاستاذ هو التزامه بالاصول والمبادىء واجتناب الافراط والتفريط في جيمع الأُمور وعدم التضحية بالضوابط والمقررات لحساب المصالح

---

١. حجة الإسلام والمسلمين مؤمن الشيرازي.

٢. بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٣٨٣، ح ١٩ وفي ص ٣٨٤، ح ٢٢ وجاء عن أمير المؤمنين عليه السلام: «... فسعوهم بطلاقة الوجه وحسن اللقاء».

الشخصية، ومن الأُمور الشيّقة واللطيفة أنّ سماحة الاستاذ مع كل ما يتمتع به من ذوق وفن وعاطفة جيّاشة فإنّه لا يتخطى الحدود ولا يتجاوز الضوابط والاصول، وأحد المصاديق المهمّة والبارزة لهذه الحالة التزام سماحته في استظهاراته واستنباطاته التفسيرية والفقهية بالآيات والروايات الشريفة، وكانت لي عبرة كبيرة عندما جئت إليه لأول مرّة وعرضت عليه بعض التأويلات الذوقية والجميلة حسب الظاهر، إلّا أنّها خارجة عن إطار القواعد والقوالب الأدبية واللفظية وقال لي:

«إذا تقرر أن نقبل ونتحدّث بكل كلام برّاق وجميل وإن كان خلاف الظاهر، وتكون الألفاظ في أيدينا كالشمع نتصرف بها كما نشاء فانّ ذلك يؤدّي إلى الفوضى الأدبية ولا يثبت حجر على حجر في دائرة الاستظهار الأدبي».

اعتدال السليقة والسلامة الفكرية:

على هذا الأساس فانّ من خصائص وملاكات سماحة الاستاذ: اعتدال الذوق وسلامة الفكر واتقان الرأي، فبالنسبة إلى حسن ذوق الاستاذ فهو حديث الخاص والعام من الناس، هذه الخصلة التي يتحدّث عنها الاستاذ نفسه على مستوى كونها أحد المعايير في تشخيص الروحاني المفيد ورجل الدين المخلص فيقول:

«إنّ الروحاني الجيد ليس هو الذي يتمتع بالقابليات الجيدة والتقوى اللازمة فحسب، بل مضافاً إلى ذلك ينبغي أن يتمتع بحسن الذوق أيضاً، فلا يمكننا أن نتوقع خيراً من العالم والكبير الذي يتمتع بالورع والتقوى والعلم فقط ولكنّه معوج الذوق والسليقة».

العبرة بباطن العمل!

ومن تجليات الاخلاص الأُخرى، النظر إلى باطن العمل وبالتالي فانّ الإنسان يتحرك وهو

ينظر إلى البعيد ويخطط لمسيرة حياته لأهداف بعيدة، إنّ العجلة والتسرع من جهة، وعدم الاعتماد على النفس من جهة أُخرى تعدّ من الآفات التي يبتلىٰ بها البعض والتي تعتبر مانعة من الاستمرار في الكثير من الأعمال والنشاطات، بخلاف الاعتماد على النفس والابتعاد عن العجلة والتسرع فانّ الإنسان بإمكانه حينئذٍ من فتح القلاع وازالة الموانع مهما كانت قوية ومستحكمة في الظاهر، وعلى هذا الأساس نرى أنّ الاستاذ كثيراً ما يكرر في حديثه هذه العبارات: «**من المحال أن نصل إلى طريق مسدود**» أو «**إنّ طول الزمان كفيل بالكشف عن الحقائق، وإن لم يتحقق ذلك في زماننا فسوف يتحقق بعد ذلك**» أو «**لا ينبغي الاصرار على رؤية نتيجة أعمالنا في زمان حياتنا، بل لا ينبغي الاصرار على الانتهاء من العمل الصالح في حياتنا لنرى ثمرته وآثاره الطيبة في حياتنا، فعلينا فتح الطريق وعلى الآخرين إدامته**!».

بهذا النمط من التفكير نجد أنّ الاستاذ وبكامل الشهامة والأمل بدأ بإنجاز مشاريع علمية مهمّة من قبيل «التفسير الأمثل» و«نفحات القرآن» و«نفحات شرح نهج البلاغة» وذلك لتربية الجيل المعاصر بدون الاحساس بالتعب والملل، لا سيّما عندما يلاحظ التحوّلات الروحية والفكرية في عملية تربية الناس (التي تعتبر الهدف الأصل لرجل الدين) فمن الضروري للمربي أن يأخذ بنظر الاعتبار هذه التحوّلات التدريجية في واقع الإنسان، ويأخذ بنظر الاعتبار عامل الزمان في بناء شخصية الإنسان وفكره، فلا يسمح للتعب أن يتوغل إلى قلبه في عملية التبليغ الديني ولا يكون مثل بعض الناس الذين يردون الميدان بكامل الشوق والحرارة ولكنّهم بمجرّد أن يواجهوا بعض المشاكل والتعقيدات أو عدم الاهتمام فإنّهم يتركون الميدان ويصيبهم اليأس والقنوط من هداية الشباب والجيل المعاصر!.

إنّ التأليفات العديدة والمتنوعة لسماحة الاستاذ في المجالات الاجتماعية والأخلاقية، وطول المدّة في عمله في هداية الجيل الحاضر شاهد حي على هذا المدّعى.

بذل الجاه في سبيل الله:

ومن تجليات اخلاص النيّة، بذل الجاه والمكانة الاجتماعية والسمعة في سبيل الله، فربّما يتحدّث الشخص أو يكتب عن التعاليم الإسلامية والمدينة الفاضلة وقدرة الدين على إدارة المجتمع الإسلامي وينتقد النظريات المادية والوضعية والأفكار الشرقية والغربية، ولكنّه في مقام العمل غير مستعد لأن يضحي بشخصيته العلمية والحوزوية اطلاقاً ولا مستعد لأن يبذل قطرة واحدة من ماء وجهه ويتحمل أنواع الاتهامات وأشكال السخرية والاستهزاء في هذا السبيل، أو يكون مستعداً للخروج من قوقعته والتحرر من اطار الدروس العلمية الجامدة والمباحث الأكاديمية والفلسفية إلى أجواء العالم الخارجي وللارتباط المباشر مع جيل الشباب والتعرف على إشكالاتهم وأسئلتهم وما يدور في أذهانهم عن المدارس الفكرية والثقافات المعاصرة وتكون لديهم رؤية جامعة ومنسجمة لتعاليم الدين وقدرته على الإجابة عن علامات الاستفهام والإشكاليات التي يفرضها الواقع المعاصر.

كل هذه من أجل أنّ الإجابة عن الشبهات والمعضلات التي يعيشها الشباب المعاصر والتعرف على مقتضيات الزمان والمكان تقترن بصعوبات كثيرة وتجعل الشخص في معرض التهمة من قبل المغرضين وقوى الانحراف، فهذه الحالة لا تتحقق في واقع الإنسان إلّا من كان ذا حظ وافر من الاخلاص والعشق للدين والدفاع عن حدود الشريعة السماوية، وهذه الحالة نجدها متجسدة لدى استاذنا من قديم الأيّام حيث لا يبخل بشيء في هذا السبيل ولا يأبه ببذل سمعته ومكانته العلمية والحوزوية من أجل الدفاع عن الدين والمحافظة على عنصر الإيمان لدى الناس، وعلى هذا الأساس خرج سماحة الاستاذ من إطار الجو السائد في الحوزة وتجاوز مقولة الشؤونات الحوزوية واستطاع أن يكتب أكثر من مائة وعشرين كتاباً تهتم برفع إشكالات الشباب وتربية الجيل الصاعد.

إنّ ما تقدّم آنفاً كان يدور في ما يتعلق بشؤون الحوزة وفي إطار الأجواء المدرسية، وأمّا خارج دائرة الحوزة، أي في واقع المجتمع، فنرى أيضاً أنّ سماحة الاستاذ يعيش الشهامة

والفتوة في روحه من خلال استعراض إجمالي لمسيرة التحوّلات والحوادث الواقعة قبل الثورة وبعدها وفي ما يتعلق ببعض الأشخاص أو التيارات الفكرية المنحرفة، إنّ هذه التيارات الفكرية وبسبب امتدادها في عواطف الناس والشباب والمثقفين خاصة، وأحياناً لدى بعض العامة من الناس يحتاج التصدي لها ومواجهتها إلى شيء من المخاطرة بالوجاهة والسمعة الاجتماعية، وبالطبع فانّ مقتضى الاحتياط وسياسة المحافظة وحماية المكانة الاجتماعية أن يسكت الإنسان ويتخذ موقف الصمت والتقية وبدوافع من وساوس شيطانية: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ [١] وأوهام تلبس ثوب العقل أو الحكم الشرعي بلزوم المحافظة على حريم الشأنية والمكانة الاجتماعية، وبالتالي يؤدّي هذا الموقف المتماهي مع خط الانحراف إلى كتمان الحقيقة وعدم التصدي إلى البدع والانحرافات في الأجواء الثقافية والاجتماعية ويكون مصداق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ، أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [٢].

إنّ وجدان الاستاذ اليقظ وروح الاخلاص فيه وعشقه للدفاع عن حريم الدين أدّى به إلى الاقدام في ميادين التبليغ والارشاد وهداية الجيل الحاضر ونجاته من براثن قوى الانحراف وأهل الضلال بالرغم من تعرضه لأنواع التهم والسخرية للمغرضين، إلّا أنّه لم يكن يبخل بأي شيء من وجاهته واعتباره وشخصيته في سبيل تحكيم مواقف الدين وهداية المسترشدين.

ولا شك في أنّ هذه الجرأة والشهامة وعدم الخشية من افرازات الموقف يعتبر فضيلة وملكة ثانية لا ينالها إلّا ذو حظ عظيم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ... وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [٣].

---

١. سورة الحجر، الآية ٣٩.
٢. سورة البقرة، الآية ١٥٩.
٣. سورة المائدة، الآية ٥٤.

الدفاع المعقول عن الثورة والحكومة الإسلامية:

والآخر من تجلّيات الاخلاص لله هو دفاعه المعقول عن الثورة والحكومة الإسلامية وسماحة القائد.

ورغم أنّ حفظ النظام الإسلامي يعدّ من أهمّ الواجبات ويعدّ عنصر القيادة الدينية بمثابة عمود خيمة لهذا النظام، ولكن في نفس الوقت نرى أنّ البعض يرجحون الصمت وعدم الدفاع عن هذا الموضوع الحساس في أحرج اللحظات وأشدّ الازمات بحجّة أنّ ذلك مخالف للشأنية الحوزوية، في حين أنّ البعض الآخر يتحرك في خط الافراط ويدافع عن النظام الإسلامي بدون ظوابط وبدون مراعاة الحدود المنطقية المعقولة حيث تذكرنا هذه الحالة بما كان يصنعه البعض من التملّق الزائف لرموز النظام السابق.

إنّ الدفاع المعقول والحكيم والمقترن بالنصيحة والارشاد المشفق بحاجة إلى حالة من الاخلاص والانصاف والفتوة الدينية والاعتدال الروحي وأن يتحرك الإنسان في هذا السبيل بعيداً عن الملاحظات الاعتبارية والنفسانية.

وبحمد الله نرى أنّ الاستاذ (دام ظلّه) يتمتع بهذه التوفيقات الربانية أيضاً، ويتحرك عادة في دفاعه عن النظام الإسلامي والمسؤولين في الحكومة الإسلامية من موقع العقل والمنطق ويقترن ذلك عادة بالتذكر المشفق والنصيحة المخلصة للمسؤولين بحيث لا يكاد يخفى هذا الأمر على أحد من أصدقائه وطلّابه.

اجتناب التكلّف في الكتابة:

ومن تجلّيات الاخلاص لدى الاستاذ، ابتعاده عن استخدام العبارة المغلقة والجملات المبهمة وسائر التكلفات الوهمية والاعتبارية في ميدان الكتابة والتأليف، والأفضل أيضاً أن نستمع في هذا الموضوع إلى سماحة الاستاذ نفسه ليحدّثنا عنه:

«إذا أردنا احراز الموفقية في عالم التأليف والكتابة يجب علينا تعين

المخاطب الأصلي لهذا الكتاب أو المقالات، فمن هو المخاطب في هذا الكتاب؟ وكأنّ المخاطب أو المخاطبين عندما نكتب لهم كتاباً، نراهم ونكتب لهم ومن أجلهم، فلو أننا فقدنا المخاطبين حين الكتابة أو استبدلناهم بصورة عمدية بغيرهم فانّ تأثير ذلك سيكون سلبياً على محتوى الكتاب واسلوب الكتابة.

* وتجربتي الأُخرى في هذا المجال هي أننا إذا أردنا أن نحصل على النجاح والموفقية في الكتابة فلابدّ من الاهتمام والالتفات العميق والدقيق إلى مشاكل الناس ومسائلهم الفكرية وآلامهم النفسية، فاذا تحركنا في هذا المسير وكانت كتاباتنا تعكس مشاكل المجتمع وآلام الناس فيها وتتضمن بيان الحلول التي تلامس هذه الأزمات وحل العقد الفكرية للأفراد فسوف يكتب لنا النجاح والموفقية وتكون كتاباتنا خالدة.

* وتجربتي الأُخرى في هذه المرحلة أنني لم أكن أكتب شيئاً لا أعتقد به أو أُواجه بعض التعقيدات الفكرية غير المحلولة، فالإنسان إذا اعتقد بشيء فإنّه يدافع عنه بكل وجوده، والمسألة التي يجد لها الحل المقبول فإنّه سيتحرك لبيانها وبيان حلها ببساطة وتكون كتابته لها من موقع الاخلاص والعمق الفكري، وعلى هذا الأساس فانني أُوصي الاخوة أنّهم ماداموا يواجهون مسألة غير منحلة لديهم وما لم يعتقدوا بقضية فلا ينبغي أن يتحركوا على مستوى كتابتها وتدوينها.

* وتجربتي الأُخرى هي أنّ الكتّاب أحياناً يتورطون في مشكلة تطويل المقدمات وبالتالي سيقع القارىء في دوامة ومتاهة في بحثه عن أصل المسألة، فيجب حذف المقدّمات الزائدة والتفريعات الاضافية وغير الضرورية والاكتفاء في البداية بكلمة (بسم الله الرحمن الرحيم) مع مقدّمة

قصيرة تتعلق بالدوافع لكتابة هذا الكتاب ثم الدخـول إلى أصـل المـطلب والموضوع مباشرة، بالطبع ربّما تكون هـناك مـقدّمات لازمـة فـي بـعض الموارد، ولكنّ الاهتمام بالمقدّمات والفروع يبعث على الملل والتعب فـي نفس القارىء والكاتب.

* وتجربتي الأُخرى أيضاً وبنظري مهمّة جدّاً هي أن نسعى للتحدّث مع النـــاس والمـــخاطبين بـلغتهم ولسـانهم، ونـتجنب التـفريعات الصـناعية والملاحظات المغلقة والجملات المبهمة وغـير المـفهومة مـمّا يـؤدّي إلى خروج المكتوبة عـن البسـاطة والسـلاسة وبـالتالي سـتتعرض المكـتوبة والكاتب إلى ضرر شديد، وطبعاً فالأذواق مختلفة، فالبعض يرى بأنـنا إذا كتبنا بأسلوب سهل فسوف يتصور الناس أنّ مستوى الكتاب أو الموضوع متدني، فالأفضل كتابة الموضوع بأُسلوب مغلق وعـبارات مـعقّدة ليـتصور القاريء أنّ مستوى الموضوع عالٍ من الناحيةالعلمية.

وأتذكر جيداً أنّ شخصاً أوصى أحد الاخوة بأن يسعى أن يكـون ثـلث كلامه في المحاضرة غير مفهوم ليقال أنّ الشخص الفـلاني يـتحدّث بـلغة علمية عميقة، وكذلك الحال في عالم الكتابة والتأليف، فالبعض يرون هـذه الرؤية أيضاً، ولكنني أعتقد أننا يـجب عـلينا تـحطيم هـذا الصـنم، فـهذا الأُسلوب يعتبر نوعاً من عدم الاخلاص في المنهج، أو هو نوع من التضحية بالهدف من أجل بعض الملاحظات الشخصية والاعتبارات النفسانية، وطبعاً فانّ سهولة الكتابة وسلاسة المنطق ربّما تكون لها بعض اللوازم وتؤدّي إلى أن يقول البعض إنّ درس الاستاذ الفلاني بسيط وغير عـميق، أو أنّ كـتابه ليس بالمستوى المطلوب، ولكنّ التجربة أثـبتت لي أنّ النـاس المـخلصين يستقبلون مثل هذا الأُسلوب والمنهج في الكتابة والبيان استقبالاً جيداً.

إنني لن أقبل طيلة عمري بهذه التوصية والنصيحة بأن أكتب بأُسلوب معقد وصعب أو أُدرِّس باسلوب معقد، وقد رأيت نتائج إيجابية وبركات كثيرة على أُسلوبي السهل والسلس، وليقولوا ما يقولون، مضافاً إلى أنني أرى أنّ التعقيد في الأُسلوب نوع من الشرك وعدم الاخلاص في النيّة بحيث أننا نضحي بمصلحة الناس في سبيل عناوين موهومة، فليس عيباً أن يكتب الشخص بأُسلوب سهل أو يتحدّث في الدرس بأسلوب مفهوم، بل هذا الأمر بحدّ ذاته يعتبر فناً كبيراً، ولو أنني كنت أملك ما يكفي من الوقت فانني سأقوم بإعادة كتابة الكتب الدراسية والعلمية المعقدة مثل (كفاية الاصول) بأسلوب عربي سهل بدون تغيير في المضمون والمحتوى لأُثبت أنّ أعقد المتون وأصعب البحوث العلمية يمكن بيانها بأسلوب سهل ويفهمها الطلّاب بيسر وسهولة، وعلى أيّة حال فاذا كانت السهولة والسلاسة في الكتابة أو التدريس عيباً فانني أعترف بهذا العيب والذنب، ولكنّ التجربة أثبتت لي أنّ الموفقية والنجاح يترتبان على هذا المنهج، وكذلك يترتب عليه الاخلاص والثواب الإلهي، ولهذا السبب أُوصي الاخوان الأعزاء أن لا يتورطوا في هذه المسألة بالوسواس والنوازع النفسانية، فلو تمكّنوا من الكتابة أو التحدّث في المحاضرة بأسلوب سهل وميسور فعليهم أن يعتبروا ذلك من المواهب الإلهية والنعم الربانية».

التوكّل على الله من منزلقات القلم:

لعلنا نتمكن من بيان أحد آثار **وتجليات اخلاص النيّة** لدى الاستاذ بحالة «التوكّل على الله» وعدم الوقوع في مطاوي القلق من احتمال الخطأ والاشتباه على مستوى الكتابة والتأليف والتحرك في هذا المجال بشهامة وشجاعة، إنّ التوكلّ على الله وتفويض الأمر إليه

يضمن للإنسان سلامته الفكرية وما ينعكس عن هذا الفكر السليم على مستوى الكتابة والتأليف، وبالتالي يصون فكره وقلمه من الوقوع في متاهات الخطأ والزيغ، واللطيف أن نستمع في هذا المجال إلى سماحة الاستاذ نفسه ليحدّثنا عن هذا الموضوع:

«إنني أعتقد بأن الكاتب مهما كان مقتدراً وعالماً وماهراً في فن الكتابة فلابدّ أن يعيش حالة التوكّل على الله تعالى وتفويض الأمر إليه، لأنّه قد يصدر منه بعض أشكال الخطأ غير القابل للجبران، وأنا بدوري أتحدّث عن هذه النعمة الإلهيّة الكبيرة من موقع قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[1] أحياناً ربّما يحدث أن أكتب موضوعاً أو أُبين ملاحظة بشكل خاطىء وقد يكون ذلك الخطأ كبيراً، وأحياناً يصل الكتاب إلى المطبعة، ولكن تحدث بعض الأُمور بحيث ننتبه إلى ذلك الخطأ ونعيد الكتاب من المطبعة لإصلاحه، وأساساً فانّ تأليف كتاب مثل «التفسير الأمثل» في عشرين مجلداً لا يمكن أن يسلم من أخطاء كبيرة واشتباهات مهمّة من دون معونة إلهيّة وامداد غيبي. إننا نرى بعض الأشخاص كتبوا كتاباً صغيراً ومع ذلك يبتلون بأخطاء مهمّة، وعلى أيّة حال ما لم يكن الشخص كاتباً فإنّه ربّما لا يصدق بهذا الكلام بدقة، فأنا أعيش حالة التوكّل وقد فوضّت أمري إلى الله تعالى وأعوذ به من الوقوع في هذه الأخطاء والمنزلقات في المستقبل أيضاً (إلهي لا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً)».

السرقة في الكتابة من الأخلاق الذميمة:

والآخر من تجلّيات الاخلاص لدى الاستاذ هو الابتعاد عن «السرقة في الكتابة» حيث نرى أنّ الاستاذ نفسه يشكو من ذلك أيضاً ويقول:

---

١. سورة الضحىٰ، الآية ١١.

«في احدى المرات وقع في يدي كتاب جيد وفيه مواضيع جميلة عن عبادة الله، وبعد مطالعة الكتاب رأيت أنّ هذه القضايا والمواضيع معروفة لديّ وكأنّني كتبت في السابق مثل هذه الكلمات في كتاب «خالق العالم» ولكنني رأيت أنّ هذا الكتاب عبارة عن ترجمة لكتاب عربي، ثم انتبهت أنّ أحد الكتّاب العرب قام باقتباس مطالب كتابي ونقلها إلى العربية من دون ذكر الاسم وطبعه باسمه، ثم إنّ المترجم الفارسي جاء ونقل الكتاب من العربية إلى الفارسية لأنّه وجده كتاباً جيداً وجاءت الترجمة شبيهاً لكتابنا الأصلي.

وهناك قضايا كثيرة من هذه بأشكال مختلفة تورث الأسف وتبقى ذكرياتها المؤلمة في الذهن، فصحيح أنّ الاقتباس من الكتب أمراً متداولاً ولكن الاقتباس له أيضاً حد، وصحيح أننا لا ينبغي أن نبدي رد الفعل لهذا العمل، ولكن ليس صحيحاً أن يقوم البعض بعمل بعيد عن الانصاف كهذا، وربّما يتصور البعض أنني اقتبسته وسرقته من ذلك الكتاب العربي في حين أنّ تاريخ طبع ذلك الكتاب متأخر عن طبع كتابنا بزمن كبير، ونأمل أن نصل في المستوى الأخلاقي إلى درجة أن لا نتوجه إلى هذه المسائل ويكون عالم الكتب والمؤلفات سليماً من هذه الأعمال الذميمة».

١٨

التعبد والخشية من الحساب والميزان

بالرغم من أنّ الاستاذ، **أوّلاً**: قام بتدريس الكثير من أبواب الفقه، وعمل على استنباط جميع المسائل الفقهية المختلفة بهذه الطريقة، **وثانياً**: كتب حاشية على جميع العروة الوثقى للسيّد اليزدي قدس سره، وبهذه الطريقة أيضاً ألقى نظرة اجتهادية على جميع الأبواب الفقهيّة المذكورة في العروة الوثقى (وبالنسبة إلى الأبواب الفقهية غير المذكورة في العروة الوثقى فانّ الاستاذ قام بكتابة حاشية على تحرير الوسيلة للإمام الراحل قدس سره أيضاً، **وثالثاً**: قام بتأليف رسالته العملية «كتاب الفتاوى» بقلمه السيّال وبيانه الشيّق لمدّة سنتين، ومن هذا الطريق أيضاً ألقى نظرة فاحصة على جميع أبواب الفقه في المرّة الثالثة ومستخرجاً بذلك آراءه وفتاواه الشخصية، والنتيجة هي أنّ الاستاذ قد قرأ الكثير من المسائل الفقهية ثلاث مرات على الأقل، ولكنّه مع ذلك يعيش حالة الحساسية الكبيرة والوسواس في كثير من الاستفاءات الشرعية حيث يتعامل معها بصبر كبير وتأنٍّ في عملية الاستنباط ويعيد نظره في الأدلة والمدارك من النصوص الشرعية ويوكل أمر الإجابة عن المسألة لزمان آخر.

وبديهي أنّ مثل هذه الحساسية تحكي عن تعبّد خاص وتدين قوي، وتعتمد على حالة من التقوى والخوف من الحساب والكتاب والميزان، إنّ مثل هذه الملكة والخصوصية تتجلّى بأنحاء وأشكال مختلفة في حياة سماحة الاستاذ كسائر خصاله وخصوصيّاته الأُخرى، ومن جملة ذلك «**الوسواس في الأُمور المالية ومصرف بيت المال ومصرف السهمين سهم السادة وسهم الإمام والاهتمام بتجنب معالم الاسراف والقصور والتقصير في هذا الأمر**».

الوسواس في الأُمور المالية والانفاق من بيت المال:

توضيح ذلك: أنّه بغض النظر عن حساسية الاستاذ بالنسبة إلى حقوق الناس ودفع الديون المترتبة (التي كثيراً ما يقول الاستاذ: «**إنني أحياناً أقوم بدفع ديني إلى الشخص مرتين**» وقد شوهد الاستاذ مراراً يعمل على تصفية حساباته لجميع الأشخاص الدائنين قبل كل سفر حتى الأسفار القصيرة) وبالنسبة إلى الانفاق من بيت المال فانّ الاستاذ يمتلك حساسية كبيرة إلى درجة الوسواس من أجل ضبط الأُمور وعدم الاهمال في هذا المورد.

إنّ هذه الخصلة من شأنها أن تثير اعتراض الكثيرين نظراً لما يرونه من أشكال الاسراف والبذل والعطاء بدون حساب لدى بعض المنتسبين للحوزة، ممّا أدّى إلى أن لا يبقى مع الاستاذ في مكتبه إلّا من كان ذا نيّة صادقة ويهدف من عمله إلى تقديم الخدمة للإمام صاحب الزمان عليه السلام (من باب أنّ الاستاذ يمثّل جندياً وفياً ومخلصاً للإمام صاحب الزمان عليه السلام) أو مراعاة لحقوق الاستاذ على طلّابه أو بدوافع علمية ومعنوية أُخرى، والملفت للنظر أنّ حساسية الاستاذ في هذا المورد تجلّت أيضاً في حياته الخصوصية والأُسرية، حيث يتحدّث سماحته عن ذلك بقوله:

«إنني أسعى مهما أمكن أن أُقلل الاستفادة من بيت المال، ولهذا السبب فانني في حياتي السابقة كنت أعتمد في تأمين مواردي المالية على التبليغ في أيّام شهر محرم وصفر وشهر رمضان المبارك، والبعض منها استلمه كحقوق ولكن بعد أن راجت تأليفاتي فإني أستلم (حق التأليف) من الناشرين لتأمين نفقات حياتي ومعيشتي، وأخيراً لم أكن أقبض حقوقاً شهرية من المراجع، وحتى في هذه المرحلة وهي مرحلة المرجعية فكذلك أعتمد في تأمين نفقات معيشتي من حق التأليف لكتبي ومؤلفاتي».

حفظ الغيب عن الآخرين:

ومن جملة تجلّيات الخصلة المذكورة للاستاذ (التعبّد والخشية من الحساب والميزان) «**حفظ غيبة الآخرين عند سماحة الاستاذ**»، فنظراً لشيوع الغيبة وعدم رعاية حرمة الآخرين كظاهرة اجتماعية في وسط المتدينين بحيث لا تخفى على أحد من الناس، ومع الأسف نجد أنّ بعض الأشخاص مع ما لهم من الفضل في مجالات مختلفة فانّهم لا يراعون حرمة الآخرين ولا يهتمون بمسألة حفظ غيبتهم لا سيّما إذاكان ذلك الشخص من المنافسين ومن رفاقهم في المراحل الدراسية، وأحياناً يتحركون على مستوى فضح الآخر عندما يحسون بأدنى خطر ويعملون على هتك حرمته من خلال تلفيق فتوى جواز غيبته، فمع ملاحظة كل هذه الأُمور، نرى أنّ سماحة الاستاذ مع كل ما تحمل من مواجهات سلبية لدى البعض ومواقفهم اللاأخلاقية بالنسبة للاستاذ، ومع ذلك بقي محتفظاً باحساساته ملتزماً بأوامر الشرع من موقع ضبط المشاعر والعواطف وتفضيل السكوت والصمت على رغم وجود أجواء مساعدة للجواب والردّ، فنرى سماحة الاستاذ يرجح المرور على مثل هذه الأُمور مرور الكرام، ولا شك أنّ مثل هذا الضبط والامساك يحتاج إلى ملكة التقوى ورسوخ ملكة العدالة التي لا تتسنى لأي شخص إلّا من يستيقظ أوقات السحر ويشد متاعه ليومه في ذلك الوقت، ويتحدّث بعض أصحابه[1] عنه ويقول:

«إنّ ما أُريد قوله هنا هو الحديث عن مسألة «العبادة والمناجاة» في حياة الاستاذ، فبالنسبة إلى عبادته (ولا أعلم أنّ الاستاذ يرضى بذلك أم لا) يقوم في الليل إلى العبادة فلا يترك صلاة الليل بحال ولعل ذلك كان باعثاً على أن يقوم بعض الساكنين معه في الغرفة أيضاً، فكان سماحة الاستاذ يستيقظ آخر الليل وبعد أن ينتهي من نافلة الليل يصلي صلاة الصبح ثم يشتغل بالمطالعة إلى وقت تناول طعام الفطور ويذهب متوجهاً إلى حيث أعماله اليومية في الدرس والتدريس...».

---

١. آية الله المحفوظي.

١٩

سعة الصدر في العمل الجماعي

إنّ كل عمل من أعمال الخير وكل فعل مهم وأساسي يصدر من الإنسان، كما يثير حالة التحسين والتمجيد لدى البعض، فإنّه يثير حالات سلبية لدى البعض الآخر بدوافع مختلفة (سواءً كانت الدوافع ذوقية أو نفسانية أو من باب الحسد أو الانتماء إلى بعض التيارات السياسية) فتدفع الشخص إلى ابداء المخالفة والاعتراض، ولكن نظراً لعامل الزمان وثبات الحق والعمل الصالح وبالتالي زهوق الباطل وسقوطه فانّ هذه الفئة من الناس تستيقظ من غفلتها تدريجياً وتنتبه إلى خطئها فتعود إلى خط الحق، وبديهي أنّ تحمّل مخالفاتهم في ذلك الزمان وقبولهم وعدم الانتقام منهم في الزمان اللاحق وبعد عودتهم إلى الحق، يحتاج إلى موهبة شرح الصدر الإلهيّة حيث نجد هذه الموهبة متجلّية بحمد الله في استاذنا المعظم.

إنّ المورد المذكور أعلاه يمثل مورداً من ميادين ظهور وبروز ملكة شرح الصدر لسماحته، لأنّ هذه الخصوصية تتجلى في ميادين مختلفة أُخرى، ومن جملتها تحمل العمل الجماعي.

توضيح ذلك، أنّ المجموعة هي «**الوجود السيّال للفرد**»، ولا يتكامل الأفراد إلّا من خلال الانخراط والانضمام في الجمع، ومن جهة أُخرى فانّ العمل الجماعي وتطوره أكثر وأفضل بكثير من الأعمال الفردية، ولكن بما أنّ الإنسان معجب بأفكاره وآرائه واطروحاته الجديدة فانّ ذلك يورثه غالباً ضيق الصدر وعدم تحمل الأفكار والسلائق الأُخرى وبالتالي لا يجد في نفسه رغبة للعمل الجماعي، ولكن الاستاذ يعدّ من رواد العمل

الجماعي ومن رموز هذه الحالة من عملية الابداع الفكري، فعندما يتحدّث لنا سماحته عن تجربته في عالم التأليف والكتابة يقول:

«إنّ أول تجربة لي أثبتت بشكل قاطع أنّ العمل الجماعي في جميع الموارد ولا سيّما في النشاطات العلمية وخاصة في كتابة الكتب أفضل من العمل الفردي كثيراً، فالكتب التي كتبناها بصورة جماعية أي بالتشاور مع الآخرين كانت أسرع وأعمق وأكثر غزارة من جهة، ومن جهة أُخرى كانت مورد استقبال الناس أكثر حتى لو كان الطرف الآخر في المشاورة والعمل الجماعي تلميذاً للشخص.

إنّ الحركة السريعة في تأليف التفسير الأمثل وتفسير نفحات القرآن مع ما يتضمنان من مقبولية ومطلوبية لدى الناس هي ثمرة العمل الجماعي، والكتب التي قمت بتأليفها في مجال العقائد وكنت قد سبق وأن درستها، ولذلك فهي أيضاً وليدة العمل الجماعي، وكذلك كتاب «أشباه الفلاسفة» بدوره اشترك فيه جمع من الفضلاء والعلماء، إذن فهو حصيلة العمل الجماعي، وعلى أيّة حال فانا أُوصي جميع الاخوة من الكتّاب الأعزاء أن يتحركوا في عالم التأليف على مستوى ترجيح العمل الجمعي على الفردي لاسيّما في تصنيف وتأليف الكتب المهمّة».

وكذلك فانّ ملكة شرح الصدر تعني تحمّل نظرات المخالف وتجنب الاطلاق والجزمية والتمتع بخصلة الاغماض والصفح، لنستمع إلى الاستاذ يقول:

«كما أشرت آنفاً إلى أنني استنتجت من خلال تجربتي في الحياة أنّ بعض الأُمور يجب فيها ترجيح العمل الجماعي وقد أثمر هذا العمل في تطوير الحركة الفكرية والعلمية والتقليل من الخطأ والاشتباه، غاية الأمر أنّ العمل الجماعي له شروط حيث سعيت بالاستمداد من لطف الله وكرمه

بالعمل وفقها ما أمكنني ذلك، وأُوصي الآخرين باحترام نظرات الغير في هذه الموارد وتحمل عقائد المخالفين وأن يعيش الشخص حالة سعة الصدر والاغماض، فلو تلاقحت هذه الأُمور واقترنت مع بعضها فانّ ذلك يعني نجاح العمل الجماعي، ولكن إذا كنت أُفكر من موقع الجزمية والاطلاق في صحة أفكاري فقط وبطلان الرأي المخالف ولم أحترم آراء الآخرين وأفكارهم ولم أتحمل عقيدة المخالف ولم أملك حالة الاغماض فانّ هذا من شأنه عرقلة المسيرة قطعاً، وأُضيف هنا هذه الحقيقة، وهي أنّ للآخرين نقاطاً إيجابية ونقاطاً سلبية دائماً، ولا يوجد شخص يعيش النقاء من أي نقطة سلبية سوى المعصومين عليهم السلام، فكل إنسان لديه نقطة أو نقاط قوة، ويجب علينا دائماً التعامل مع الآخرين من موقع حصيلة النقاط وجمع المعدل لمعرفة حساب صفات الأشخاص، ولو كان المعدل جيداً لزم علينا تحمل الجهات السلبية ونقاط الضعف من ذلك الشخص!».

وعلى أيّة حال فانّ سعة الصدر وروحية العمل الجماعي لسماحة الاستاذ ترتبت عليها ثمرات وبركات كثيرة، وقد تقدم تفصيل الكلام عن كثير منها في فصل «**حراسة المذهب**».

٢٠

الرياضة البدنية والنشاط الجسماني

إنّ من آفات الحوزة العلمية ولا سيّما في الأزمان الماضية عدم الاهتمام بعنصر الصحة البدنية وعدم اعتنائهم بكيفية التغذية وسلامة البدن وما يتعلق بها من المسائل في حفظ الصحة حيث يتصور العوام من الناس أنّ ذلك يدلّ على زهد العالم وعدم اهتمامه بأُمور الدنيا وعدم العناية بالمظهر من اللباس والحذاء، إنّ العوام من الناس يرون اصفرار الوجه والذبول والكآبة والثياب الرثة وعدم النشاط في الكلام والمشي والجلوس والقيام والقعود وأمثالها من المظاهر الخادعة أنّها من معالم الزهد والتقوى والورع ويعتبرون ذلك كرامة للإنسان ومن الفضائل الأخلاقية، بخلاف ما إذا رأوا الشخص نشيطاً وفاعلاً ويتحرك بفاعلية ويمارس الرياضة البدنية وعندما يتكلّم فانّ كلماته تصدر بنبرات قوية ونافذة فانّهم يعتبرون ذلك من علامات الضعف والميل إلى الدنيا والتحرك خلافاً للشؤونات الحوزوية ومقتضيات اللباس لرجال الدين.

ولم يكن الاستاذ (دام ظلّه) منذ بداية شبابه غافلاً عن هذه الآفة والظاهرة المرضية، ولكن اشتهر عنه المشي على الأقدام بين الطلوعين، والآن وبعد أن بلغ من العمر سبعين عاماً يخصص ساعة من الليل أو النهار للرياضة والمشي، وبالنسبة إلى مسائل الصحة وضوابطها فانّ الاستاذ على اطلاع واسع ومفيد بمسائل الطب القديم والجديد حيث يستشيره الكثير من الأصدقاء والمعارف والطلّاب، وأمّا في مقدار الغذاء وكيفيته واجتناب الافراط في الطعام وعدم تناول الأطعمة غير الضرورية فيعتبر الاستاذ قدوة للآخرين،

ويتحدّث سماحته عن ذلك بقوله:

«إنني أتناول من الطعام بمقدار بحيث أنّه لو جاءنا ضيف ومددنا المائدة مرّة أُخرى له وكانت المصلحة تقتضي أن أُشاركه في الطعام فانّي لا أجد مشكلة في ذلك وأمتلك القدرة على تناول الطعام مرّة أُخرىٰ بالمقدار الأول!».

قلّة الطعام:

وكذلك يقول سماحته:

«كان لدينا طبيب للأسرة قال لي يوماً: إنني أُريد أن أُلخص لك ما تعلمته من تجربتي الطبية في كلمتين، وهما: أنّ رمز سلامة الإنسان في أمرين: قلّة الطعام وفاعلية البدن، فقبلت منه هذه التوصية وكانت لي علاقة منذ بداية حياتي بمطالعة كتب التغذية السليمة والنشاطات الرياضية والبدنية، وبالجملة فانني استطعت التقليل من الطعام وشعرت براحة كبيرة من ذلك، وأتصور أنني أتناول خمسين بالمئة من الطعام الذي استطيع تناوله... وبذلك تزول عني معظم أشكال الكسل التي تنشأ من الأطعمة الإضافية التي لا يستطيع البدن جذبها والاستفادة منها، ولي معرفة واسعة بكتب النباتات الطبية وفوائد الأغذية النباتية، ونستفيد من بعضها لحل المشكلات التي يواجهها بعض المراجعين الذين يسألونني أسئلة كثيرة من هذا القبيل، فأفهم من مجموع هذه الأسئلة أنّه يجب على الإنسان الاهتمام بتناول الأغذية النباتية والفواكه بحيث أجعل منها قسماً مهماً من طعامي ولا أكثر من تناول الأغذية الحيوانية والأطعمة الدسمة، وهذا يبعث على إيجاد الاستقرار والهدوء الروحي لدى الإنسان».

هذا ما يمكن قوله بالنسبة إلى كمية الغذاء، وأمّا بالنسبة إلى مقدار الاستراحة وكيفيتها فيقول سماحة الاستاذ:

«بالنسبة إلى النوم والاستراحة فإنني وبسبب العمل الكثير والفعّالية المستمرة بمجرّد أن أتوجّه للسرير لغرض النوم فانّ النوم يملكني مباشرة وبعد لحظات، وأحياناً لا استطيع إكمال آية الكرسي التي أقرأها قبل النوم عادة».

الرياضة الصباحية:

وبالنسبة إلى الرياضة وأشكال الحركات البدنية يقول سماحته:

«إنني أشعر بالتزام قوي بقضية الرياضة البدنية والمشي على الأقدام، فلابدّ أن أقوم عند الصباح الباكر بالحركات البدنية الخاصة، وكما يوصي الأطباء أيضاً، وعندما أقوم بهذه الأعمال والحركات البدنية فانني بحمد الله لا أشعر بعدها بوجع المفاصل والأقدام».

المشي:

وبالنسبة إلى المشي على الأقدام يحدّثنا سماحته عن ذلك ويقول:

«بالنسبة إلى فوائد المشي فانني رأيت مسائل وثمرات كثيرة ولذلك فانّي أجد نفسي مواظباً على الاستفادة من هذه الرياضة كل يوم في الأمكنة الخالية والهادئة من المدينة أو خارجها حيث أذهب إلى هناك وأتمشى كل يوم مقداراً من الوقت، وهذا العمل أصبح جزءً من حياتي بحيث أنني لو امتنعت منه فسأقع طريح الفراش، وقد ساعدني هذا العمل كثيراً في نشاطاتي العلمية بحيث إنني في الحال الحاضر وقد بلغت من العمر سبعين

عاماً (والمستقبل بيد الله تعالى) لا أشعر بأي ألم جسماني في أي عضو من أعضاء بدني، وأحياناً أُمارس أعمالي وكأنني رجل في الأربعين من العمر حيث أتحرك في أداء مسؤولياتي وفي إطار المطالعة والكتابة وأمثال ذلك».

عنصر التشويق:

أجل، فانّ رعاية هذه الأُمور أدّت إلى أن يتمتع سماحة الاستاذ مع كثرة مشاغله وتعدد أعماله بجسم سالم ونشط بلطف الله، والاستاذ نفسه يتحدّث عن ذلك بقوله:

«إنني في كل عام أعرض نفسي على الطبيب ليفحصني بصورة كلية ونتيجة هذه الفحوص بحمد الله تكون نتائج الاختبارات اللاحقة أفضل من النتائج السابقة، وفي هذه المرة كتب لي أحد الأطباء رسالة تشويقية مفصلة، ومن جملة ما كتب فيها: إنّ التشخيص الطبي يفرض عليَّ القول بأنّ رمز سلامتكم تكمن في ثلاثة أُمور: ١ ـ رعاية الصحة في قلة الغذاء وكيفيته، ٢ ـ الرياضة، ٣ ـ التسلط على الأعصاب واجتناب الحدّة والغضب، (وطبعاً المستقبل بيد الله سبحانه)».

وكذلك فان مراعاة هذه الأُمور أدّى بحمد الله أن يعيش الاستاذ بهذا السن بحالة من النشاط والفعّالية أكثر من طلّابه وأصحابه الشباب، حيث يحضر في جلسات التأليف والتحقيق دائماً في حين أنّ الكثير من العلماء في مثل هذا العمر ومع الأسف الشديد نراهم مبتلون بشكل أو عدّة أشكال من المرض وهبوط الفاعلية والكسل، ونسأل الله تعالى الصحة والعافية وطول العمر لجميع العلماء لخدمة الإسلام والمسلمين وكذلك بقاء الصحة والعافية لأستاذنا العزيز.

ومن العجيب أننا نرى مع كل هذه التأكيدات من العقل والشرع والتجربة أنّ البعض يذهبون إلى الحصر في التأثير في هذه المسائل بالقضاء والقدر، أو أنّهم سلكوا طريق

الافراط ولم يمتنعوا من أي طعام ولم يجتنبوا أي غذاء فيتناولون ما لذّ وطاب من الأطعمة والأغذية بدون حساب، أو سلكوا طريق التفريط واجتنبوا الطيبات التي خلقها الله سبحانه للإنسان وامتنعوا من تناول النعم الإلهيّة المختلفة.

في حين أنّ رعاية الملاحظات المذكورة ربّما تزيد في عمر العالم الديني والرباني عشرين أو ثلاثين سنة، بمعنى أنّ مراعاة هذه الأُمور يمكنها أن تجعل العالم والفقيه يمارس نشاطه في الدفاع عن الدين والمذهب عشرين أو ثلاثين سنة أُخرى، وفي مقابل ذلك فانّ عدم رعاية هذه الأُمور تؤدّي إلى أن لا ينتفع العالم الذي قضى عمره في السعي وبذل الجهد وأنفق طاقاته وقابلياته في هذا السبيل من هذا العمر الشريف، وفي حين يكون المتوقع أن تثمر هذه الشجرة الطيبة وتنفع الناس بوجودها المبارك فانّها يصيبها الذبول والضعف وتجف في النهاية وبدلاً من أن يستفيد الناس الحد الأكثر من مواهب هذا العالم الجليل فانّهم لا ينالون من بركاته إلّا القليل جدّاً، وهذا الأمر ممّا يؤسف له.

ثلاثة تعاليم مهمّة لحفظ الصحة:

لهذا السبب نرى أنّ سماحة الاستاذ يتحدّث عن مجمل هذه الأُمور بقوله:

«إنني أُوصي جميع الطلّاب الأعزاء بثلاثة أُمور:

١ ـ النشاط البدني من الواجبات.

٢ ـ أن لا ينسوا الاعتدال في الغذاء، الاهتمام بتناول الأغذية النباتية بحيث تشكل هذه الأغذية الأساس والعمدة في طعامهم ولا يتصوروا أنّ اللحوم الحيوانية الدسمة والحلويات تقوي البدن، ولعل البعض يتألمون في البداية من قلّة الغذاء ولكنّهم تدريجياً يعتادون على ذلك ولا يطلبون المزيد، إنّ الكثير من الأشخاص الذين يكون وجودهم مليئاً بالبركة والخير للإسلام والمسلمين، ولكن مع الأسف عندما تنضج قابلياتهم وتتكامل

قواهم ويبرزون للناس ويُعرفون بالعلم والصلاح ويكون لهم أثر وصدا في الحوزات العلمية فإنّهم يصابون بالذبول وتخفت قواهم ولا يتمكن الناس من الاستفادة منهم استفادة جيدة، وهذا الأمر يمثّل خسارة كبيرة للعالم الإسلامي، وعلى هذا الأساس ينبغي السعي من باب مقدّمة الواجب في حفظ الصحة والسلامة للفرد ولا يهمل هذا المعنى أو يقصّر في اتخاذ ما ينبغي له.

٣ ـ كما ورد في الحديث الشريف أنّه يجب على الإنسان من أجل تجديد قواه أن يهتم بعامل الترفيه والاستراحة وأن يرى ذلك بعنوان العبادة ومقدّمة للواجب، وقد ذكر لي أحد الأطباء في شيراز: أنّك إذا أردت أن تعمل كثيراً في الليل والنهار فلا أمنعك من ذلك ولكن عليك أن تجعل في الاسبوع يوماً واحداً للاستراحة المطلقة وتفرغ من جميع أعمالك الفكرية ونشاطاتك العلمية، وأنا بدوري أسعى للعمل بتوصية هذا الطبيب، ولهذا السبب فانّي أمتنع من ملاقاة الناس في يوم الجمعة وأسعى حدّ الإمكان أن أخرج من المدينة إذا كان الجو مساعداً، لأنّ بقائي في البيت وكثرة الاتصالات الهاتفية يخلق مشكلة في استراحتي هذه، ولكن أحياناً أضطر إلى العمل خلاف هذه الوصية وأقوم بأداء بعض الأعمال التي أُجبر على القيام بها في يوم الجمعة ولهذا لا يكون برنامجي كاملاً مع الأسف».

٢١

التمسك بذيل ولاية أهل بيت عليهم السلام

إنّ إعجاب الشخص بنبوغه العلمي واعتماده الكامل على قدراته الذاتية تعدّ من العوامل السلبية التي تصيب النوابغ والشخصيات العلمية الكبيرة بحيث تهدر قواهم وتبدد طاقاتهم بدلاً من تقويتها وتنميتها.

بالنسبة إلى الاستاذ (دام ظلّه) فإنّه رغم الذكاء الحاد الذي بان على جبينه منذ الطفولة، وكما يحدّثنا رفاقه في مرحلة الطفولة عن ذكائه المفرط الذي يشع من عينيه، فإنّه مع ذلك كان يمتلك حالة من التعبّد الشرعي والتواضع الأخلاقي وكذلك الاحساس بالفقر والحقارة في مقابل الأنوار الطاهرة لأولياء الله والأئمّة من أهل البيت عليهم السلام، وفي هذا المجال يتحدّث لنا أحد مرافقيه [1] في أيّام الدراسة الذي كان يشترك معه في الغرفة:

«إنّ سماحته كان منذ البداية مورد عناية صاحب الزمان وسائر الأئمّة عليهم السلام حيث يقول تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [2] إنّ هذه الآية رغم كونها في مورد الرسالة والنبوة إلّا أننا بتنقيح المناط، كما يقول الفقهاء، يمكن القول أنّ هذا الرجل العظيم مورد عناية إلهيّة خاصة».

الزهراء عليها السلام مظهر «يا من يقبل اليسير»:

وقد سبق أن تحدّثنا عن تعبّد الاستاذ وتهجّده وتواضعه الكبير في فصل «**اخلاص النيّة**»

---

١. حجة الإسلام والمسلمين مؤمن الشيرازي.

٢. سورة الانعام، الآية ١٢٤.

وهنا نقول أنّ سماحة الاستاذ يهتم كثيراً بمجالس أهل البيت عليهم السلام ويقيم هذه المجالس في كل سنة في ليلة عيد الغدير وليلة ولادة الإمام صاحب الزمان وليالي الفاطمية من كل عام. وهذه المجالس معروفة عند أتباع أهل البيت عليهم السلام، مضافاً إلى ذلك تمّ اصدار كراسات في حياة وفضائل الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام، وهي في الحقيقة مجموعة محاضرات وبحوث كان الاستاذ يلقيها على الطلّاب في ليالي الفاطمية من كل عام، وقد صدر كتاب بعنوان «**الزهراء عليها السلام أفضل نساء العالمين**»، ويتحدّث لنا سماحة الاستاذ عن قصته في مورد مقولته بأنّ فاطمة الزهراء عليها السلام مظهر «**يا من يقبل اليسير**» ويقول:

«إنّ هيئة محبّي فاطمة الزهراء عليها السلام في مشهد كانوا يقيمون احتفالاً في كل عام بمناسبة ولادة فاطمة الزهراء عليها السلام في عشرين جمادي الثانية، وأحد ابتكاراتهم في هذا المجال أنّهم كانوا يقدّمون لكل شخص من الحضار علبة من الحلويات مع كتاب جديد حول عظمة الزهراء عليها السلام وفضائلها، وبذلك يضفون على الحفل البهيج مزيداً من الثقافة الدينية، وقد طلبوا مني تأليف كتاب مختصر في هذا المجال، وقد تمّ طبع هذا الكتاب مع مضامين جديدة وتمّ نشره في ذلك المجلس في مشهد قبل أن ينتشر في مناطق أُخرى، وفجأة وصلت لي رسالة من شخص جليل في اصفهان يقول فيها ما مضمونه: إنّني لا أعلم ماذا صنعت حتى تكون مورد اهتمام وتوجه فاطمة الزهراء عليها السلام، لأنني رأيتك في عالم الرؤيا في مجلس حافل ومجلل وقد حضر فيه سيد جليل القدر (والظاهر أنّه رسول الله صلى الله عليه وآله) وقال لي: إنّ الشيخ مكارم قدّم خدمة لفاطمة الزهراء، فاستيقظت من نومي ولم أعلم شيئاً عن تأويل الرؤية، وأُريد أن تحدّثني بالمسألة؟ فتحدّثت بهذه الرؤية لأحد علماء مشهد وقلت له: إنني لم أُقدّم شيئاً سوى القليل جدّاً، فقال: ألم تعلم أنّ فاطمة الزهراء عليها السلام مظهر الاسم المقدّس «يا من يقبل اليسير»؟!».

إنّ الكثير من الأشخاص الذين يتحركون في حياتهم من موقع السعي الجاد وبذل الجهد اللازم إلّا أنّهم لا يمتلكون الذكاء المناسب، والكثير من الأشخاص يمتلكون القابلية والذكاء والنبوغ، إلّا أنّهم لا يتحركون على مستوى الجدية في العمل واستثمار هذه المواهب والطاقات على مستوى العمل والممارسة، وهناك بعض الأشخاص الذين يتمتعون بالنبوغ والقابليات الذاتية مضافاً إلى النشاط والجدية والاستقامة في العمل ولكنّهم يغفلون عن عنصر الامدادات الغيبية والاستفادة من أنوار الولاية، ولكنّ سماحة الاستاذ قد جمع بشكل كامل بين هذه النعم الثلاث، وقد تقدّم الكلام عن النبوغ والقابلية الذاتية في فصل «**النبوغ والموهبة الذاتية**»، أمّا الحديث عن الاستقامة والجدية والعمل فقد تقدّم الكلام عنه في ما سبق تحت عنوان «**دوام العمل**» و«**الجدية والاستقامة**»، وفي هذا الصدد تحدّث الاستاذ يوماً وقال: «يقال أنّه لا يمكن حمل بطيختين بيد واحدة في حين أنني أحمل عدّة بطيخات بيد واحدة».

وأمّا الاستفادة من أنوار الولاية فالبرغم من أنّ الجميع يعلم أنّ الاشتغالات العلمية والنشاطات الفكرية تستغرق وقتاً كبيراً وتورث صاحبها الغفلة عن الأُمور الأُخرى والالتفات إلى ما حوله وما يحيط به، إلّا أنّ الاستاذ مع كثرة اشتغالاته لم يغفل اطلاقاً عن التشرف بحرم السيدة المعصومة عليها السلام وكذلك الذهاب إلى مسجد جمكران في طول المدّة.

الدفاع عن المذهب في مجلس الخبراء:

من المعلوم أنّ التوسل والاستمداد بالأنوار الإلهيّة هذه لها دور فاعل في زيادة التوفيق الرباني للاستاذ على مستوى التأليف وكتابة الكتب، ومن المعلوم أيضاً أنّ دفاع الاستاذ عن مذهب التشيع ومدرسة أهل البيت عليهم السلام لأكثر من نصف قرن له دور مهم وأساسي في نيل العنايات الخاصة لتلك الأنوار الإلهيّة الطاهرة، وما يجدر ذكره عن دفاع الاستاذ عن مدرسة

أهل البيت عليهم السلام، مضافاً إلى ما تقدّم تحت عنوان «**حراسة الدين**»، هو أنّ السعي الجاد والمستمر لسماحته في مجلس الخبراء القانون الأساسي فيما يتعلق بمسألتين: تشريع أصل أنّ المذهب الشيعي الاثني عشري بعنوان المذهب الرسمي للدولة وطرد الفرقة الضالة البهائية من كونهم أقلّية مذهبية تعيش في ايران، ويتحدّث الاستاذ نفسه عن هذه القضية بقوله:

«كنت في مجلس الخبراء في قسم المذاهب واللغات، وطبعاً كان في مجموعتنا أحد الاخوة من أهل السنة وهو المولوي عبدالعزيز الذي كان رجلاً فاضلاً وعالماً وكان بإمكاننا التفاهم معه كثيراً، مضافاً إلى أحد علماء الزردشتيين وأحد القساوسة النصارى وأحد كبار اليهود أيضاً، ومن هذه الجهة فمجموعتنا متميزة بهذه التشكيلة عن سائر المجاميع في المجلس المذكور، فلابدّ من عقد جلسات مشتركة مع رموز ورؤساء المذاهب والأديان في هذا البلد لنتحدّث عن القضايا المتعلقة بالأديان ومكانتها في القانون الأساسي لسن قوانين لازمة في هذا الشأن ودراستها في الجلسة العامة، وقد بذلنا جهوداً كبيرة حتى استطعنا ادخال الموارد المتعلقة بالمذهب الرسمي في القانون الأساسي بأدوات منطقية وبأساليب قانونية على أساس أنّ المذهب الرسمي في هذا البلد هو المذهب الشيعي الإثنا عشري، في نفس الوقت تكون الأقليات المذهبية في الجمهورية الإسلامية محترمة وتتمتع بحقوق المواطنة ولا تواجه أيّة مشكلة في حركة الحياة في داخل المجتمع الإسلامي، والعجيب أنّ الفرقة البهائية الضالة تحركت في تلك الأيّام بفاعلية شديدة وبرنامج منظم وادعاءات كبيرة من خلال أرقام كاذبة عن عدد نفوسهم في ايران وأنّ عدد أفراد هذه الفرقة أكثر من سائر الفرق الدينية الأُخرى، وقاموا باتصالات واسعة من الخارج والداخل وبإصرار

على السماح لهم بحيازة كرسي خاص في المجلس لتكون فرقة رسمية ومشروعة، ولكنني كنت على اطلاع تام بتاريخ هذه الفرقة، ولهذا كنت منذ البداية وعندما كان لي من العمر خمسة عشر أو ستة عشر عاماً في شيراز، أشترك في جلساتهم أحياناً وأقوم بمناقشتهم والتحاور معهم في هذا الشأن، وفي مدينة قم كنّا نعقد جلسات عديدة للتحقيق في عقائد وسلوكيات هذه الفرقة وأنّ أفرادها مرتبطون بالاستعمار قطعاً، فقد ولدت هذه الفرقة في أحضان الروس وتم ترشيدها في أحضان الانجليز ثم جعلوا أنفسهم مطية للامريكان، والآن في الوقت الحاضر نجد الكونجرس الأمريكي يدافع عنهم بشدّة ممّا يدلّ على العلاقة الوثيقة بين رموز هذه الفرقة والاستكبار العالمي، فكنت على اطلاع كامل بهذه الأُمور، وكان في هذه المجموعة بعض الاخوة الأعزاء من رجال الدين مطّلعين كذلك علىٰ حال هذه الفرقة، ولذلك وقفنا موقفاً متشدداً أمام طلب هذه الفرقة، وأدّى إصرارهم الشديد إلى أن نضع المادة الخاصة بالمذاهب في القانون الأساسي بشكل يصطلح عليه في الحوزة «ينفي ما عداه»، بمعنى أنّ القانون يمنح حق المشروعية لليهود والنصارى والزرادشتين فقط على أساس أنّ هذه الأديان كانت مورد حماية القانون منذ قديم الزمان وعرفوا في كتبنا الفقهية بعنوان «أهل الكتاب» ويطلق عليهم الفقهاء أهل الذمة ولا يشمل هذا العنوان فرقة أو مذهباً آخر، وقد تمّ تدوين القانون الأساسي للجمهورية الإسلامية بشكل دقيق بحيث يطرد المذاهب المجعولة من قبل الاستعمار».

وعلى أيّة حال فانّ جميع هذه التوفيقات نشأت من خلال توسل وتمسك سماحة الاستاذ بذيل ولاية أهل البيت عليهم السلام التي كان يعيشها في أعماق وجوده طيلة حياته، هذا الارتباط الشديد والعلاقة الوثيقة أدّت إلى تمهيد الأرضية اللازمة لجذب أنوار الولاية أكثر

فأكثر، وطبقاً لما تقدّم تحت عنوان «**التشويق وجذب اعتماد الاساتيذ**» أنّ سماحة الاستاذ استفاد كثيراً من الأنوار الملكوتية والقدسية لأهل بيت العصمة عليهم السلام في حدود قابلياته وظرفيته بحيث خوطب من قبل الإمام المنتظر عليه السلام:

«**ناصر! سوف تنتفع ببركاتنا**»

٢٢

الهمّة العالية والأمل بالمستقبل

إنّ سماحة الاستاذ يمثّل تجسيداً للعدل على أرض الواقع، ويتمتع بهمة عالية وأمل بالمستقبل فلا يقف في طريق تحقيق أهدافه وفتح قمم الموفقيات أي مانع أو حاجز يمنعه من الوصول لأهدافه، بل ينطلق في عمله، عندما يشخص أنّ هذا العمل مفيد للإسلام والمسلمين، بنشاط وحيوية منقطعة النظير، والشاهد على ذلك الأعمال الكبيرة والنشاطات المتنوعة التي أنجزها سماحته أو في حال اتمامها والانتهاء منها.

بعد الانتهاء من تأليف دورة كاملة في التفسير الذي استغرق طوال خمسة عشر سنة، شرع سماحة الاستاذ مباشرة بتأليف التفسير الموضوعي للقرآن بشكل جذّاب وشيق ولحد الآن صدرت منه دورة كاملة بعشرة مجلدات من المعارف القرآنية، وصدر كذلك ثلاثة أجزاء أُخرى في الأخلاق، هي الجزء الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر، في حين أنّ الاستاذ عازم على الشروع بتأليف شرح وتفسير لنهج البلاغة بمساعدة مجموعة من الفضلاء والطلّاب وقد صدرت بحمد الله منه ثلاثة أجزاء يتضمن شرحاً مفصلاً وتفسيراً شيّقاً بمضامين عميقة وسلسة، وكان المجموع تسعين خطبة من نهج البلاغة، وهذا المشروع لازال فاعلاً ومستمراً.

إنّ علو همة الاستاذ وقوة عزيمته وإرادته في فتح القمم الشاهقة للمعارف ونشر العلوم الإسلامية واحياء الحوزات العلمية إنّما يتضح ويتجلى بصورة جيدة عندما نستمع في هذا الفصل إلى حديث الاستاذ الملىء بالأمل، فنعيش الأمل والأُفق الواسع في حركتنا الفكرية والروحية، يقول سماحته:

«إنّ أملي الوحيد أن أتحرك فيما تبقى من عمري من أجل المعارف الإلهيّة، وأصل إلى مرتبة من العلم بحيث يشع نور اليقين على قلبي بلطف الله تعالى وأعيش الطمأنينة والسكينة الروحية في ظل الشهود القلبي ويمتلأ وجداني من الإيمان واليقين والعشق لله بحيث يتطهر من كل شائبة ومن كل ما سوى الله، هذا هو أول وأكبر أمل في حياتي والذي سألت الله أن يرزقني ويمنحني هذه الأُمنية ما دمت في حال الحياة بحيث أصل إلى مرتبة أن لا أرىٰ عندها سبباً آخر في هذه المواهب والنعم غيره.

والأمل الآخر الذي أعيشه في حياتي أن أتمكن بمساعدة الاخوة الأعزاء في الحوزة العلمية من إيجاد تحوّل واسع وعميق في الحوزة، وبذلك أُحقق مضمون الحديث الشريف الوارد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**ستخلو كوفة من المؤمنين ويأزر عنها العلم كما تأزر الحيّة في جحرها، ثم يظهر العلم ببلدة يقال لها قم، وتصير معدناً للعلم والفضل حتّى لا يبقى في الأرض مستضعف في الدّين، حتّى المخدّرات في الحجال، وذلك عند قرب ظهور قائمنا... فيفيض العلم منه إلى سائر البلاد في المشرق والمغرب**»[1].

وهكذا أجد أنّ أملي القلبي أن أُجسّد هذا المضمون على أرض الواقع واحقق النبوءة المهمّة لأئمّة المعصومين عليهم السلام.

وأملي الآخر أن أتمكن من استثمار هذه الفرصة المناسبة جدّاً في أجواء عالمنا المعاصر لايصال صوت الإسلام إلى جميع أقطار المعمورة وبلغات مختلفة ومن خلال المبلّغين الجيدين، وقد كانت الحوزة العلمية مركز التحقيق في فقه آل محمد عليهم السلام ومعدن علوم التفسير والعقائد والحديث، وعلينا استثمار القابليات والطاقات المبدعة والممتازة في الحوزة العلمية من

١. بحار الأنوار، ج ٥٧، ص ٢١٣.

داخل ايران وخارجها ونعمل على تربيتهم وإيجاد تحوّل كبير في العالم الإسلامي.

والأمل الآخر هو أن نتمكن، من أجل حفظ ثقافتنا الإسلامية في مقابل الهجمة الثقافية الغربية المخربة، من التحرك على مستوى إيجاد مواقف مؤثرة ونشاطات مثمرة وخاصة على مستوى الشباب لنحفظهم من هذه الهجمة الثقافية الشرسة ونتمكن من إيجاد الوحدة بين الحوزة والجامعات لأنّ خطر الغزو الثقافي في الجامعات أكثر من أي مكان آخر، ونتمكن بالتالي من تجسيد ونشر الأخلاق الإسلامية في مفاصل المجتمع بهدف حل الكثير من مشاكل الناس في مجال الاقتصاد والعلاقات الاجتماعية والروابط الأُسريّة.

وأملي الآخر أننا نعيش في الحال الحاضر ونرى أنّ الناس وخاصة المستضعفين منهم يواجهون مشكلات عديدة، فعلى رجال الدين الاقدام لحلّ هذه المشاكل مهما أمكنهم ذلك أو المساعدة في حلّها فانّ لذلك أثراً إيجابياً كثيراً على التزامهم الديني وتوجههم القلبي نحو الدين، وحينئذٍ يكون الإسلام هو المنقذ في أُمور دينهم ودنياهم.

وأملي الأخير هو أنني أتمكن فيما بقي من عمري أن أقوم بتأليف كتب علمية أكثر وأعمق وأشمل من السابق، ولعل ذلك يكون وسيلتي للنجاة غداً حيث يقرأوها الناس بعد ذلك ويترحمون عليَّ ويطلبون لي من الله المغفرة والرحمة، وأنا على يقين أنّ ما عملته لحدّ الآن لم يكن شيئاً يستحق الذكر، وليتني استطعت أن أُقدم للإسلام شيئاً مهماً، وعلى أيّة حال فإنّ أملنا كبير بالله تعالى وبلطفه وليس لنا أمل ورجاء إلّا بلطف الله وعنايته».

٢٣

الروح العالية التي لا تعرف التعب في مجال تقديم الخدمات العلمية والاجتماعية

عندما يؤمن العبد السالك بعالم الغيب وإشرافه على عالم الشهادة ويعيش في مسيرة عالم الملكوت فانّ ذلك يؤدّي إلى علو الهمّة وتنشيط القوّة وترسيخ العزم لدى السالك بحيث يرى الأعمال الكبيرة صغيرة وتافهة وتكون التعقيدات والمشكلات التي يفرضها الواقع أمامه سهلة وميسورة، لأنّه يشعر بذلك الإيمان وذلك الاحساس الباطني أنّ الله معه في كل عمل يعمله ويقول: المهم أن أعقد العزم وأشرع بالعمل وأنوي أن أعمل صالحاً ليصطبغ العمل بصبغة إلهيّة فلا يكون أبتراً وناقصاً، بل يصل إلى نهايته وغايته.

إذن فلو مدّ الله في عمرنا ولم يحن أجلنا فعلينا الاستمرار بالعمل والاستقامة في أداء واجبنا، وإن لم يحالفنا الحظ في اتمامه وحان أجلنا في أثناء ذلك، فبما أنّ هذا العمل، عمل «صالح» وملكوتي وإلهي، فانّ المتبني له هو الله تعالى حيث يتمكن هذا العمل من رفع رصيدنا المعنوي في أجواء عالم الملكوت والقرب المعنوي الإلهي.

وليس المهم أيضاً بأي اسم سيكتب هذا العمل في النهاية لدى أهل الظاهر وأصحاب الدنيا، بل المهم أن تكون لنا حصة في السماء وعند عالم القدس والملكوت، ولكن بما أنّ البداية لابدّ أن تكون من قِبلنا ولابدّ من النيّة وقصد القربة في الفعل وكذلك التحرك في خط المداومة والاستقامة على هذا العمل لذلك يتطلب منّا العمل الخالص أن يكون الفعل «**مجهولاً في الأرض معروفاً في السماء**».

وبالرغم من المثل المعروف وفي النظرة الظاهرية أنّ الشخص الذي يبدأ بعمل فعليه إتمامه، ولكن في نظرة أُخرى سماوية وملكوتية ومورد قبول العقل والشرع أيضاً «من سنّ سنة حسنة...» فلابدّ من القول إنّ الشخص الذي يفعل الفعل هو الذي بدأ به.

لأنّ تصوير اطروحة كلية وجامعة لفعل من الأفعال يمثل أصعب مرحلة وأهم نقطة في ذلك المشروع، لأنّ التخطيط والتدبير لفعل معين في بداية الأمر يفضي إلى تجلي هذه الخطة والفكرة في ما بعد على مستوى نتائج العمل، والكثير من المشاريع والاطروحات الفكرية المهمّة المعقدة تكون صعوبتها بالذات مانعة من الإقدام على ترجمتها وتجسيدها في الواقع العملي لأغلب الأطراف، ولذلك نرى أنّ الكثير من الأعمال بقيت ناقصة لهذا السبب، أو لم يجد صاحبها الجرأة على الشروع بها على مستوى العمل، إنّ الشروع في عمل معين مضافاً إلى حاجته للفكر والتدبير والخلاقية والتخطيط لصياغة رؤية شاملة عنه، يحتاج أيضاً إلى إرادة قوية وعزم نافذ واعتماد على النفس والتوكل على الذات المقدّسة.

والواقع أنّ هذه الرؤية الدقيقة تنقل الإنسان من أجواء الضعف والمادة وأنّه مجرّد بدن متكّون من لحم وعظم ويتعرض إلى أنواع الأمراض وأشكال الوهن والضرر إلى موجود يوازي بقدرته الجبال ويعادل شخص واحد مائة ألف شخص، فاذا كان يشتغل في دائرة التأليف والتحقيق فإنّه ينتج من الكتب والمؤلّفات بحيث إنّ الآخرين لا يجدون فرصة لعد صفحات هذه الكتب والتصانيف، وإذا كان ينطلق في عمله في إطار تقديم خدمات علمية وثقافية وفنيّة للناس، فإنّه سيمتلك السعي الجاد والاستقامة في العمل والصبر أمام تحديات الظروف الصعبة بحيث إنّ الآخرين لا يمكنهم تصور ذلك في مخيلتهم وسيندهشون لدى ملاحظة دقائق أعماله ودراسة تفاصيل نشاطاته.

إنّ مثل هؤلاء الأشخاص المجاهدين متصلون بالبحر ويستندون على الجبل فلا يشعرون بأنّ الطريق موصدة أمامهم ولا يحسون نقصاً في هممهم وقابلياتهم، وأساساً فإنّه لا يوجد في قاموسهم عبارات «**لا نملك الميزانية اللازمة لهذا العمل**» و«**لعل هذا العمل لا يصل**

إلى النهاية» و«لعل عمرنا لا يكفي لاتمام هذا المشروع» وأمثال ذلك، اذن فلو تقدم هذا الشخص في ميدان التأليف فإنّه قد يشرع بتأليف كتاب وهو في سن السبعين من العمر حيث من البعيد حسب التحليل الظاهري والمادي أنّ قواه الفكرية والنفسية ستواصل هذا العمل إلى النهاية، وإن عقد العزم على الشروع بعمل معين في مجالات أُخرى من الخدمات الثقافية والفكرية وبيد عزلاء وامكانات محدودة ظاهراً، أو أمر بالإقدام على عمل واطروحة معينة قد يعتقد البعض بأنّ الانتهاء منها وإتمامها أقرب إلى المزاح.

ونحن بدورنا نشكر الله تعالى على أنّ استاذنا من جملة الأشخاص الذين يتمتعون بهذه الرؤية النورانية، بمعنى أنّه يمثّل فرضية «القطرة المتصلة بالبحر» حيث يرى امكاناته لا متناهية، وبما أنّه متعطش للخدمة ولاحياء الدين والمذهب فإنّه لا يجد في نفسه شعوراً بالتعب من النشاطات العلمية والثقافية ولا يشعر بالارتواء منها.

ومن أجل إثبات هذا المدّعى يكفي أن نشير أولاً: إلى إقدامه الشجاع في مجال شرح وتفسير نهج البلاغة الذي بدأه في السبعين من العمر مع ما نعلمه من سعة هذا المشروع وطول مدّته «وبحمد الله تمّ إصدار ثلاثة مجلدات منه تتضمن شرح الخطبة الأُولى إلى الخطبة التسعين» حيث يستغرق هذا العمل بحساب بسيط خمسة عشر عاماً على الأقل للانتهاء منه.

وثانياً: بملاحظة فهرست التأليفات والتصنيفات التي كتبها سماحته حيث يتجاوز عددها مائة وثلاثين كتاباً، ولو ألقينا نظرة إلى فهرست سائر الخدمات الثقافية لسماحته «**من قبيل بناء مسجد ومدرسة وأمثال ذلك**» لرأينا أنّها على نحوين:

أ) الآثار العلمية.

ب) الآثار الاجتماعية

أ) الآثار العلمية

وتشمل ١٣١ كتاباً في ٧٠ عنواناً وفي ثمانية أبواب

لقد تمّ نشر أكثر من مائة وثلاثين كتاباً في سبعين عنواناً إلى هذا الزمان الذي أكتب فيه هذه السطور، وقد تمّ إعادة طبع بعضها أربعين مرّة وتمّ كذلك ترجمة الكثير منها إلى عـدّة لغات عالمية.

وفي نظرة إجمالية على هذه الكتب والمؤلّفات يمكننا إدراجها في ثمانية أبواب:

ُول: الكتب الفقهية والاصولية